المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

شبلي النعماني الهندي

علم الكلام الجديد



ترجمة وتقديم : جلال السعيد الحفناوي

مراجعة: السباعي محمد السباعي

1974

علم الكلام الجديد

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1974
- علم الكلام الجديد
- شبلى النعمانى الهندى
- جلال السعيد الحفناوى
- السباعى محمد السباعى
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

جديد علم كلام

تاليف: العلامة شبلي النعماني الهندي

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

علم الكلام الجديد

تـــــــــأليف: شبلي النعمـاني الهنـدي

ترجمة وتقديم: جلال السعيد الحفنـاوي

مراجعـــــــــة: السباعي محمد السباعي

2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الهندي، شبلي النعماني
علم الكلام الجديد/ تأليف: شبلي النعماني الهندي، ترجمة وتقديم: جلال السعيد الحفناوي، مراجعة: السباعي محمد السباعي؛
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢
٣٦٨ ص، ٢٤ سم
١ - علم الكلام
(أ) الحفناوي، جلال السعيد (مُترجم ومُقدم)
(ب) السباعي، السباعي محمد (مُراجع)
(ج) العنوان ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٧٩٤٨ /٢٠١١
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 799 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم المترجم

يعد شبلي النعماني (١٨٥٧-١٩١٤)، مؤلف كتاب علم الكلام الجديد، من أبرز العلماء في شبه القارة الهندية. لقد كان مؤرخًا ناقدًا شاعرًا ناثرًا ومصلحا بالإضافة إلى دوره الرائد في الحركة الفكرية في الهند في حقبة شهدت تصارُعًا في الأفكار والأيديولوجيات بين أنصار التعليم الديني القديم وأنصار العلوم الحديثة التي نادى بها الإنجليز، وقد ترتب على ذلك ظهور "ندوة العلماء" باعتبارها اتجاها توفيقيا بين هذين الاتجاهين، وكان شبلي النعماني على رأس المؤسسين لهذه المدرسة العلمية.

وعاش شبلي حياته مدافعًا عن أفكاره، وشغلته قضية التعليم والمدارس العربية وإصلاح المناهج وتطوير التعليم، وتعدى اهتمام شبلي بهذه القضية حدود الهند إلى الدول الإسلامية التي زارها - مصر وتركيا والشام - فاهتم بزيارة المدارس والكليات والمكتبات، وحرص على إجراء مناقشات طويلة مع رموز الفكر والتعليم في مصر خاصة، كما اهتم كذلك بقضية تطوير التعليم في الأزهر.

وترك لنا شبلي النعماني ثروة فكرية ضخمة تنوعت موضوعاتها واللغات التي كتبت بها، فكتب في علم الكلام والفلسفة والتاريخ والسيرة والنقد والشعر والرحلات، إلى جانب مقالاته في المجلات والصحف والتي تضم موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية شتى، وكتب شبلي هذه المؤلفات بثلاث لغات هي: الأردية والفارسية والعربية، وله مقالات عديدة في مجلة الهلال المصرية، كما نشر له رشيد رضا - صاحب المنار سلسلة من المقالات في مجلة المنار - وجمعت بعد ذلك في كتاب "الانتقاد على التمدن الإسلامي لجورجي زيدان" وصدر عن دار المنار في القاهرة.

وقد طالع القارئ المصري أكثر من كتاب مترجم لشبلي النعماني، حيث نشر له المجلس الأعلى للثقافة - في إطار المشروع القومي للترجمة - كتاب "الفاروق" عام ٢٠٠٠م، و"رحالة هندي في بلاد الشرق العربي" عام ٢٠٠٢م لكاتب هذه السطور، وقد نفدت الطبعة الأولى منهما، وأعاد المركز القومي للترجمة طباعة كتاب "رحالة هندي في بلاد الشرق العربي" عام ٢٠٠٩م، كما وافق المركز القومي للترجمة على ترجمة موسوعته الأدبية والنقدية " شعر العجم" وتقع في خمسة أجزاء أرخ فيها لتاريخ الشعر الفارسي، وتترجم إلى اللغة العربية لأول مرة، وقد ترجمت هذه الموسوعة إلى اللغات الفارسية والهندية والتركية والإنجليزية، واستفاد منهما المستشرقون كثيرًا في فهم الأدب الفارسي.

وهذه الترجمة التي بين يدي القارئ هي نموذج لإسهامات علماء الهند في التأريخ لعلم الكلام الجديد وتقع في جزأين، الجزء الأول: علم الكلام، والجزء الثاني الكلام، وسينشر في الطبعة العربية في كتاب واحد.

وقد كتب شبلي الجزء الأول: علم الكلام بعد كتاب الغزالي، وقد تواردت فكرته الأولى عنده في أثناء إقامته في "على كره" عندما كتب موضوعًا باسم "المعتزلة والاعتزال" في مجلة "تهذيب الأخلاق" عام ١٨٩٥، ثم فكر في أن يكتب كتابًا بعنوان "علم الكلام"، وانتهى من تأليفه في ١٨ مارس ١٩٠٢م، وكان شبلي مريضًا في ذلك الوقت، فأملاه على أحد تلاميذه وهو مستلق على سريره؛ ولهذا كان مختصرًا جدًا، وقد اعترف شبلي بذلك حيث يقول: "كتبت كتابًا مختصرًا جدًا في علم الكلام وهو في تاريخ علم الكلام" . وتحدث شبلي في هذا الكتاب عن نشأة علم الكلام عند المسلمين والتطورات التي واكبت عهوده المختلفة، وقدم تفصيلاً دقيقًا للتغيرات التي حدثت له، كما قدم نقدًا كاملاً لجميع أنواع علم الكلام، وقد مهد شبلي لهذا العلم فقال: "لقد حاول المسلمون محاولات مستميتة في كل عصر لإنقاذ

الدين من المخاطر التي تحيط به من كل جانب، وفي أيام الدولة العباسية عندما تمت ترجمة علوم اليونان وفارس إلى اللغة العربية انتشرت المناظرات والمباحثات الفكرية بين جميع الأقوام وواجه الإسلام خطرًا فادحًا عندما وقف المجوس والمسيحيون واليهود والزنادقة وأرادوا الانتقام بأقلامهم لما حل بهم من سيف الإسلام، فانبروا ينتقدون العقائد وأركان الإسلام بحرية وجرأة؛ حتى تزعزعت عقائد المسلمين من ضعيفي العقيدة والإيمان، عندئذ هب علماء المسلمين وتعلموا أصول الفلسفة واستعملوا نفس سلاح المعارضين للإسلام؛ فكانت مآثر تلك المعارك الإسلامية هي التي عرفت فيما بعد باسم علم الكلام في الوقت الحاضر".

ثم يتطرق شبلي بعد ذلك إلى المؤلفات التي كتبت في هذا العلم، فيقول: "ألفت كتبًا عديدة في العربية في سيرة المتكلمين وعن علم الكلام؛ أولها كتاب العلامة المرزباني "أخبار المتكلمين" وهو من أعظم مؤرخي القرن الرابع الهجري، وقد أثنى عليه ابن النديم، ثم ألفت بعده كتبًا عديدة منها "مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري، والملل والنحل "لابن حزم. ثم أشار شبلي إلى الكتب التي رجع إليها مثل: "تأويلات القرآن" للإمام أبي منصور الماتريدي، ومؤلفات الإمام الغزالي جميعًا مثل: "تهافت الفلاسفة والتفرقة بين الإسلام والزندقة" و"مشكاة الأنوار" والمنقذ من الضلال" وغيرها، وأرسله شبلي للمطبعة في ٢١ أبريل ١٩٠٢م ونشر في مارس ١٩٠٣م.

ويعد "الكلام" الجزء الثاني في حقيقة الأمر تتمة لموضوع علم الكلام الذي بدأه شبلي في الجزء الأول وسماه "علم الكلام"، ويتناول شبلي في هذا الجزء علم الكلام الجديد ويقارن فيه بين عقائد الإسلام والحقائق الفلسفية.

وكان شبلي في ذلك الوقت في حاجة إلى معلومات عن الفلسفة الحديثة وآراء فلاسفة أوربا في موضوع الروح وواجب الوجود، وفي تلك الأثناء كان

المؤلف المصري فريد وجدي قد انتهى من كتابة رسائله، المعروفة باسم "الإسلام في عصر العلم"، فأطّلع عليها شبلي وأفاد منها كثيرًا. وقد بدأ شبلي حديثه عن "علم الكلام" الجديد وطريقة تدوينه ورأي الإمام الغزالي في الكتب المتداولة التي لا توضح الحقيقة، ثم تحدث عن العلوم الحديثة والدين وبين أسباب ترجيح الإسلام على الأديان الأخرى، ثم تناول موضوع "العقل والدين"، وتطرق إلى قضية "وجود الله" وطرق الاستدلال على "وجود الله"، وقارن بين استدلال أرسطو وأبي على سينا واستدلال المتكلمين على وجود الله ودلائلهم ثم الرد عليهم والاستدلال بالتوحيد في الصفات والعبادات، وبحث موضوع النبوة بالتفصيل، فذكر رأي الجاحظ في النبوة وحقيقتها عند الأشاعرة والاعتراض على النبوة في موضوع خرق العادة والمعجزات وآراء الفقهاء في حقيقتها مثل رأي أبي علي سينا والإمام الرازي والغزالي وشاه ولي الله الدهلوي"، وانتهى شبلي من تألفيه عام ١٩٠٣م، ونشر في مطبعة كانبور عام ١٩٠٤.

وكان اعتمادي في ترجمة " علم الكلام الجديد" على طبعة معارف أعظم كره وهي طبعة قديمة غير محققة، ولقد حرصت على أن أترجم الحواشي كما هي، وكما ذكرها شبلي في متن النص الأردي وبالنسبة للهوامش الخاصة بالتحقيق والتوثيق فقد وضعت أمامها كلمة المترجم.

وقد واجهتني مشكلة خاصة بترجمة النصوص التاريخية والأقوال المأثورة فهي في الأصل عربية ترجمها شلبي إلى الأردية، فآثرت الرجوع إلى هذه الأصول لإثبات مواضع الاقتباس والنقل من النصوص الأصلية.

وأرجو أن تلقى هذه الترجمة الضوء على علم الكلام الجديد وتاريخ علم الكلام عند المسلمين، وهو من مآثر حضارتنا الإسلامية ودليل على أننا أمة تفكر.

وفي النهاية أقدم شكري الجزيل للمركز القومي للترجمة وللأستاذ الدكتور جابر عصفور لموافقته على ترجمة هذا الكتاب المهم ورعايته للآداب الشرقية بعامة واللغة الأردية بخاصة، كما أقدم شكري وامتناني لأستاذي الأستاذ الدكتور السباعي محمد السباعي لتجشمه عناء المراجعة وخروج هذه الترجمة بالصورة التي عليها الآن.

وعلى الله قصد السبيل ومنى الجهد ومن الله التوفيق.

جلال السعيد الحفناوي

أستاذ اللغة الأردية

المدينة المنورة

الجزء الأول

علم الكلام

تمهيد

لا يجوز معرفة مدى حسنك بالإدراك .. وهذا الكلام أيضا على قدر إدراكي

لكل أمة في العالم دين ظل لديها أعز من كل شيء، ولكن بالنسبة للمسلمين كان الإسلام أكثر أهمية ويجب أن يكون كذلك، فالمسلم لا ينتمي إلى أفراد أسرة أو منطقة أو دولة أو جنس، وعنصر القومية لدى المسلمين ينحصر فقط في الدين، ولهذا لو تم فصل مكانة الدين لفنت القومية كذلك، ونتيجة لهذه الفكرة بذل المسلمون جهودًا مضنية في كل عصر للمحافظة على دينهم من جميع المخاطر المحدقة به، وعندما ترجمت الذخائر العلمية لبلاد فارس واليونان إلى اللغة العربية في عهد الدولة العباسية، منحت حرية عامة لجميع القوميات والأديان للمناظرات والمناقشات الدينية، عندئذ واجه الإسلام مخاطر جمة عندما هب المجوس والنصارى واليهود والزنادقة من كل صوب وحدب وأرادوا الانتقام بأقلامهم مما اعتورهم من صدمة سيف الإسلام في بداية الفتوحات الإسلامية، فبدءوا ينتقدون الإسلام وعقائده ويكيلون له التهم بحرية وبجرأة، لعل ذلك يزلزل اعتقاد ضعفاء العقيدة من المسلمين.

وكان من السهولة بمكان آنذاك أن تخرس الحكومة ألسنة المنتقدين بالقوة، لكن حرية الفكر لدى المسلمين لم تستسغ هذا العار المتمثل في مجابهة القلم بالسيف، ودرس علماء المسلمين الفلسفة بشوق وجهد ومثابرة، واستعملوا نفس السلاح في مجابهة أعداء الإسلام، وكانت مآثر تلك المعارك الفكرية هي المشهورة اليوم باسم علم الكلام.

لقد كانت المخاطر التي واجهت الإسلام في زمن الدولة العباسية لا تقارن بمثيلتها في العصر الحاضر، حيث انتشرت العلوم الغربية في كل بيت وعمت الحرية جوانب العالم، ففي العصور الأولى لم يكن قول الحق سهلاً إلى هذا الحد مثل سهولة قول الزور في هذه الأيام، وانتشرت الأفكار الدينية عمومًا، وأخذ المتعلمون الجدد يشعرون بالرهبة، وكان قدامى العلماء يطلون برؤوسهم أحيانًا من كوة العزلة فيجدون أفق الدين ملبدًا بالغبار.

وظلت النداءات تنبعث من كل جانب مطالبة بأهمية وجود علم الكلام الجديد، وقد سلم الجميع بهذه الأهمية لكنهم اختلفوا بالنسبة إلى الأصول، فتنادى جماعة المتعلمين الجدد بضرورة أن يقوم علم الكلام الجديد على أصول جديدة تمامًا؛ لأن نوعية الانتقادات التي كانت توجه ضد الإسلام في العصور السالفة تغيرت أشكالها في العصر الحديث، ففي العصور الأولى كانت مواجهة فلسفة اليونان قائمة على مجرد قياسات وظنون، بينما هي اليوم قائمة على التجربة والبديهيات؛ ولهذا لا يمكن أن نقابلها بالقياسات العقلية والاحتمالات والظنون.

ولكن هذه الفكرة غير صائبة في رأينا، لأن قضايا علم الكلام القديم غير المقيدة في العصر الحاضر لم تكن كافية في بداية الأمر، وكان جزء منها مفيدًا في ذلك الوقت وفي الوقت الراهن أيضًا وسيظل كذلك دائمًا، لأن صحة قضية ما لا تتغير بتقلب أحداث الزمان وامتداده، وبناءً على ما مر بنا كنت أرغب منذ فترة في تأليف كتاب عن أصول علم الكلام القديم وما يوافقه من أصول جديدة، لكنني أدركت أنه من الضروري لذلك أن أكتب تاريخًا مفصلاً لعلم الكلام أولاً؛ وذلك لسببين:

١- الهدف من تأليف كتاب في علم الكلام هو بيان أسلوبه ومنهجه، ولكن من الضروري ألا نحيد عما قرره كبار السلف من أصول وقواعد خاصة به،

ولهذا من المهم ذكر الأصول التي اختارها أئمة الإسلام في كل عصر، والتغيرات التي أحدثوها فيه ومازالوا يحدثونها، وأي نوع من التغيرات، وهناك فائدة ترجى من هذا حيث سيرد ضمنا الكثير من مآثر المسلمين مثل سعة الصدر وعظم الهمة والشجاعة وحرية الرأي والاستنارة والتي لم يكتب عنها أي تاريخ مفصل ولم تتجل بأي طريقة أخرى.

٢- إن من بين المناهج التي اخترعها الأوربيون في فن التاريخ أنهم يكتبون تاريخ العلوم والفنون ضمن تاريخ الأفراد والشعوب، فيذكرون على سبيل المثال متى نشأ هذا العلم، وما الأسباب التي أدت إلى نشأته، وما الطريقة التي انتشر بها من عهد إلى عهد، وما التطورات والتغيرات التي طرأت عليه، وما الأسباب التي أدت إلى ذلك، ولا يوجد أي نوع من هذه المؤلفات في الأردية وكذلك في العربية والفارسية، ومنذ أن شرعت في التأليف اخترت الكتابة في التاريخ في مؤلفاتي وهكذا حتى الآن ما يخطه يراعي ويُنشر فهو في مجال التاريخ وبناءً، على ذلك فإن علم الكلام خارج عن تخصصي، ولكنني بكتابة تاريخ علم الكلام أكمل نقصًا كبيرًا في الأدب الإسلامي من جانب، ومن جانب آخر فإن هذا المؤلَف وهو في الحقيقة مؤلَف في علم الكلام يندرج ضمن التاريخ ولن أكون مذنبًا بتجاوزي لهذا الحد.

لقد ألفت كتبًا عديدة في اللغة العربية عن علم الكلام وسير المتكلمين، كان أولها على الإطلاق كتاب باسم " أخبار المتكلمين" للعلامة المرزباني المتوفي سنة ٣٨٤هـ، وكان من كبار المؤرخين في القرن الرابع الهجري ويذكره ابن النديم في كتابه الفهرست بكلمات مليئة بالثناء عليه، ثم ألفت كتبًا كثيرة بعده تفصيلها حسب مايلي.

الكتب التي ألفها القدماء عن علم الكلام

اسم الكتاب	اسم المؤلف
مقالات الإسلاميين	الإمام أبو الحسن الأشعري
الملل والنحل	أبو مظفر طاهر محمد الإسفرايني
الملل والنحل	القاضي أبو بكر محمد الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ
الملل والنحل	أبو منصور عبد القادر طاهر البغدادي المتوفي سنة ٤٢٩هـ
الفصل في الملل والنحل	العلامة علي بن أحمد بن حزم الظاهري المتوفي سنة ٤٥٦ هـ
الملل والنحل	الإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفي سنة ٥٤٨هـ
الملل والنحل	أحمد بن يحيى مرتضى الزيدي.

ومن بين هذه الكتب يوجد في مكتبتي مؤلفات مرتضى الزيدي والشهرستاني وابن حزم، ونخلص من هذه الكتب أنه بادئ ذي بدء نشأ في الإسلام اختلاف في العقائد ثم تطور هذا الاختلاف، وبناءً عليه تكونت الفرق المختلفة، وقد كتبت تفصيلاتها ثم بينت عقائد الفرق المختلفة، وعندما ذكرت ابن حزم دونت معه رد الفرق المخالفة له، وقد اختص كتاب مرتضى الزيدي بالحديث عن المتكلمين من المعتزلة والزيدية، ولكن جميع هذه المؤلفات تقتصر فقط على اختلاف الفرق الإسلامية في حين أن جهود المتكلمين إزاء الملاحدة والفلاسفة لا ندري عنها شيئًا في تلك الكتب، ولهذا رجعت إلى الكثير من التصنيفات، وفيما يلي أذكر بعض أسمائها:

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تأويلات القرآن	الإمام أبو منصور الماتريدي
تهافت الفلاسفة	الإمام الغزالي
التفرقة بين الإسلام و الزندقة	الإمام الغزالي
مشكاة الأنوار	الإمام الغزالي
المقصد الأقصى	الإمام الغزالي
المضنون على غير أهله	الإمام الغزالي
المضنون على أهله	الإمام الغزالي
القسطاس المستقيم	الإمام الغزالي
الاقتصاد في الاعتقاد	الإمام الغزالي
معارج القدس	الإمام الغزالي
جواهر القرآن	الإمام الغزالي
إلجام العوام	الإمام الغزالي
المنقذ من الضلال	الإمام الغزالي
النفخ والتسوية	الإمام الغزالي
المطالب العالية	الإمام الرازي
نهاية العقول	الإمام الرازي
الأربعين في أصول الدين	الإمام الرازي

المباحث المشرقية	الإمام الرازي
حكمة الإشراق	الشيخ شهاب الدين بن عربي
هياكل النور	الشيخ شهاب الدين بن عربي
الكلام على المحصل	ابن تيمية
رد المنطق	ابن تيمية
شرح المقاصد	العلامة التفتازاني
شرح المواقف	القاضي عضد سيد شريف
الصحائف	القاضي عضد سيد شريف
كتاب الروح	ابن القيم

وفي العصر الحاضر صنفت كتبًا عديدة عن علم الكلام في الهند والشام ومصر، وقد أعد كتابًا عن علم الكلام الجديد، وينقسم علم الكلام الجديد هذا إلى قسمين:

يتناول القسم الأول المسائل والدلائل القديمة والعقيمة التي اخترعها الأشاعرة المتأخرون، والقسم الثاني يضم جميع أنواع الأفكار والمعتقدات التي قررها الأوروبيون وصراعهم مع القرآن والحديث والخلط بينهما. القسم الأول تقليد أعمى والثاني اجتهاد تقليدي، ولهذا فقد تجاهلت تلك المؤلفات تمامًا.

تاريخ علم الكلام

قسمان منفردان لعلم الكلام:

على الرغم من أن مسمى علم الكلام ظل يطلق علـى مجموعـة مسائل مختلطة ردحًا من الزمن، لكنه في الحقيقة قسمان منفردان وأهداف كل قسم مختلفة تمامًا عن الآخر، وأحد قسمي علم الكلام هو الذي نشأ نتيجة النزاع الذي دار بين الفرق الإسلامية وأخذ ينتشر على نطاق واسع لفترة من الزمن، وظلت المعارك الكلامية محتدمة بسببه ولم يستعمل فيها القلم فحسب بل استخدم السيف كذلك، وحلت بالقوة الوطنية للإسلام مأساة عارمة.

والقسم الثاني من علم الكلام كان قد اخترع لمجابهة الفلسفة، وظل كلاهما منفصلاً عن الآخر حتى عهد الإمام الغزالي، وقد مزج الإمام الغزالي بينهما، ثم طورهما الإمام الرازي، وجاء المتأخرون وجمعوا بين الفلسفة والكلام وأصول العقائد في موضوع واحد.

ولا تقتضي الحالة الراهنة للمسلمين البحث في القسم الأول من علم الكلام ولا أن يكتبوا تاريخه، لكن لأن القسم الثاني من علم الكلام الذي نهدف إلى كتابة تاريخه، والذي تم على غراره تأليف علم الكلام الجديد يتعلق به كثير من الآراء التى يرتهن معرفتها بتاريخ القسم الأول من علم الكلام، فمن المهم إذن وضع تصور مجمل له. ولم ينشأ أي نوع من البحث والنزاع والتحقيق والتمحيص الذي يتعلق بالعقائد طالما ظل الإسلام داخل حدود الجزيرة العربية، وسبب ذلك أن الذوق الأصلي للعرب يميل إلى الجانب العملي لا إلى الجانب الخيالي، ولهذا فإن التحقيقات والأبحاث التي كانت

قد ظهرت في بداية الأمر تعلقت بالأمور العملية مثل الحج والزكاة والصيام والصلاة حتى أنه كانت هناك محاولة في عصر الصحابة لإعداد مجموعة من القواعد الفقهية لكنها كانت تتعلق بأمور العقيدة والإيمان ولم ينتقدوها أو يعترضوا عليها بل كان ذلك كافيا لفهم العقيدة بشكل مجمل.

أسباب اختلاف العقائد:

لكن عندما اتسعت دائرة الإسلام ودخلت القوميات الإيرانية واليونانية والقبطية في محيط الإسلام، عندئذ بدأت الانتقادات المتعلقة بالعقائد، وأحد أسبابها أن ذوق الشعوب الأعجمية كان يميل إلى النقد والاعتراض وتفنيد الآراء. وكان ثاني أكبر الأسباب أن الأقوام الذين دخلوا في الإسلام كانت لهم أفكار خاصة تتعلق بمسائل العقائد في أديانهم القديمة مثل: صفات الله، والقضاء والقدر، والثواب والعقاب، وكانت تلك الأفكار تخالف العقائد الإسلامية مخالفة صريحة مثل تعدد الآلهة والشرك وعبادة الأصنام وقد محيت تماما من قلوبهم. ولكون العقائد الإسلامية تحتوي على جوانب عديدة فقد كان فيها بعض الجوانب تتشابه مع عقائدهم القديمة، وبالطبع كانوا يميلون ناحية هذا الجانب، ولأن الناس من مختلف الأديان اعتنقوا الإسلام وكانت عقائدهم القديمة متباينة فيما بينهم تماما، كان من الطبيعي أن يكون هناك خلاف بينهم نتيجة لأثر العقائد المختلفة عليهم، فمثلاً يعتقد اليهود أن الله على هيئة إنسان مجسم له عينان، وعندما تصاب عيناه بمرض وتؤلمه تعوده الملائكة، وأنه أحيانًا يتحارب مع أحد الأنبياء ويصاب بالمصادفة وغيرها من المعتقدات، [1] وهذا النوع من المعتقدين عندما أسلموا كان من الضروري أن يميلوا ناحية تلك الآيات التي وردت بها كلمات تنسب لله تعالى أن

(١) رسائل إخوان الصفا. ٣٢٩/٢.

له يدًا وعينًا وفمًا وغيرها، وكان من الضروري كذلك أن تستقر معاني تلك الكلمات في أذهانهم وأن الله له حقًا يد وقدم.

علاوة على هذا كانت هناك بعض المسائل لها معنيان، فعندما كانوا يقيمون آراءهم المتعلقة بها كان يحدث اختلاف رغمًا عنهم، فمثلاً مسألة القدر والجبر تبدو من ناحية أننا مخيرون في أفعالنا، ومن ناحية أخرى عندما نمعن النظر يتضح أن الأفعال من جانب تتم بإرادتنا، وهي كذلك ليست من اختيارنا، وأن أكبر أسباب الاختلاف هو اختلاف فطرة الطبائع الإنسانية.

فالشخص المتدين، سليم الطبع، سليم القلب عندما يرد في قلبه تصور الله عز وجل يرد على ذهنه صورة الله تعالى أنه مالك الملك وملك جميع الملوك، لا يستطيع أي شخص أن ينفذ حكمه عليه، ولا مجال لأحد للاعتراض على أحكامه وله جل شأنه الخيرة في أن يثيب المذنبين ويعاقب المحسنين.

- إذا وجه دعوة للكرم سيقول الشيطان سأحصل على نصيب منها.
- وإذا استل سيف الحكم بالتهديد فإنه يشبه الأصم ويصير البيان هو بيان الصم والبكم.

ولو أظهر الله كامل قدرته لجعل من الحصى جبلاً والليل نهارًا ولبدل حرارة النار برودة، ومنع جريان الماء، هو علة كل شيء، والأشياء التي نعبر عنها بالأسباب والعلل كلها هباء فالإنسان غير مخير في أفعاله، بل كل الذي يفعله بإرادة الله. وبعد أن اتخذت هذه الأفكار طابع العقائد صارت من المسلمات لدى الأشاعرة، وهكذا بينوا تلك الآراء في شكل مسائل كلامية هي:

- الأحكام الإلهية غير مبنية على المصلحة.
- أي شيء في الدنيا لا علة له.

- لا تأثير للخواص في الأشياء.
- يعاقب الله الخيرين من الناس بلا سبب وهذا ليس ظلمًا.
- الإنسان مسير في أفعاله.
- الله يجعل الإنسان يفعل الخير والشر كذلك.

وفي مقابل ذلك هناك تصور فلسفي لوجود الله يطرحونه هكذا:

جميع أقوال الله عز وجل مبنية على حكمة، ولا تخلو مثقال ذرة من مصلحة، وهذا النظام في حد ذاته قد أسس سلسلة قوية ومرتبة للعالم لا تنفصم عراها قط، وقد وضع جل شأنه التأثير والخواص في الأشياء فلا تنفصل عنها، وجبل الإنسان على مسئولية اختيار أفعاله، والعدل والإنصاف فطرته ولا يمكن أن يظهر ظلم منه قط، وقد أصبحت هذه الأفكار من عقائد المعتزلة.

وهذه النقطة ذاتها هي التي ذكرها الإمام الرازي في تفسيره لسورة الأنعام في "التفسير الكبير" نقلاً عن الشيخ أبي القاسم الأنصاري بهذه الألفاظ: "يرى أهل السنة والجماعة (يقصد الأشعرية) أن قدرة الله تعالى تتجه نحو الوسعة والرحابة، في حين يرى المعتزلة أن الله تعالى معظم ومبرأ عن العيوب، ولو نظرنا بإمعان لوجدنا أن كليهما معترف بعظمة الله وتقديسه، والفرق فقط في صواب الرأي وخطئه".

لقد كان البحث في العقل والنقل أحد أكبر الأسباب الرئيسية لاختلاف العقائد، والفطرة تفطر البشر على نوعين من الطبائع أحدهما أن يتدخل العقل في كل فعل، ومادام أي أمر لم يستوعبه عقله لن يؤمن به. والثاني هو الذي لا يستسيغ هذا النوع من البحث في الكيف والكم، وعندما يستمع إلى أي أمر من شيخ له أو إمام عظيم يعتقد في آرائه فإنه يقبله ولا يبحث في أسبابه بل ينصاع له.

ولما كان كلا النوعين من الطبائع مما تقتضيه الفطرة الإنسانية، لهذا لا يخلو عصر منهما، ولنلتمس هذا من سيرة الصحابة فيروي أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "**الأحياء يبكون الموتى يُعذبون**". وقد شرحت السيدة عائشة رضى الله عنها هذا الحديث للناس فقالت: لا يمكن هذا، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. روي أحد الصحابة عن الرسول ﷺ أن الموتى يسمعون. وذكر هذا أمام السيدة عائشة فقالت: لا يمكن أن يسمع الموتى، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ ويروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله: من أكل الطعام المطهو في النار ينقض الوضوء. وذكر هذا الحديث أمام عبدالله ابن مسعود فقال: لو كان هذا كذلك لبَطُل الوضوء باستعمال الماء الساخن، ويقول عبدالله بن عباس أن رسول الله ﷺ رأى الله في المعراج. وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها لم ير الله قط.

لا يمكننا الشك فيما نسب للصحابة (والعياذ بالله) وأنهم ينكرون أوامر الرسول ﷺ، ولهذا فإن الصحابة الذين يُنكرون الأحاديث المذكورة آنفًا لعلهم يرونها مخالفة للعقل، ولعل الرسول لم يقلها، وربما انخدع الناس في روايتها، وهكذا فقد جمع الحافظ جلال الدين السيوطي تلك الأحاديث في رسالة خاصة مع بيان السيدة عائشة للأخطاء التي وردت في رواية أبي هريرة.

على كل حال كان الخلاف في الرأي موجودا في عصر الصحابة أنفسهم وظل كذلك قائمًا في عصر التابعين.

وكانت طريقة الحياة الاجتماعية للعلماء أحد الأسباب الرئيسية للاختلاف، فقد كان من عادة الفقهاء والمحدثين أن يلتقوا فقط مع إخوانهم في الدين ولا يلتقوا مع أصحاب الأديان الأخرى، وكان سبب ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن لقاءهم بمن ليس على دينهم أمر غير محبب، والسبب الآخر أنهم لم تسنح لهم الفرصة لأي عمل آخر غير نقل ورواية الأحاديث والبحث فيها وفحصها وتحقيقها،

وكانت نتيجة ذلك أن أصوات الأديان المخالفة لم تصل إلى آذان المحدثين، ولا يعرفون شيئًا عن ما نشروه من اعتراضات على الإسلام، وكان خطابهم منصبًا فقط على جماعة المعتقدين بهم وكان ما يقولونه يقبله الناس بدون أي عذر، وكان جمهور الناس يسألون المحدثين كيف يستقر الله سبحانه وتعالى على العرش ولا جسم له، وكانوا يقولون لهم: " الكيف مجهول والسؤال بدعة". وكان المعتقدون يقبلون هذا الجواب في صمت، وكان المحدثون لا يرون هناك أهمية لإزالة هذا الغموض، وعلى العكس من ذلك كان المتكلمون وخاصة المعتزلة يلتقون بالناس من كل دين ومن كل فرقة ويتناظرون ويتباحثون معهم ولم يتشددوا معهم في الخطاب بل يظهرون الحقيقة الأصلية أمامهم ويحلون عقدة الإبهام والإجمال.

وبناءً على هذا كانت العقائد تتغير رويدًا رويدًا هكذا، ونذكر لهم هنا إحدى المسائل الخاصة على سبيل المثال.

الخطوة الأولى:

الله له جسم، ومستقر على العرش وله يد ووجه، ووضع الله تعالى يده على الكتف المبارك للرسول، وقد شعر الرسول ببرودة يديه سبحانه وتعالى.

الخطوة الثانية:

الله له جسم، وله يد وله وجه وله ساق، ولكن جميع هذه الجوارح ليست مثل التي عندنا.

الخطوة الثالثة:

الله لا جسم له، ولا يد له، ولا وجه له والكلمات التي وردت في القرآن في هذا الصدد لا يراد منها المعنى الحقيقي، بل المجاز والاستعارة فالله تعالى سميع بصير عليم وجميع هذه الأوصاف زائدة عن ماهيتها.

الخطوة الرابعة:

صفات الله لا تخرج عن الذات ولا عين الذات.

الخطوة الخامسة:

ذات الله محض واحدة لا تتحمل أي نوع من الكثرة، وذاته تعالى تؤدي عمل جميع الصفات، فذاته عليمة وهي بصيرة أيضًا وسميعة كذلك وقديرة.

الخطوة السادسة:

وجود الله مطلق أي أن وجوده عين الماهية.

وقد اختاروا نفس هذه المسألة في صورة وحدة الوجود ومزجوا بين الفلسفة والتصوف.

هذا النوع من التغيير التدريجي في العقائد كان سببًا في تطور الأفكار والفنون والعلوم، وهذا ما حدث في الإسلام، وقد أخذ هذا التغير يتبدل من مستوى إلى آخر في نهاية عهد الدولة الأموية، وكان بلاط الدولة العباسية يغص بالفلاسفة وعمت شهرتها الآفاق، وظل الفقهاء والمحدثون على ظاهريتهم لفترة متأخرة من الوقت، وبات من الصعب إقناع جمهور الناس بهذا الأمر وهو أن الله له يد، وفي نهاية الأمر نشأت جماعة (الأشعرية) من بين فرق الفقهاء والمحدثين رفضت أن يكون لله جسم ويد ووجه، ولكن لم يكن من الممكن التوقف عند هذا الحد وكانت هناك مشكلة تتعلق بالصفات، فلو هو عين ذات فإن الصفات لا تعد شيئًا منفصلاً وخارجه عن الذات، وقد اختير جانب "لا عين ولا غير" للرد على هذا الاعتراض، ولكن أنى للأقدام أن ترسخ على هذا الطريق الضيق، وفي النهاية استقر الاعتقاد على أن لله وجودًا بسيطًا وأن جميع الصفات هي مظهر من مظاهره.

ليس المقصود من هذا التقرير أن تمحى جميع المستويات والأصعدة السابقة تمامًا، ففي كل عصر وحتى الآن يوجد كل نوع من المعتقدين، بل الهدف من تأكيد ذلك هو أن الفرق الجديدة تكونت ونشأت على أنقاض الفرق القديمة نفسها.

السياسة وبداية اختلاف العقائد:

بالرغم من أننا جمعنا جميع أسباب اختلاف العقائد لكن البداية كانت السياسة أي حاجة الدولة، وكان قد راج سوق سفك الدماء في عهد الدولة الأموية وظهرت الاضطرابات والفتن في طبائع الناس، لكن لم ترد كلمة شكوى قط على ألسنة أحد، وكان المؤيدون للحكومة يقولون: اصمتوا فما هو كائن كان برضا الله ولا يجب أن نتدخل "آمنا بالقدر خيره وشره".

ففي عهد الحجاج بن يوسف الذي كان يعرف بالظلم والجور عاش معبد الجهني وهو صحابي شاهد الصحابة رأي العين وكان شجاعًا صادقًا،[١] وكان قد انخرط في حلقات دروس الإمام الحسن البصري، وذات يوم سأل الإمام الحسن البصري قائلاً: إلى أي مدى صحة ما قدم من عذر القضاء والقدر من جانب بني أمية؟ فقال الحسن البصري: "هذا من أكاذيب أعداء الله"، وكان منذ بداية الأمر قد استشاط غضبًا من مظالم بني أمية والآن ثار عليها علانية وقُتل.[٢]

وبعد معبد طور غيلان الدمشقي هذه الفكرة وكان غلامًا لسيدنا عثمان بن عفان وتلقى تعليمه على محمد بن الحنفية، وعندما أصبح عمر بن عبدالعزيز خليفة

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي..

(٢) المقريزي: تاريخ مصر. ٣٥٦/٢

للمسلمين كتب له رسالة غاية في الصراحة والوضوح لفت نظره فيها لمظالم بني أمية، فأرسل الخليفة عمر بن عبدالعزيز في طلبه وأسند إليه مهمة بيع بيت المال وبالمزاد العلني فأجرى المزاد العلني على الملأ وكان يصيح وينادى قائلاً: "هذا المال والمتاع أخذ بالقوة والظلم" وبالرغم من أن بساطة الإسلام القديمة كان لايزال باقيا من مظاهرها الكثير حتى ذلك الوقت، إلا أن أسباب العيش كانت قد تطورت إلى هذا الحد فكان بيت المال يحتوي على ثلاثين ألف جورب صوفي، فقال غيلان: أي حد لذلك الظلم يا أصحاب، الرعية يعيشون في الفقر وحاكمنا قد هيأ في بيت المال ثلاثين ألف جورب. وفي سنة ١٠١هـ توفي عمر بن عبد العزيز واعتلى عرش الخلافة بعده هشام بن عبدالملك وكان قد شاهد بعينيه أعمال غيلان وتصرفاته فاستدعاه بمجرد أن اعتلى عرش الخلافة وقطع يديه ورجليه من خلاف بجريمة إثارته للفتنة، مع ذلك لم يتوقف لسان غيلان الطلق عن الكلام وقتل في نهاية الأمر بهذه الجريمة.

وقد ولد جهم بن صفوان في ذلك العصر وقتل أيضا بجرم الأمر بالمعروف، لكن دماءه لم تهرق هباءً حيث انتشرت مسألة العدل والأمر بالمعروف أكثر بين الناس واشتدت قوتها حتى ظهرت جماعة كبيرة أطلق عليها في النهاية اسم المعتزلة نادت بالرجوع إلى أصول الإسلام الأولى، وكان للمعتزلة خمس أصول اثنان منها اسمهما العدل ووجوب الأمر بالمعروف وهذه كانت بدايتهم.

وأخذت هذه الفرقة تتطور باستمرار وعندما جلس الوليد على العرش في سنة ١٢٥هـ تجاوز عدد هذه الفرقة الآلاف لدرجة أن يزيد بن الوليد اعتنق هذا المذهب وهو من أسرة بني أمية نفسها، فعندما جلس الوليد على العرش شُغل بحياة الترف واللهو وكان يعاقر الخمر علانية، وبعد أن رأى يزيد هذا اللهو رفع راية

التمرد عاليًا بدعوى الأمر بالمعروف وانضم إليه ألاف المعتزلة[1] وحاصروا الوليد وقتلوه، وبعد قتله اعتلى يزيد عرش الخلافة وكان هذا أول يوم يجد الاعتزال له مكانًا على كرسي الخلافة، ومن الجدير هنا أن نذكر أنه عندما ثار يزيد ضد الوليد كان من بين أنصاره عمر بن عبيد وهو من كبار أئمة المعتزلة.[2]

ظهور الفرق المختلفة:

مع أن الضرورة القومية قد لفتت الأنظار إلى مسألة الجبر والقدر لكن عندما دبت الحركة في الأفكار لسبب ما دفعة واحدة تفاقمت وانتشرت الأفكار المختلفة وثارت مسألة خلق القرآن والتنزيه والتشبيه وصفات الباري وغيرها ولم يكن قد انتهى عهد بني أمية بعد وصارت كل فكرة يُتفوه بها تصبح مذهبًا، وهكذا في أيام قلائل ظهرت عشرات الفرق الكلامية وقد ذكر في الملل والنحل وكتب العقائد أحوال كل فرقة ومعتقداتها على حدة، ولكن لن نجد هنا الفرصة لكتابة جميع تفاصيلها.

والأمور الجديرة يسبر غورها في كل هذا الموضوع هي:

١- ما عدد تلك الفرق من حيث الاختلافات الجوهرية.

٢- ما أسباب تغير هذه الاختلافات وإلى أي مدى، وما علاقة تلك العقائد المختلفة بالإسلام الأصلي.

وقد سلم الباحثون بأن هذه الكثرة في عدد الفرق مبالغ فيها في الحقيقة، وأنها في الأصل لا تتعدى عدة فرق ثم تفرعت من كل فرقة فرق كثيرة، وقد ورد

---

(١) انظر مروج الذهب.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل.

في كتاب "شرح المواقف" أن الإسلام يضم ثماني فرق أصلية هي: السنة والشيعة والخوارج والمرجئة والبخارية والمعتزلة والجبرية والمشبهة.

وقلل العلامة المقريزي في كتابة تاريخ مصر هذا العدد واستقر على خمس فرق فقط هي: السنة والشيعة والمعتزلة والخوارج والمرجئة.

الأصول الحقيقية للاختلاف:

وقد حقق العلامة الشهرستاني أكثر في هذه الأصول وقرر أن الاختلاف ينحصر في أربعة أصول: هي: نفي وإثبات الصفات الإلهية، والقدر والجبر، والعقائد والأعمال، والعقل والنقل.

نشأ الاختلاف الأول من خلال هذا النوع من الكلمات المذكورة في القرآن الكريم المتعلقة بالله تعالى والتي تختص بالأمور الجسمانية مثل: التمكن على العرش ومجيء حشود الملائكة يوم القيامة صفًا صفًا وغيرها، فهل نأخذ معناها الحقيقي أم المجازي؟ نشأ هذا السؤال بين فرقتين مختلفين، فالمعتقدون بالمعنى الحقيقي هم المحدثون والأشاعرة الذين تضاعفت أعدادهم وظهر من بينهم المجسمة والمشبهة الذين يؤمنون بأن لله تعالى أيدي وأرْجُلاً، ونادى المعتزلة بالمعنى المجازي وأطلق عليهم اسم آخر هو المنكرون للصفات.

وأحد فروع هذه المسألة هو صفات الله فلو اعتقدنا أنها قديمة فمن الضروري أن نذكر مقدار هذا القدم، ولو قلنا أنها حادثة لكان الله موضع الحوادث ويستلزم هذا حدوث صفات الله، وللخروج من المشكلة الأولى اختار المعتزلة هذا الرأي وهو أن ليس لله صفات منفصلة بل إن جميع النتائج تحصل من ذاته والتي تكون صفات بالنسبة لنا، ويعتبر المحدثون أن هذا إنكار لصفات الله وبناء على هذا قرروا صفات منفصلة لله تعالى.

ومنشأ الاختلاف الثاني هو أفعال الإنسان، فلو أمعنا النظر فيها أكثر لاتضح لنا أنها أمر خارج عن قدرتنا حتى إن إرداتنا ورغبتنا ليست من اختيارنـا، لكـن المشكلة هي لو أننا مجبرون على أفعالنا فالثواب والعقاب وهما روح الدين يجتثـا من أساسهما، وقد وردت في القرآن الكريم آيات لكـلا النـوعيين وفـي بعـضها تصريـح واضح بأن ما يفعله الإنسان هو مـن فعـل الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وفي بعضها الآخر ما يفيد أن الإنسان مسئول عن أفعالـه ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، وبناءً على هذا فإن الرأيين موجودان في الإسلام فالناس الـذين لـديهم حرية أكثر يعتقدون في الجبر بوضوح ويطلق عليهم الجبرية وقـد حُجـب عـنهم الكسب والإرادة وهذا الحجاب اخترعه أبو الحسن الأشعري وإلا ما ذكر القـدماء اسمه، وقد اختار المعتزلة رأيا مخالفا لهذا الرأي، وقالوا إن الإنسان مُخير محـض في جميع أفعاله ولا غرو أن هذا الاختيار قد منحه الله إياه ولهذا لا يوجد فرق في الاختيار المطلق لله تعالى.

وكان الاختلاف الثالث بناءً على حقيقة الإيمان، وهل هناك دخل للأعمـال في حقيقة الإيمان أم لا ؟ ولأن الحياء وغيره قد ورد في أكثـر الأحاديـث بهـذه الألفاظ "إنه من الإيمان" لهذا اعتبر المحدثون أن هناك دخلاً للأعمال فـي حقيقـة الإيمان، ولكن أهل النظر وكان الإمام أبو حنيفة إمامهم الأول قد اختلفوا في هـذا وفرقوا بين العقيدة والعمل، وقد أطلق المحدثون على هؤلاء الناس اسـم المرجئـة وهكذا فإن كثيرًا من المحدثين يذكرون الإمام أبا حنيفة ضمن المرجئة.

والاختلاف الرابع هو في الحقيقة اختلاف يمكن أن يطلـق عليـه اخـتلاف حقيقي حيث توجد حدود منفصلة تمامًا بين أهل الظاهر وأهل النظر.

وأصل أصول هذا الاختلاف هو أيهما مرجح العقل أم النقل؟ أو مـا حـدود العقل والنقل؟ جميع الأشاعرة يرجحون النقل بينما يميل المعتزلـة وغيـرهم إلـى ترجيح العقل، وتأسيسنا على هذه الأصول نذكر بعض العقائد التفصيلية.

المعتزلة	الأشعرية
١- كل شيء يكون خيرًا أو شرًا منذ البداية، والشارع يقول للشيء أنه خير لأنه خير في حد ذاته، ويقول للشيء شر لأنه كان منذ البداية شرًا.	١- لا يوجد أي شيء خيرًا أم شرًا في نفسه فالشارع الذي يقول للشيء أنه خير يكون خيرًا، والذي يقول للشيء أنه شر يكون شرًا.
٢- الله لا يمكن أن يحكم بشيء محال.	٢- الله تعالى يمكن أن يحكم بشيء محال
٣- ضروري	٣- العدل والإنصاف ليسا من الضروري لله تعالى
٤- لا يمكن أن يفعل الله مثل هذا مطلقًا، ولو فعل مثل هذا يعد ظلمًا وإجحافا.	٤- يمنح الله العذاب عوضًا عن العبادة والإنعام بدلاً من الذنب ولو فعل الله مثل هذا لا يعد ظلمًا. (١)

التعصب والغلو في اختلاف العقائد:

إن ظهور تلك الاختلافات لا تعد محلاً للتعجب؛ لأنه كما ذكرنا آنفًا أن الخلاف كان يوجد له أسباب طبيعية متعددة، لكن للأسف كانت كل فرقة تختلف عن الأخرى في تلك المسألة وقد تقرر الحد الفاصل بين الإسلام والكفر، فعلى سبيل المثال هناك مسألة من المسائل الاختلافية تقول: هل الكلام الإلهي قديم أم مخلوق وحادث؟ كان المعتزلة يقولون: إن الكلام الإلهي الذي فيه صفات الله القديمة هو

(١) عقائد الاشعرية هذه مذكورة بهذا الوضوح في كتاب شرح المواقف وغيره.

قديم لكن الكلمات التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ كانت مخلوقة وحادثة[1]، وكان المحدثون يقولون: إن الكلام الإلهي قديم في كل حال، وقد ثبت بالمزيد من البحث والتدقيق أن النتيجة واحدة في كل منهما، لكن كلتا الفرقتين قد قررا حدًا فاصلاً بين الإسلام والكفر.

وقد أفرد الإمام البيهقي عنوانًا مستقلاً حول هذا البحث في كتاب الأسماء[2] والصفات، وننقل هنا بسنده عددًا من أقوال كبار المحدثين:

١- وكيع بن الجراح: من زعم أن القرآن محدث فقد كفر.

٢- يزيد بن هارون: من زعم أن كلام الله مخلوق فهو والذي لا إله إلا هو عندي زنديق.

٣- المزُني تلميذ الشافعي: من قال أن القرآن مخلوق فهو كافر.

٤- الإمام البخاري: نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت قومًا أضل في كفرهم من الجهمية[3] وإني لأستجهل من لا يكفرهم.

٥- عبدالرحمن بن المهدي: لو رأيت رجلاً على الجسر - وبيدي سيف - يقول القرآن مخلوق ضربت عنقه.

وبعض المحدثين ومنهم الإمام البخاري كانوا يفرقون في هذه المسألة، فما ينطق به في القرآن الكريم هل هو مخلوق أم حادث؟ ولكن المحدثين عارضوه كذلك معارضة شديدة، وكان الذُهلي أستاذ الإمام البخاري وله بروايته أحاديث كثيرة مذكورة في صحيح البخاري عندما سمع مقولة الإمام البخاري أصدر فتوى

---

(١) الذهبي: ميزان الاعتدال ذكر داود الظاهري

(٢) البيهقي: كتاب الأسماء والصفات. طبعة آلة آباد. ١٧٩-١٩٣.

(٣) كانت الجريمة الأصلية للجهمية أنهم كانوا يقولون أن القرآن الكريم حادث

عامة بأن الشخص الذي يتفوه بكلمة " لفظي بالقرآن مخلوق" لن يحضر مجلسنا. وهكذا فقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الواقعة في شرح البخاري بمزيد من التفصيل، وكان ابن شداد قد كتب في رسالة له " لفظي بالقرآن مخلوق" وقدم هذه الرسالة بين يدي الإمام أحمد بن حنبل فحذف هذه الفقرة وقال: القرآن في هذه الهيئة غير مخلوق".(١)

وقال أبو طالب أن الإمام أحمد بن حنبل قال: إن تلفظ القرآن مخلوق. وعندما علم الإمام أحمد بن حنبل أخذ يرتعد من الغضب واستدعى أبا طالب ووبخه على هذا الكلام. (٢)

كان هذا حال الفريق الأول وحقيقة الأمر بالنسبة للفريق الثاني هي أن جميع المعتزلة كانوا يعتقدون أن القول بقدم القرآن كفر لدرجة أن المأمون الرشيد وهو إمام عادل عاقب جميع كبار المحدثين في عهده عقابًا شديدًا على هذه الجريمة وأمر بأن يقتل من ينكر التوبة.

ولن نتوقف عند هذه المسألة بعينها فقد كان هناك آلاف المسائل من هذا النوع وكان كلا الفريقين قد اشتد في الغلو فيها.

وكان القاضي شريك قد رفض قبول شهادة الإمام أبي يوسف (تلميذ الإمام أبي حنيفة) لأنه لا يعتبر الصلاة جزءًا من مفهوم الإيمان، وكان كثير من المحدثين غير راضين عن الإمام أبي حنيفة لهذا الجرم أي أنه يقول أن تلك الأعمال لا تدخل في الإيمان.(٣) وظل سوء الفهم هذا قائمًا لفترة من الوقت، لكن تغيرت هذه الحالة تدريجيًا وعلى الرغم من أن الأسس السابقة لم تنهدم تمامًا إلا أن هذه المسألة "لا نكفر أحدًا من أهل القبلة" ظلت من المسائل المسلم بها في العقائد لمدة ستمائة سنة.

---

(١) البيهقي: كتاب الأسماء والصفات.

(٢) كتاب الأسماء والصفات صفحة ٩٨. (المترجم).

(٣) ميزان الاعتدال تذكرة قاضي أبي يوسف.

قلة حدة التعصب في العصور اللاحقة:

كان في ذلك العهد المحدث ابن حبان وكان من كبار أئمة علم الحديث وقد نسب إليه قوله أن الله غير محدود[١] وبناءً عليه طرد من وطنه، لقد كان كبار أئمة فن الحديث يصفون عظمة الله وكبرياءه بهذه الكلمات، وكانت مقولة "الله في كل مكان" تعتبر خاصة بمذهب فرقة الجهمية حتى عهد قدماء المحدثين وكان يُعتقد أنها معادلة للكفر، وقد نقل ابن القيم في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية" أقوال أولئك المحدثين بكثرة من خلال مؤلفاتهم، ولكن الآن هذه العقيدة هي نفسها عقيدة جميع المسلمين منذ فترة من الوقت.

لقد كانت فرقة المرجئة في رأي المحدثين فرقة ضالة وكانت شهادتهم غير مقبولة، ولكن تدريجًا ذكر العلامة الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال (تذكرة مسعر بن كدام): "قلت الإرجاء مذهب لعدد من أجلة العلماء لا ينبغي التحامل على قائله".

وفي هذا الباب أقر المحدث الخطابي – الذي يعد كتابه "معالم السنين" من نوادر الكتب في فن الحديث ونقل الإمام البيهقي أقواله سندًا بكثرة في كتابه "الأسماء والصفات". "لا يكفر أهل الأهواء الذين تأولوا فأخطئوا ويجيز شهادتهم ما لم يبلغ من الخوارج والروافض في مذهبه أن يكفر الصحابة ومن القدرية أن يكفر من خالفه من المسلمين"[٢].

---

(١) ميزان الاعتدال تذكرة محمد بن حبان.

(٢) البيهقي: كتاب الصفات صفحة ١٩٢.

وقد كتب كل من الإمام الغزالي في "مشكلات الإحياء" والإمام الرازي تفسيرًا مفصلاً لتلك الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (سورة البقرة – الجزء الأول) وأثبتا أن هذه الاختلافات لا يمكن أن تكون بناءً على الكفر والإسلام.

ويذكر العلامة جلال الدين الدواني في كتابه "شرح عقائد عضدي" بالنسبة للمعتزلة: "أما المعتزلة فالمختار أنهم لا يكفرون". ويذكر العلامة تقي الدين السبكي المحدث المشهور: "وهاتان الطائفتان الأشعرية والمعتزلة هما فحولة المتكلمين من أهل الإسلام والأشعرية أعدلهما".(١) ولأن أكثر المعتزلة أحناف المذهب لهذا نجد أحوالهم مذكورة في طبقات الحنفية وسيرد ذكرهم في مواضعها مثل باقي علماء الحنفية. وقد كتب الحسين بن علي فيما يتعلق بالمعتزلة "لا يماثلهم أحد في الفقه وعلم الكلام" وقال بالنسبة للزمخشري أنه "من أكابر الحنفية".

وكتب الإمام الرازي في تفسير سورة الأنعام: "لقد ذكر والدي المحترم الشيخ القاسم الأنصاري مشافهة: يرى أهل السنة والجماعة أن قدرة الله واسعة، وفي نظر المعتزلة الله عظيم ومبرأ عن العيوب، ولهذا انظروا بتمعن فإن كليهما يعترف بتقديس الله وتعظيمه والبعض يُخطئ والبعض يصيب".

لم يكن هذا حكرًا على المتأخرين فلو نظرنا بتمعن وتدقيق لرأينا الكثير من القدماء والمحدثين من أصحاب الفكر الحر وكان كثير من الناس على مذهب القدرية(٢) والمعتزلة.

---

(١) شرح إحياء السلام طبعة مصر. المجلد الثاني. صفحة ١١.

(٢) يجب أن نعلم أن كلمة قدرية عند المحدثين تطلق أكثر على المعتزلة؛ ولهذا السبب فإن المحدث السمعاني كتب في كتاب الأنساب أن النظّام من القدرية، وبناءً على ذلك لم يستعمل ابن الفقيه في كتاب المعارف كلمة معتزلة بل استعمل بدلاً منها كلمة قدرية..

وذكر الحافظ ابن حجر في مقدمة كتابه "فتح الباري" عددا من كبار العلماء المحسوبين على القدرية منهم: ثور بن زيد الديلي، ثور بن يزيد الحمصي، حسان بن عطية، حسن بن زكوان، داود بن حصين، زكريا بن إسحق، سالم بن عجلان، سلام بن مسكين الأزدي، سيف بن سليمان المكي، شبل بن عباد المكي، شريك بن عبدالله، عبدالله بن عمرو، عبد الله بن أبي لبيد، عبدالله بن أبي الجغ، عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عبدالوارث بن سعيد التنوري، عطاء بن أبي ميمون، عمر بن أبي زايد، عمران بن مسلم قيصر، عمير بن باقي الدمشقي، عوف الإعرابي البصري، محمد بن سوار البصري، هارون بن موسى الأعور، هشام بن عبدالله الدستوائي، يحيى بن حمرة الحضرمي.[١]

وألف العلامة الذهبي كتابا يقع في أربع مجلدات تناول فيه أحوال حفاظ الحديث النبوي الذين يعتبرون من أركان علم الحديث ويناط بهم جرح وتعديل الأحاديث سماه " تذكرة الحفاظ"، وقد طبع ونشر في الوقت الحاضر، وقد ورد فيه ذكر الكثير من علماء المعتزلة ومن بينهم أسماء بعض المشاهير مثل: عطاء بن يسار، سعيد بن أبي عردبة، قتادة بن دعامة، هشام الدستوائي، سعيد بن إبراهيم، محمد بن اسحاق، إمام المغازي وسمان، وذكر أن عطاء بن يسار، قتادة، هشام وسعيد يعادلون الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة المحدثين ولم يكن هناك مثيل لهم في علم الحديث وكانوا أئمة عصرهم.

(١) انظر مقدمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر. طبعة مصر. ص٤٦٠.

علم الكلام العقلي

هو علم الكلام الذي اخترع منافسًا للفلسفة وهو في الحقيقة ما نقصده من كتابة تاريخ علم الكلام.

وهكذا يكون أساس البحث في العقائد وتكون البداية كما ذكرنا آنفًا، وقد ظلت المناظرات والمباحثات حتى عهد بني أمية محدودة بين المسلمين، ولكن هذه الدائرة اتسعت في عهد الدولة العباسية، وقد تطور التعليم كثيرًا في زمن العباسيين، وكان المجوس واليهود والنصارى يتعلمون العلوم العربية في دور العلم الإسلامية، ولهذا سنحت الفرصة لهم للوقوف على الأفكار والمعتقدات الدينية للمسلمين، إلى جانب هذا فإن العباسيين (على عكس بني أمية) منحوا الناس الحرية الدينية فكان الشخص يستطيع أن يقول ما يشاء وهكذا فقد سنحت الفرصة والجرأة للقوميات الأخرى لكي ينتقدوا العقائد الإسلامية، إضافة إلى هذا كله فقد ترجم الخليفة المنصور كتبًا علمية ودينية من جميع لغات العالم إلى اللغة العربية وبعد قراءتها تزلزلت عقائد آلاف المسلمين، وقد كتب المؤرخ المسعودي في مروج الذهب عند ذكر أحوال الخليفة القاهر بالله: "أن ابن المقفع وغيره قاموا بترجمة كتب ماني ثم بن ديسان ومرقبون (أئمة المجوس) من اللغتين البهلوية والفارسية، إلى جانب هذا فإن المؤلفات التي كتبها علماء المسلمين مثل ابن أبي العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس تأييدًا لتلك الكتب كان من تأثيرها أن انتشر الإلحاد والزندقة بين الناس.

أسباب ظهور علم الكلام:

هذه الأسباب كانت تقتضي من علماء الإسلام هذا النوع من الضروريات فألفوا في النحو واللغة والتفسير والبلاغة وأبدعوا في العلوم الأخرى وهكذا فقد اخترعوا علم الكلام برغبتهم، وكان من حسن الحظ أن التشجيع على ذلك كان يأتي من جانب دولة الخلافة أي أن الخليفة المهدي (والد هارون الرشيد) الذي اعتلى العرش في سنة ١٥٨هـ أمر علماء الإسلام أن يؤلفوا كتبًا في الرد على الشبهات التي أثيرت ضد الإسلام.(١)

ومع هذا فإن علم الكلام لم يُسَمَّ بهذه الاسم حتى ذلك الوقت، وعندما اكتسبت المعتزلة مهارة الفلسفة في أيام المأمون الرشيد ودون هذا العلم على أسس فلسفية أطلقوا عليه اسم علم الكلام.(٢)

سبب تسمية علم الكلام:

هناك اختلاف في هذا الأمر وهو: لماذا سُمِّيَ الكلام باسم علم الكلام، وقد نقل المؤرخ ابن خلكان في تذكرة محمد بن الحسين المعتزلي نقلاً عن السمعاني "نشأ أول اختلاف فيما يتعلق بالعقائد وظهرت العلاقة بينه وبين الكلام الإلهي وبسبب هذه العلاقة أطلق اسم الكلام على علم العقائد". هذا غير صحيح فلم ينشأ أول اختلاف نسبة إلى الكلام الإلهي، ولا كانوا يطلقون على هذا العلم اسم الكلام.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ذكر خلافة القاهر بالله. يقول المسعودي: وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتاب على الملحدين..

(٢) كتب الشهرستاني في الملل والنحل: ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة وكتب الفلاسفة حين فوت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فنًا من فنون العلم باسم الكلام. (المترجم).

ذكر العلامة الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: "أن سبب التسمية نابعة من المعارك الكبرى التي دارت رحاها حول هذه المسألة، في علم العقائد وهي مسألة الكلام الإلهي أو بسبب أن هذا العلم اخترع في مواجهة الفلسفة؛ ولهذا فهو أحد فروع الفلسفة (أي المنطق) وأطلق على هذا العلم أيضا نفس هذا الاسم لأن مرادف الكلام والمنطق يحمل نفس المعنى". (سبب التسمية هذا صحيح).

معارضة علم الكلام:

منذ ظهور علم الكلام خالفه المحدثون وأهل الظاهر بشدة، وأفتى كل من الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل والإمام سفيان الثوري وأكثر المحدثين بحرمة هذا العلم، وعند ذكر العقائد كتب الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين: "وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف".

وكان الإمام الشافعي يقول: إن أهل الكلام يريدون أن يشقوا صفوف المسلمين، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: إن أهل الكلام زنادقة. وهذا النوع من الآراء منقول على لسان أكثر أئمة الإسلام، وكان ينظر إلى هذا الأمر بعين التعجب في العصور اللاحقة لدرجة أن الإمام الرازي أوّل تلك الروايات في كتابيه التفسير الكبير ومناقب الشافعي وأنكرها، لكن في الحقيقة أن ذلك كان لمقتضى الحال وكان أكثر العلماء في القرون الأولى قد وقعوا في الفتنة، ولم يكن لعلماء النحو دراية بالفقه، والفقهاء غير مهتمين بالحديث، والمحدثون يجهلون العلوم العقلية، وعندما اخترت علم الكلام ضم بين دفتيه مئات المصطلحات الفلسفية، وعندما كان المحدثون يستمعون إلى تلك المصطلحات كانوا لا يستطيعون التفرقة بين الفلسفة والكلام ولأنهم كانوا على دراية كاملة بالفلسفة اليونانية منذ البداية؛

لذا اعتبروا علم الكلام مشاطرًا له، وهذه الروايات تتردد بشكل عام على ألسنة المحدثين "عندما تستمعون إلى شخص ما يستعمل كلمات مثل الجوهر والعرض والمادة تدركون أنه ضال". ومقولة المحدث ابن السبكي التالية تؤكد هذه المقولة تأكيدًا كاملاً:

> "وفي كتب المتقدمين جرح جماعة بالفلسفة ظنا منهم أن علم الكلام فلسفة، فقد قيل في أحمد بن صالح أنه يتفلسف، والذي قال هذا لا يعرف الفلسفة وكذلك قيل في أبي حاتم الرازي وإنه كان رجلاً متكلمًا، وقريبا من هذا قول الذهبي في المزي أنه يعرف المعقول ولم يكن المزي ولا الذهبي يدريان شيئًا من المعقول".
>
> (طبقات الشافعية تذكرة أحمد بن صالح).

يتضح لنا مما تقدم أنه من الضروري أن تتوفر المهارة في الفلسفة والعلوم الطبيعية لمن يتصدى لعلم الكلام وأن المحدثين كانوا منذ البداية معارضين لقراءة الفلسفة.

كان أحد أهم الأسباب في معارضة الفلسفة أن علماء الكلام كانوا ينقلون في مؤلفاتهم أقوال المعارضين لهم ويردون عليهم، وكان المحدثون لا يجيزون نقل هذا الكفر، فقد كان الحرث المحاسبي من كبار مشاهير الزهاد والمحدثين في أيام الإمام أحمد بن حنبل، وكان المحدثون يلهجون بمدحه وكان الجنيد البغدادي من مريديه، وقد كتب الحرث كتابًا للرد على الشيعة والمعتزلة وقد غضب الإمام أحمد بن حنبل من أقواله لدرجة أنه تخلى عن معاشرته والتعامل معه.[1]

---

(١) إحياء العلوم: نقل المحدثون هذه الواقعة أيضا..

لقد كان أكبر أسباب الغضب أن الناس الذين كانوا مشغولين بعلم الكلام كانت عقائدهم تختلف شيئًا ما عن عقائد المحدثين، فعلى سبيل المثال عندما كان يستمع إلى هذا النوع من الأحاديث أن سيدنا آدم وموسى عليهما السلام كانا يتناظران، والله تعالى يضع فخذه في النار يوم القيامة لكي تتوقف فكانوا لا يسلمون بصحة هذه الأحاديث أو يأولونها، وهذه الأحاديث تأكد صحتها عند المحدثين ولهذا كان إنكارها أو تأويلها تقليلا من شأن توجيهات الرسول ﷺ ، وذات مرة ذكر أحد المحدثين هذا الحديث الخاص بآدم وموسى عليهما السلام في بلاط هارون الرشيد فهب رجلاً قائلاً: كيف يمكن الجمع بين آدم وموسى؟ وكان رأي هارون الرشيد موافقًا لآراء المحدثين فغضب لدرجة أنه أمر بقتل ذلك الرجل وقد ذكر العلامة جلال الدين السيوطي هذه الواقعة بقدر من التفصيل في كتابه "تاريخ الخلفاء".

مؤسس علم الكلام

إن التشدد في معارضة الكلام لدى المحدثين وأهل الظاهر غض علم الكلام الطرف عنه تمامًا لكن خلفاء الدولة العباسية (عدا قلة قليلة) وأركان الخلافة دافعوا عنه دفاعًا مستميتًا وطوروه باستمرار بتشجيع الخلفاء، وعلاوة على العباسيين فقد شمله[1] الديالمة برعايتهم ومع ذلك لم يحظ بالقبول والانتشار، وفي نهاية العصر العباسي نال القبول والانتشار عندما تولاه الإمام الغزالي والرازي بالرعاية، على كل حال نشأ علم الكلام في أيام الخليفة المهدي، وبقدر ما هو معلوم لدينا فقد كان أبو الهذيل العلاف أول من ألف كتابًا في هذا العلم، والاسم الكامل لأبي هذيل هو محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول ولد سنة ١٣١ هـ وتوفي سنة ٢٣٥هـ

---

(١) كتب الشهرستاني في الملل والنحل: " وأما رونق علم الكلام فابتداؤه من الخلفاء العباسية هارون والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وانتهاؤه من الصاحب بن عباد وجماعة من الديالمة..

وقد كتب العلامة ابن خلكان عنه يقول: "وكان حسن الجدال قوي الحجة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات".

وكتب عنه العلامة المقريزي في تاريخ مصر: "نظر في الفلسفة وأفقهم في الكثير".[١]

ألف أبو الهذيل كتبًا صغيرة وكبيرة في علم الكلام بحث فيها مسائل دقيقة وحساسة، وظلت هذه الكتب لفترة من الزمن مفقودة، لكن مناظراته مع المجوس والملاحدة وتقاريره في هذا الصدد مذكور متفرقات منها في كتب ابن خلكان وشرح الملل والنحل، ومناظرات أبي الهذيل ليست مثلما هو موجود في العصر الحاضر عبارة عن طلاقة لسان وخطابه بلا مضمون، بل كان لها أثر بالغ حيث رجع أكثر الملاحدة والمعارضين للدين عن عقائدهم واعتنقوا الإسلام.

ذكر ابن خلكان: "ذات مرة حضر حشد من المجوس لمناظرة أبي الهذيل فأوقفهم أبو الهذيل جميعًا وكان بينهم مجوسي يسمى ميلاس أسلم في ذلك الوقت، ولأبي الهذيل كتاب اسمه ميلاس نسبة إلى هذا المجوسي ميلاس، وقد ورد في شرح الملل والنحل أن ثلاثة آلاف رجل دخلوا الإسلام على يديه، وكان بلاط المأمون والرشيد يغص بعلماء الكلام وعلى رأسهم أبو الهذيل والنظام[٢] وكان أبو الهذيل يتلقى راتبًا من قبل الحكومة مقداره سبعة آلاف درهم سنويًا، ولكن أبو الهذيل كان ينفق المبلغ بكامله على أهل العلم[٣] وقد بلغ أبو الهذيل الكمال في العلوم الأدبية علاوة على المعقولات، ذهب ذات مرة إلى بلاط المأمون الرشيد، وكان ثمامة بن الأشرس من مشاهير علماء بلاط المأمون الرشيد حاضرًا في

---

(١) المقريزي: ٤٦٣.

(٢) يقول المسعودي: وقرب إليه كثيرًا من الجدليين والنظارين كأبي الهذيل وأبي إسحاق..

(٣) شرح الملل والنحل.

البلاط للاحتفال بأبي هذيل، وأثناء الحديث خاطبه باسمه مجردا من الألقاب مع أن ثمامة شخص ذا مكانة وحيثية وكان المأمون نفسه يخاطبه بلقبه لا باسمه، فغضب ثمامة، لكن ثمامة نفسه يذكر أن أبا الهذيل ألقى في مناسبة سبعمائة بيت شعر عربي مرتجلاً فقلت تلقائيا اسمى أو لقبي كله جائز لك.(١)

ومن الجدير أن نذكر هنا بهذه المناسبة بعض مناظرات أبي الهذيل:

ذات مرة جاء رجل إلى أبي الهذيل وقال له: في قلبي بعض الشبهات الخاصة بالقرآن الكريم ولا تمحى بأي طريقة وهي: "هناك في القرآن الكريم عدد من الآيات تبدو متناقضة مع بعضها بعضا، وبعض آيات يتضح فيها الأخطاء النحوية"، فقال أبو الهذيل: أتريد البحث في كل آية على حدة أم أجيبك بجواب إجمالي لإزالة جميع الشبهات، فاختار المعترض الاحتمال الثاني، فقال أبو الهذيل: هذا الأمر مسلم به أن رسول الله ﷺ كان من أسرة عربية شريفة وذات حسب ونسب، ومن المسلم به كذلك، أنه لم يعترض أحد على فصاحته ومعرفته الدقيقة باللغة وليس في هذا شك أن العرب لم يتركوا جانبًا إلا وطعنوا فيه الرسول وكذبوه، والآن أمعن النظر فالعرب اعترضوا على الرسول جميع الاعتراضات ولكن لم يقل أحد أن إلمامه باللغة غير صحيح أو أن هناك تناقضًا يبدو في كلامه، فما دام هؤلاء الناس لم يعترضوا على هذا فمن ذلك الشخص الذي يمكنه الاعتراض اليوم"؟(٢)

هذه الشبهات المتعلقة بالقرآن الكريم مذكورة في كتاب "شرح المواقف" وغيره ولكن لأن الجواب الذي ذكره غير كاف؛ فقد كتب شاه ولي الله الدهلوي في

---

(١) شرح الملل والنحل.

(٢) شرح الملل والنحل.

كتابه "الفوز الكبير": لم يلتزم بالقواعد والأصول التي قررها الكسائي والفراء في القرآن الكريم" في إشارة إلى جواب أبي الهذيل.

عاش في ذلك العهد صالح بن قدوس وهو من مشاهير المجوس، وهو القائل: إن مادة الكائنات مكونة من عنصرين هما النور والظلمة وكلاهما ضد الآخر، ووجود العالم من امتزاجهما وتناظر أبو الهذيل وصالح حول هذه المسألة، فسأله أبو الهذيل هل ينتج عن امتزاجهما شيء منفصل أم هو شيء واحد؟ فاختار صالح الاحتمال الثاني، فقال أبو الهذيل: الشيئان اللذان يمتزجان فيما بينهما ضد بعضهما البعض فكيف يلتقيان،[١] ولهذا يجب أن يكون لهما مازج ثالث وهو واجب الوجود أو بالله.

كان صالح واقفاً ذات مرة في مناظرة فقال له أبو الهذيل: ماذا تريد الآن؟ فقال صالح: "أريد أن أستخير الله ثم استقر على تلك العقيدة وهي وجود الهيين"، فقال أبو هذيل لو أديت الاستخارة فلأي إله تؤديها، أي أن الإله الذي[٢] ستستخيره سيكون له إله آخر ينافسه في الرأي، ولأبي الهذيل وصالح طرفة نقلها ابن خلكان يعف القلم عن ذكرها.

وكان في ذلك العهد هشام بن الحكم وهو من مشاهير المتكلمين في الكوفة وكان مسئولاً عن المجالس العلمية ليحيى البرمكي ومتخصص في العلوم العقلية وناظر أبا الهذيل، وذكر ابن النديم في كتاب الفهرست الكثير من مؤلفاته ومنها بعض هذه الأسماء: الرد على الزنادقة، والرد على أصحاب الاثنين، والرد على أصحاب الطبائع (أي الرد على الماديين) كتاب أرسطو طاليس في التوحيد، وهذه

(١) شرح الملل والنحل.

(٢) الفهرست صفحة ١٧٦.

الكتب مفقودة في الوقت الحاضر، ولكن يمكننا أن نقدر من أسماء الكتب كم كانت تحمل من موضوعات مهمة.

يحيى البرمكي واهتمامه بعلم الكلام

وعلاوة على الخليفة المهدي اهتم أمراء آخرون في البلاط بعلم الكلام مثل يحيى بن خالد البرمكي وهو العقل المدبر للدولة العباسية، ورئيس وزراء الخليفة المهدي والذي أدار شئون الخلافة وحدد مجلسًا في البلاط للمناقشات الخاصة بعلم الكلام يذكرها المؤرخ المسعودي بهذه الكلمات.

> **"وكان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم".**

وكان هشام بن الحكم – وهو عالم معروف – مسئولاً عن هذا المجلس[١] وكان يجتمع في المجلس أناس من كل مذهب وملة ويتباحثون في جميع أنواع الموضوعات العلمية، وقد وصف المؤرخ المسعودي وقائع إحدى الجلسات التي حضرها ثلاثة عشر من مشاهير علماء علم الكلام وذكر بعض أسماء هؤلاء العلماء تحديدًا مثل: علي بن الهيثم وأبو مالك الحضرمي وأبي الهذيل والنظام، وطبقًا لما ذكره المسعودي فإن الموضوعات التي كانوا يتباحثون فيها في جلسات هذا المجلس كان بعضها يدور حول الكون والخليقة والقدم والحداثة والإثبات والنفي والحركة والسكون والمماسة والمباينة والوجود والعدم والجر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتحرير والكم والكيف والمصاف والإمامة.

تنبيه – كتب ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن بيان علم الكلام "أن علم الكلام لم يمتزج بالفلسفة حتى عهد الإمام الغزالي، وكان الغزالي أول شخص دون

---

(١) ابن النديم: الفهرست ذكر هشام بن الحكم. (المترجم).

هذا العلم على غرار الفلسفة" إلا أن هذا خطأ كبير وقع فيه ابن خلدون؛ لأننا سنجد فيما بعد كثيرًا من الأحداث تؤكد خطأ هذه الفكرة بداهـة، والموضـوعات التـي تناولتها تذكرة المسعودي في ذكر جلسة يحيى بن خالد هل يمكن أن تشتمل علـى موضوعات علم الكلام أكثر من مسائل الفلسفة؟

تدهور علم الكلام في عهد هارون الرشيد:

بعد الخليفة المهدي جلس الهادي على العرش سنة ١٦١هـ وحكم سنة وثلاثة أشهر فقط ثم جلس على العرش بعده هارون الرشيد الأعظم، وعلى الرغم من أن عهده يعتقد أنه وصل إلى أوج الترقي والشوكة والجاه، وفي الحقيقة كان مجلسه يضم مشاهير علماء عصره مثل جعفر البرمكي والقاضي أبي يوسف والإمام محمد وأبي نواس وإسحاق الموصلي والكسائي، إلا أن علم الكلام لم يتطور في عهده حيث اقتيد علماء الكلام وأرسلوا إلى السجن وأمر بألا يكتب أي شيء يتعلق بعلم الكلام.(١) ومع هذا طرأت بعض الدوافع جعلت هارون الرشيد يقدر علم الكلام فعندما اشتهر في بلاد العجم أن الناس قد مُنعوا من التأليف في علم الكلام أرسل ملك السند رسالة إلى هارون الرشيد مضمونها "أن المسلمين نشروا دينهم بقوة السيف، فلو تأكد الإسلام بالدلائل والبراهين فأرسل لي أحد العلماء وإذا أقنعني فسوف أعتنق الإسلام" فأرسل له هارون الرشيد أحد الفقهاء وعين الملك أحد علماء البلاط ليناظره، فسأل الفقيه: أربك قادر أم لا؟ قال الفقيه: بلى قادر. فقال هل يستطيع أن يخلق مثلنا أم لا؟ أي لو لم يستطع فلن تكون له قدرة فقال الفقيه هذا النوع من الأبحاث يتعلق بعلم الكلام ونحن نسفه هذا العلم. فأرسل الملك

---

(١) مع أن هذه الروايات مذكورة فقط في شرح الملل والنحل فإن لها دلائل أخرى تؤكدها في قول جلال الدين السيوطي " ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضته" وهذا دليل دامغ لهذا الشخص..

رسالة لهارون الرشيد قال فيها: كتبت إليك من قبل على سبيل الظن لكنني تيقنت الآن عين اليقين. فأمر هارون الرشيد أن يستدعى المتكلمين ووضع أمامهم هذه المسألة فحضر علماء الكلام وحل فتى منهم هذه المعضلة وقال مثل هذا السؤال مثلما يقول شخص هل الله قادر على هذا أم لا؟ يصبح هو نفسه جاهل أم عاجز، الله يستطيع أن يخلق مثل هذا الشيء الحادث والممكن. فأمر هارون الرشيد أن يرسل نفس هذا الفتى للمناظرة وقال من في البلاط هذا ممكن ولو واجهته مشكلة أخرى في المناظرة نكلف شخصًا آخر للرد عليها وفي نهاية الأمر اختير معمر بن عباد المتكلم المشهور لأداء هذه المهمة[١].

عهد المأمون الرشيد:

بعد هارون يأتي عهد المأمون[٢] وينبغي أن نفرد له كتابًا لبيان أعماله العلمية، وما أسداه من عمل لعلم الكلام لا يمكن كتابته بالتفصيل في هذا الكتاب، وقد كتب المؤرخ المسعودي عن المأمون في معرض حديثه عن سيرة القاهر بالله على لسان أحد رجال البلاط: "وجالس المتكلمين وقرب إليه كثيرًا من الجدليين والنظارين كأبي الهذيل وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبًا ينصر مذهبه ويؤيد بها قوله".

وكان المأمون قد حدد يومًا خاصًا من كل أسبوع للمناظرات العلمية وقد وصف ذلك المؤرخ المسعودي بهذا الوصف: "كان أنصار كل فرقة يجتمعون في

---

(١) الملل والنحل ذكر معمر بن عباد..

(٢) بدأ المأمون يستقل بالخلافة في سنة ١٥٨هـ.

بلاط الخلافة يوم الثلاثاء وأعدوا لها حجرة خاصة مفروشة بالبسط ومزينة وتعد لهم مائدة طعام عامرة وبعد أن يفرغوا من الطعام يتوضأ الناس ثم تأتي أواني الطيب ليتطيبوا فيطيبوا ملابسهم ويعطروها ويذهبوا إلى مقر المناظرة، وكان المأمون يقربهم من مجلسة وتبدأ المناظرة ولم يكن يراعى التابع والمتبوع في المناظرة، ويتباحث الناس بحرية كبيرة وتنتهي هذه الصحبة عند الظهر".

وبسبب قيود هارون الرشيد أشاع المعارضون للإسلام أن الإسلام انتشر بحد السيف وليس بالدلائل والبراهين، فعقد المأمون الرشيد جلسة موسعة للمناظرة لإزالة هذه الشبهة ودعا أناسًا من جميع النواحي والأمصار إلى البلاط وكانوا من كل مذهب وملة ووجه الدعوة إلى كبير موابذة المجوس يزدان بخت فحضر من مرو، وأنزله المأمون منزلاً خاصا قريبًا من إيوان الخلافة.

وكان ممثل المسلمين هو أبا الهذيل الذي ذكرت سيرته آنفًا وعين مناظرًا وانتصر علانية، وعندما توقفت المناظرة قال المأمون في فورة حماسه: يزدان بخت أصبح مسلمًا، فقال يزدان أنتم لا تدخلون أحدًا في الإسلام عنوة وأنا لا أريد أن أصبح مسلمًا، فقال المأمون نعم هذا صحيح.(١) ويأتي بعد أبي هذيل تلميذه إبراهيم بن بسيار نظام وكان أستاذ هارون ونديمه الخاص فطور علم الكلام وبلغ به ذروة الكمال، وقد أشار الشهرستاني في الملل والنحل إلى تضلعه في الفلسفة بقوله: "وقد طالع كثيرًا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة. ويرى مشاهير المحققين في أوربا أن الأشياء التي يطلق عليها الناس اسم جوهر ليست بجوهر بل مجموعة من عدة أعراض، أو بعبارة أخرى إن ما يعتبره الناس عرضًا هو جوهر أيضًا مثلا يقال للأريج والنور عرض لكنهما في الحقيقة جوهر كذلك، فالأريج هو

(١) ورد ذكر هذه المناظة في الفهرست لابن النديم وشرح الملل والنحل صفحة ٤٢ طبعة دائرة المعارف ــ حيدر آباد ــ الهند..

مقدار من الذرات الصغيرة تخرج من الزهور ثم تتضوع رائحتها وتتغلغل في عقولنا هاتان الفكرتان كان النظام أول من أشار إليهما،(١) وفي الحقيقة يمكن القول أنه هو نفسه مخترع هذه الأبحاث، وعندما كتب الشهرستاني في الملل والنحل مسائله وأصوله الخاصة ذكر في الأصول السابعة: "إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت، ووافق هشام بن الحكم في قوله أن الألوان والطعوم والروايح أجسام".

وكان ينكر كذلك أنها جزء لا يتجزأ، ومناظرته فيما يتعلق بهذه المسألة مذكورة في جميع كتب الفلسفة.

طرفة: بعد أن وصلنا إلى هذا الموضع لا يمكننا أن نتقدم خطوة دون كتابة هذه الطرفة وهي أن النظام قد أولى بُعد النظر حقه وقد كفروه بناءً على تلك المسائل، فقد ذكر العلامة السمعاني في كتاب الأنساب ما يلي: "وما في القدرية أجمع منه لأنواع الكفر وكان عاشر في شبابه قومًا من الثنوية وقومًا من الدهرية القائلين بتكافؤ الأدلة وشرذمة من الفلاسفة فأخذ قوله بالجزء الذي لا يتجزأ من ملاحدة الفلاسفة وقوله بأن فاعل العدل لا يقدر على الظلم من الثنوية وأخذ قوله بأن الألوان والطعوم والروايح والأصوات وأجسام من الهشامية".

ولم يكن هذا رأي السمعاني فحسب بل عمومًا عندما يرد ذكر النظام في كتب الرجال يطلق عليه لقب زنديق وملحد بناء على هذا النوع من المسائل.

وكان النظام قد أظهر نبوغًا في الفلسفة، وذات مرة قال لجعفر البرمكي: ألفت كتابًا في الرد على أرسطو، فأجابه جعفر قائلاً: ماذا ستكتب في الرد وأنت لا

---

(١) يبدو ظاهريًا أن الرأيين متناقضان لكن ورد في كتاب شرح المقاصد ص٢٩٨ أن النظام زعم أن الأجسام مركبة من الألوان والروايح، وبناء على هذا فإن قول النظام أن الجسم مجموعة من عدة أعراض ومعنى هذا أن الجسم مركب من تلك الأشياء والتي يعتبرها الناس أعراضًا ولو أنها في الحقيقة ليست أعراضًا..

تستطيع أن تقرأ كتابه. فقال النظام: "ماذا تريد؟ هل تريد أن أسمعه لك شفويًا من الأول للآخر أم من الآخر للأول؟" وهكذا بدأ بقراءة عبارات أرسطو ورده مصاحبًا لها جنبًا إلى جنب. (١)

وكان الجاحظ يقول: "يقول الناس يظهر شخص كل ألف عام لا مثيل له في العالم بأسره، لو أن هذا القول صحيح حقًا لكان ذلك الشخص هو النظام".

لقد ألم النظام إلماما كاملاً بالكتب السماوية لجميع المذاهب من أجل بحوثه في الدين وكان يردد شفاهة التوراة والإنجيل والزبور ولديه معرفة كافية بتفاسيرها(٢)

ويمكننا تقدير مكانة النظام وفضله ونبوغه وعلو همته من أن عالما فاضلا مثل الجاحظ كان تلميذا للنظام وخادمه.

عهد الواثق بالله:

جلس المعتصم على العرش بعد المأمون وكان أميًا محضا يمتهن الجندية، وفي سنة ٢٢٧هـ جلس ابنه الواثق بالله على العرش بعده فجدد مجالس المأمون العلمية، يذكر المؤرخ المسعودي أحواله فيقول: "كان الواثق محبًا للنظر مبغضًا للتقليد محبًا للإسراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطبعين فجرى بحضرته أنواع من علومهم في الطبيعات وما بعد ذلك من الإلهيات".

---

(١) الملل والنحل ليحى بن مرتضى زيدي.

(٢) الملل والنحل ليحيى الزيدي.

قرر الواثق مجلسا لمناظرات المتكلمين والفقهاء يتم بحث فيه كل أنواع الموضوعات بحثًا علميًا دقيقًا، ونقل المؤرخ المسعودي المناظرات العلمية لتلك المجالس في كتاب أخبار الزمان وغيره، لكن للأسف لم يتم العثور على تلك الكتب وقد ذكر المسعودي هذه الكلمات في كتابه مروج الذهب: "وما كان يجري من المباحثة في مجلسه الذي عقد للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع والأصول وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا".

فالمهدي والمأمون والواثق بعزائمهم الملكية والبرامكة وباقي الوزراء والأمراء قدروا علم الكلام ووسعوا من نطاقه وشملوه بعنايتهم وطوروه لفترة من الوقت فانتشرت مؤلفاته وتصنيفاته في جميع أنحاء العالم، ولو كتب تاريخ علماء الكلام الذين ظهروا من عهد المهدي حتى عهد الواثق لتطلب إعداد مؤلف مستقل ومنهم الجاحظ ومحمد بن عبدالله الإسكافي المتوفي سنة ٢٢٣هـ وجعفر بن البشر وعلي بن رماني وجعفر بن حرب المتوفي سنة ٢٣٦هـ والسيرافي وحسن بن عبدالله وأبي موسى الفراء المتوفي سنة ٢٢٦هـ وهم أكثرهم شهرة.(١)

أسرة نوبخت:

من الأهمية بمكان أن نذكر أسرة نوبخت عندما نذكر تطور علم الكلام، كان فضل بن نوبخت مديرًا لخزانة الحكمة في عهد هارون الرشيد(٢) وقد ترجم كتبًا من اللغة الفارسية إلى اللغة العربة، وكان إسماعيل حفيد نوبخت عالمًا كبيرًا

(١) سيرة الجاحظ مذكورة في آلاف المؤلفات ووردت إجمالاً في شرح الملل والنحل ومروج الذهب..

(٢) خزانة الحكمة كانت إدارة تترجم فيها كتب العلوم والفنون من جميع أنحاء العالم وأحوالها بالتفصيل مذكور في كتابي "رسائل شبلي".

ومتضلعًا في علم الكلام وكان لديه مجلس خاص به، حيث كان يجتمع عنده المتكلمون ويتباحثون في المسائل الكلامية وله مؤلفات كثيرة في الكلام منها الكتب التالية التي ذكرها ابن النديم[١] مثل كتاب إبطال القياس، نقض كتاب عبث الحكمة على الراوندي ونقض التاج على الراوندي وكتاب تثبيت الرسالة.

وكان حسن بن موسى ابن أخت إسماعيل الأكثر شهرة في تلك العائلة وكتب ابن النديم عنه قائلاً: كان متكلمًا وفيلسوفًا وترجمت كثيرًا من كتب الفلسفة اليونانية باهتمامه وبأمره، وكان أبو عثمان الدمشقي وإسحاق وثابت بن قرة من كبار مشاهير المترجمين حاضرين دائمًا في بلاطه وله مؤلف سيرد ذكره لاحقًا.[٢]

على الرغم من أن علم الكلام أخذ يتطور باستمرار منذ البداية لكنه وصل إلى ذروة كماله في القرن الرابع الهجري.

المتكلمون في القرن الرابع الهجري:

كانت قد ألفت مؤلفات مستقلة في علم الكلام حتى ذلك الوقت لكن لم يكتب أي تفسير مفصل للقرآن الكريم على هذه الأصول فما هو مذكور في القرآن الكريم كان موافقًا للعقل ومؤكدًا بالدلائل العقلية، وقد أنجز هذه المهمة عدد من مشاهير ذلك القرن وهم أبو مسلم الأصفهاني وأبو بكر الأصم، وأبو القاسم البلخي والقفال الكبير.

أبو مسلم اسمه محمد بن بحر الأصفهاني وذكره العلامة الذهبي بأنه هو محمد بن علي بن مهريزد وأدرجه ابن النديم بين مشاهير البلاغيين[٣] يقول:

---

(١) الفهرست ص ١٧٦

(٢) للمزيد حول آل نوبخت انظر ابن النديم ١٧٦-١٧٧. (المترجم).

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٣٦. (المترجم)

"كان كاتبًا مرسلاً بليغًا متكلمًا جدليًا، وتفسيره اسمه جامع التأويل لمحكم التنزيـــل، ويقع في ثلاثة عشر مجلدًا طبقا لبيان صاحب كشف الظنون، وتوفي أبو مسلم سنة ٣٢٢هـ[١] وهذا التفسير دليل على أن مؤلفة معتزلي، ومع ذلك يقول عنه الإمـــام فخر الدين الرازي: "وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص على الـــدقائق واللطائف".[٢]

وكان أبو مسلم فريدًا في كثير من المسائل مثلاً هو ينكـــر قطعًـــا الناســـخ والمنسوخ في القرآن الكريم وينقل الإمام الرازي رأي أبي مـــسلم وتوجيهـــه فـــي تفسير جميع تلك الآيات التي يعتقد الناس أنها منسوخة ويؤكد في كل موضع علـــى أسلوب بيانه وأنه لأبي مسلم وأن الإمام الرازي يتفق معه في الرأي.

أبو القاسم البلخي اسمه الكامل عبدالله بن أحمد بن محمود الكعبي وكتب ابن خلكان اسمه تحت هذا العنوان: العالم المشهور وفيما يلي أحواله: "وكان من كبـــار المتكلمين" وأكثر أقواله ينقلها الإمام الرازي في تفسيره، وجاء في كشف الظنـــون أن "تفسيره يقع في أثنى عشر مجلدًا، ولم يكتب أحد قبله تفسيرًا بهـــذه الـــضخامة وتوفي سنة ٣٠٩هـــ.

وله مؤلفات كثيرة أخرى بجانب التفسير مثل: "عيون المسائل" وكان ينـــاظر أهل الكتاب والفلاسفة ويهزمهم، وقد اهتدى كثير من الناس إلى الصراط المـــستقيم في خراسان بفضل قوة خطبه.[٣]

أبو بكر الأصم واسمه عبدالرحمن بن كيسان لا نعرف الكثير عـــن أحوالـــه وهناك ذكر لتفسيره في كشف الظنون وأكثر الإمام الرازي من النقل من تفسيره.

---

(١) كشف الظنون

(٢) التفسير الكبير. آل عمران

(٣) شرح الملل والنحل: حالات الكعبي.

القفال عالم مشهور ومن كبار العلماء اسمه الكامل محمد بن علي بن إسماعيل وكان يسلم به إمامًا في التفسير والحديث والفقه والعلوم الأدبية، ويذكره المحدثون بالمزيد من المدح، يقول العلامة ابن السبكي في الطبقات الكبرى: "كان إمامًا في التفسير، إمامًا في الحديث، إمامًا في الكلام، إمامًا في الأصول، إمامًا في الفروع". وقد نقل ابن السبكي وكثير من المحدثين الآخرين أقوالاً في حقه. وكان القفال معاصرًا للإمام أبو الحسن الأشعري، وقرأ الإمام الأشعري الفقه عليه وتوفي سنة ٣٦٥هـ ومن الطريف أنه عندما ألف تفسيره طبقًا للأصول العقلية أساء الناس الظن به ورموه بالاعتزال لكن المشكلة أن جميع الشافعية كانوا يسلمون به إمامًا لعصره، لهذا كان تأويله في البداية على مذهب المعتزلة ثم أصبح أشعريًا؛ ولهذا فإن رواية من هذا المضمون منقولة عن ابن عساكر.(١)

سأل رجلٌ أبا سهل الصعلوكي عن تفسيره فقال: "هو مقدس نجس أيضا نجس لأنه يؤيد مذهب الاعتزال".

علم الكلام في القرن الخامس:

على الرغم من أن علم الكلام بدأ في الزوال في القرن الخامس لأسباب مختلفة سيأتي تفصيلها لاحقًا، إلا أن بعض كبار المتكلمين عاشوا فيه ومنهم أبو الحسن محمد بن علي البصري، وأبو إسحاق الإسفرايني، والقاضي عبدالستار المعتزلي، وكانوا علماء يشار إليهم بالبنان، وطبقًا لما ذكره ابن خلكان عن أبي الحسن البصري فإنه ألف كتابًا يعد خلاصة لكتاب الإمام الرازي في أصول الفقه هو كتاب المحصول واسمه المعتمد وأشار إليه ابن خلكان بقوله: "كان جيد الكلام إمام وقته انتفع الناس بكتبه". وكان إماما لعصره وقد استفاد الناس من مؤلفاته.

---

(١) طبقات الشافعية ذكر القفال..

وله الكثير من المؤلفات منها "تصفح الأدلة" في مجلدين، "وغرور الأدلة" في مجلد ضخم وتوفي أبو الحسن سنة ٤٣٦هـ، وقام القاضي ضميري وهو من علماء الحنفية وفقيه مشهور جدًا بالصلاة عليه في جنازته.

أبو إسحاق الإسفرايني واسمه إبراهيم بن محمد ولا يدانيه أي شخص من الشافعية، ويسلم المحدثون بأنه إمام عصره، وتوفي سنة ٤١٨هـ والكتاب الذي ألفه خاصة في علم الكلام يقع في خمسة مجلدات واسمه "جامع الحلي في أصول الدين والرد على الملحدين.(١)

وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ علم الكلام في هذا القرن، وحتى ذلك الوقت كان الفقهاء والمحدثون منفصلين تمامًا عن علم الكلام، وكان أكثرهم يعتبر هذا الفن وسيلة للضلال، والذين لا يتشددون إلى هذا الحد كانوا يرونه على الأقل لغوًا ولا فائدة فيه، كان هذا هو حال دول المشرق لكن الأندلس كانت تفخر بأنها أفسحت المجال لمجالس علم الكلام والحديث، وكان العلامة ابن حزم الظاهري المولود في قرطبة سنة ٣٨٤هـ وتولى الوزارة في بلاط السلطان منصور محمد بن أبي عامر إمامًا للفقه والحديث، ويعترف المحدثون عموما بسمو منزلته، وقد كتب عنه المحدث الذهبي في طبقات الحفاظ تذكرة مفصلة ويسلم بأنه إمام في الحديث، وكان المسلمون يعتقدون أنه في العلم والكمال أسمى من الطاقة البشرية العادية، ومؤلفاته تقترب من أربعمائة مؤلف وثمانين ألف صفحة ومن بين كتبه كتاب ضخم هو "الإيصال" دون فيه جميع مسائل الفقه، وكان ينقل آراء أئمة الحديث والمجتهدين والتابعين والصحابة فيما يتعلق بكل مسألة، ثم يبين دلائل كل واحدة منها ويقدم حكمه فيها، وله كتاب آخر على المنهج هو "المحلي" وألفه على طريقة المجتهدين ولم يقلد فيه أحدًا وباقي مؤلفاته كانت على هذه الشاكلة.

---

(١) هناك تذكرة مفصلة عن أبي اسحاق عند ابن خلكان وفي طبقات الشافعية.

علم الكلام في الأندلس:

مع أن دراسة المنطق والفلسفة في الأندلس كان من الخطورة بمكان لدرجة أنهم غيروا كلمة فلسفة، لكن[1] العلامة ابن حزم لم يكترث بالرأي العام وتلقى هذه العلوم على محمد بن حسن الكناني وأظهر نبوغًا فيها وألف كتابًا في المنطق بمنهج جديد غير فيه جميع المصطلحات، وكان يذكر مثالاً فقهيًا على كل مسألة وهذا الكتاب اسمه "التقريب". [2]

ألف ابن حزم كتابين في علم الكلام، أحدهما في بيان تحريفات التوراة والإنجيل ويزعم ابن خلكان أنه أول مؤلف في موضوعه. والكتاب الثاني اسمه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" بين فيه أصول عقائد اليهود والنصارى والمجوس والفلاسفة والدهرية ثم رد عليها وكتب عن عقائد الفرق الإسلامية بالتفصيل وقدم نقدا لها، وقد طبع هذا الكتاب في مصر ونشر الجزء الأول منه.

ولأن العلامة ابن حزم لم يكن مقلدًا لأحد وكان ينتقد الأئمة المجتهدين بجرأة وحرية بالغة؛ لهذا ناصبه جميع الفقهاء العداء وأعلنوا أنهم لن يلتقوا به ولم يكتفوا بهذا بل طردوه ونفوه من بلده، وتوفي هذا المسكين في صحراء الغربة وهو في هذه الحالة من التشرد وتاريخ وفاته ٨ شعبان سنة ٤٥٦هـ طبقًا لما ذكره ابن خلكان، وفي رأيي أن جريمة ابن حزم الكبرى أنه ولى وجهه شطر المنطق وعلم الكلام.

---

(١) نفح الطيب.

(٢) ذكر ابن خلكان تذكرة مفصلة ومسهبة لابن حزم.

وفي الأندلس لم يهتم أي عالم مشهور بعلم الكلام (حتى عهد ابن رشد) سوى ابن حزم، ولهذا السبب كتب ابن حزم نفسه رسالة تعد من مفاخر الأندلس يقول فيها: "بما أنه لا توجد فرق مختلفة في بلادنا ولم تبحث مسائل العقائد لهذا لم يتطور علم الكلام هنا مثله مثل باقي العلوم الأخرى، إلا أنه يوجد هنا بعض المعتزلة مثل خليل بن إسحق ويحيى بن السمنية وموسى بن حدير وأحمد بن حدير ألفوا مؤلفات في هذا العلم، وأنا نفسي ألفت كتبًا عديدة عن عقيدة المحدثين".(١)

انحطاط علم الكلام:

كان العهد الأول لعلم الكلام يلفظ أنفاسه الأخيرة وبعدها انتهى تمامًا والحقيقة هي أن انحطاط علم الكلام كان قد بدأ مع نهاية القرن الرابع يعني في الوقت الذي وصلت فيه الدولة العباسية إلى ذروة قوتها وسلطتها، وكان علم الكلام قد نشأ برعاية الدولة وترعرع في كنف الحكومة، وكان العوام ينظرون إليه في البداية نظرة سوء، ولكن لأن الخلافة كانت تسانده لم يستطع أن يعارضه أحد. وقد نال خلفاء الدولة العباسية الزعامة الدينية إلى جانب ملوكيتهم فكانوا يخطبون خطبة الجمعة ويؤمون الناس في الصلاة وكانوا أنفسهم يصلون بالمسلمين في العيدين، وكانوا يجتهدون بأنفسهم في الأحكام الفقهية، وبناء على هذا لم يضغطوا على الفقهاء.

وفي القرن الرابع بدأت حكومتهم وسلطتهم في الزوال، وأمسك الأتراك والديلم بزمام الحكم وكان الأتراك قد سيطروا على العالم العربي بسبب قوتهم وسلطتهم، ولكن بقدر ما كانت أيديهم وسواعدهم قوية بقدر ما كانت قلوبهم

---

(١) نفح الطيب طبعة أوربا ص ١٢٠.

وعقولهم ضعيفة ولم يتمكنوا من العلوم الدينية ولهذا السبب تخلت عن الأمور الخاصة بالدين والتي كانت قد آلت إليها من الحكومة السابقة فلم يستطيعوا الصلاة بالناس والخطبة فيهم ولم يتمكنوا من أن يدلوا برأيهم في أي مسألة، وبناءً على ذلك كانت الحكومة الدينية في أيدي الفقهاء، وكانت هذه الحالة التي جعلت المأمون الرشيد يوجه الدعوة إلى جميع العلماء للتناظر في مسألة خلق القرآن، وقال إن الشخص الذي يقنعني بالدلائل العقلية سأتخلى عن عقيدتي، ومن أجل البحث عن الحقيقة عقد محمود الغزنوي مناظرة بين الحنفية والشافعية وطلب مسيحيًا عالمًا بالعربية للحكم بينهما.

المهم أن علم الكلام دب فيه الضعف رغم قوة الأتراك واضمحلت حرية الفكر وذهب رواء العقل ونوره.

العهد الثاني

علم الكلام عند الأشاعرة

على الرغم من أن مناهج علم الكلام بدأت نقلية لكنها صارت عقلية منذ عهد الإمام الغزالي، وبناءً على هذا فإن تاريخ علم الكلام بدأ منذ عهد الإمام الغزالـــي، ومع أن الإمام الغزالي أسس هذا المنهج إلا أن الإمام الأشعري أقام بنيانه؛ ولهـــذا نبدأ هنا بالأشعري.

الإمام الأشعري(١) اسمه علي بن إسماعيل، ولد في البصرة سنة ٢٧٠هـــ وتوفي ببغداد سنة ٣٣٠هـــ، تلقى تعليمه الأولي على عبدالوهاب الجبّائي المعتزلي، وذات يوم رأى وصية في المنام بناءً عليها ذهب إلى المسجد الجـــامع بالبـــصرة، وصرح قائلاً: أعلن توبتي من عقائد المعتزلة، وذهب بعدها إلـــى بغـــداد وأكمـــل دراسة الفقه والحديث، وكتب مؤلفات عديدة في الرد على المعتزلة، وكان الشافعية يقدرون منزلته، وتتلمذ على يديه مئات الآلاف من العلماء، من أشهرهم: أبو سهل الصعلوكي وأبو القفال وأبو زيد المروزي وزاهر بن أحمـــد وحـــافظ أبـــو بكـــر الجرحاني والشيخ أبو محمد الطبري وأبو عبدالله الطائي وأبو الحسن الباهلي وبنداد بن حسن الصوفي، وبالرغم من أن هؤلاء العلماء كانوا أنفسهم من المشاهير إلا أن تلاميذهم مثل أبي بكر الباقلاني وأبي إسحاق الإسفراييني وأبي بكـــر بـــن فـــورك وتلميذهم إمام الحرمين وغيره أكثر شهرة منهم، وقـــد انتـــشرت مؤلفـــات الإمـــام

(١) كتب ابن عساكر الدمشقي كتابًا مستقلاً عن أحوال الإمام الأشعري وعقائده اسمه "تبيين كذب المفتري" وطبع هذا الكتاب في أوربا وترجم إلى اللغة الفرنسية..

الأشعري في العالم بأسره بسبب هؤلاء العلماء ونفوذهم وذاع صيت علم الكلام في جميع أنحاء العالم بسبب مكانتهم في علم الكلام.

لم تكن الفلسفة قد امتزجت بعلم الكلام حتى عهد الإمام الأشعري، وقد أضاف إليها الإمام الباقلاني عدة مسائل مثل: الجوهر فرد ثابت ـ الخلا ممكن ـ العرض لا يمكن أن يقوم مع العرض والعرض لا يمكن أن يظل لعهدين. وبعد الباقلاني كتب إمام الحرمين (أستاذ الغزالي) كتابًا مفصلاً في علم الكلام ثم اختصره وسماه "الإرشاد"، وكان إمام الحرمين شيخ الإسلام في عصره وكانت فتواه معتمدة وسارية من العراق حتى جزيرة العرب وبناءً على هذا انتشرت مؤلفاته في كل بيت. (١)

وحتى ذلك العصر لم يرج المنطق والفلسفة بين الفقهاء والمحدثين، ولهذا السبب فإن ما كان موجودًا من علم الكلام كان في رد وإبطال الفرق الإسلامية فقط، والذين كانوا يطلقون عليهم لقب المبتدعة، وعندما كان يكتب شيئًا للرد على الملحدين كانوا يقدمون الروايات والأسناد الإسلامية للاستدلال، يكتب الإمام الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال": "ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أضيف فصادفته علمًا وافيًا بمقصوده غير واف بمقصودي وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة. وهذا قليل النفع في جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئًا أصلاً".

على كل حال تم إعداد إدارة لعلم الكلام واستقر الرأي على أن الإمام أبا الحسن الأشعري مؤسسها، وقد اطلعت على كتاب "مقالات الإسلاميين" من مؤلفات الإمام أبي الحسن الأشعري. وعبارات كتاب "الإبانة" وغيره نقلها ابن القيم بألفاظها

(١) كتب ابن خلدون في مقدمته موضوعًا عن تاريخ علم الكلام، وقد نقلت عنه أكثر هذه الأحداث..
- ابن خلدون: المقدمة ص ٤٢٣-٤٣١ (المترجم)

في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية" والعقائد التي استقرت لدى أهل السنة في تلك الكتب ألحقها الإمام الغزالي في مقدمة كتابه إحياء علوم الدين" باسم قواعد العقائد، وقام الإمام الرازي بتوضيح وشرح تلك المسائل بعد الإمام الغزالي، وقد اقتبسوا منها جميعًا بعد الإمام الرازي والمسائل المهمة في علم الكلام والتي تعد سنة في رأي الأشاعرة وحدًا فاصلا في الاعتزال نذكرها الآن في هذا المقام بكلماتها الأصلية عند الإمام الغزالي والرازي والأشعري:

١- أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه خلافًا للمعتزلة.

٢- إن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافًا للمعتزلة.

٣- إنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده.

٤- إن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله وشرعه لا بالعقل خلافًا للمعتزلة.

٥- الميزان وهو حق ووجهه أن الله تعالى يحدثُ في صحائف الأعمال وزنًا وجميع هذه العقائد مذكورة بعباراتها في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

٦- قال الأشاعرة: دلت الآية على أنه تعالى لا يراعي مصالح الدين والدنيا التفسير الكبير سورة المائدة - آية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

٧- إن البنية ليست شرطًا في الحياة، فالنار على ما هي عليه يجوز أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز. (١)

---

(١) التفسير الكبير ، تفسير سورة الفرقان. آية " إذا رأتهم من مكان بعيد".

٨- لا يمتنع أن يُحضر عندنا جبال شاهقة وأصوات عالية ونحن لانبصرها ولا نسمعها، ولا يمتنع أيضًا أن يبصر الأعمى الذي يكون بالمشرق من المغرب، وبالجملة فلينكر جميع تأثرات الطبائع والقوى. (الإمام الرازي: مطالب عالية. بحث شبهات على النبوة).

٩- أما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حمارًا والحمار إنسانًا. (التفسير الكبير قصة هاروت وماروت).

١٠- لا تأثير لقدرة العبد في أفعاله.

١١- إن الله يريد الكفر من الكافر والعصيان من العاصي.

هذه العقائد مذكورة في جميع كتب العقائد، وهذه هي العقائد التي تعتبر عقائد خاصة عند الأشاعرة، عدا هذا فإن العقائد التي ذكرها الإمام الغزالي إجمالاً في بداية "إحياء العلوم" ثم فصلها وشرحها بعد ذلك ننقلها هنا من إحياء علوم الدين.

١- **الركن الأول**: الذات الإلهية وأصولها العشرة هي: الله موجود، واحد، قديم، ليس بجوهر، لا جسم له، ولا عرض، ولا جهة خاصة به، لا مكان له، يمكنه النظر وهو الباقي دائمًا.

٢- **الركن الثاني**: الصفات الإلهية وأصولها العشرة هي: الله حي، عالم، قادر، صاحب إرادة، سميع، بصير، متحدث، ليس محلا للحوادث، كلامه قديم وعلمه وإرادته قديمة.

٣- **الركن الثالث**: الأفعال الإلهية وأصولها العشرة هي: الله خالق أفعال العباد أفعال العباد مكتسبة منه، يجب أن تكون تلك الأفعال أفعال الله، إن خلق الله وإبداعه وهو من إحسانه، يجوز لله تعالى أن يكلف

ما لا يطاق، يجوز لله أن يعذب البريء، الله تعالى غير مقيد بالمصلحة، الواجب هو نفس الشيء الذي هو واجب من جانب الشرع، من الممكن بعث الأنبياء، نبوة محمد رسول الله ثابتة من المعجزات.

٤- **الركن الرابع**: السمعيات وأصوليا العشرة هي: القيامة، منكر ونكير، عذاب القبر، ميزان القيامة، صراط القيامة، وجود الجنة والنار، أحكام الإمامة، فضيلة الصحابة بترتيب الخلافة؛ شروط الإمامة، لو لم يكن الإمام المشروط موجودًا فإن الأحكام لسلطان العصر.

هذه عقائد الإمام الأشعري وهي عقائده الخاصة، أو التي تعد حدًا فاصلاً بين السنة والاعتزال وهي جديرة بالملاحظة لخصوصية حيثيتها؛ لأن علم الكلام يبدأ بيا تاريخًا جديدًا وكان هناك فريقان قبل الإمام الأشعري هما أصحاب النقل وأصحاب العقل وأراد الإمام الأشعري اختيار منزلة بين المنزلين؛ وليذا اختار مثل هذه العقيدة والتي على حد علمه تربط بين العقل والنقل كليهما وهكذا وصل الإمام الأشعري بالتدريج إلى طريقته الخاصة من طريقة أصحاب النقل، ونوضح هنا ضمنيًا مثالاً أو اثنين له.

أرباب النقل عمومًا يقولون برؤية الباري، والفلاسفة والمعتزلة ينكرون، ولكن أرباب النقل عندما قالوا برؤية الباري قالوا هذا الرأي أيضًا وهو أن الله متمكن على العرش وأنه ذو جهة وقابل الإشارة، أما الإمام الأشعري على عكس الفلاسفة والمعتزلة اختار عقيدة أصحاب النقل ولم يستطيعوا قول هذا الرأي أن الله متحيز أو قابل إشارة لأنه مُسلم بهذا القدر في رأيهم بسبب العلوم العقلية لأن التحيز حادث خاصة، والله غير حادث، والآن تعن لنا هذه المشكلة لو أن الله غير متحيز لا يمكن أن يبدو للرؤية لأن الشيء غير المتحيز لا يمكن رؤيته وهو مجبر أن يؤمن بأن النظر إلى أي شيء ليس بالضرورة كونه قابل الإشارة أو متحيزًا وتدريجًا رفض جميع أصول علم المناظر. جاء في شرح المواقف "إن الأشاعرة جوزوا رؤية ما لا يكون مقابلاً ولا في حكمه".

ظهرت لنا الآن المشكلة الثالثة: لو يمكن النظر إلى الله فيجب النظر إليه دائمًا لأنه عندما يكون وجوده كافيًا للرؤية فماذا تكون الحالة المنتظرة؟ وما هي خصائص القيامة عندئذ نكون مجبورين على اختيار هذا الجانب، ومن الممكن أيضا للنظر إلى أي شيء يكون وجود جميع الشروط معه ولا يبدو للرؤية. جاء في شرح المواقف:

"لا نسلم وجوب الرؤية عند اجتماع الشروط الثمانية"

١- كان أرباب النقل عمومًا يقولون بالمعجزات، لكن مع هذا كانوا لا ينكرون العلة والمعلول وسلسلة الأسباب ولكن من الممكن وقت حدوث المعجزة أن يحطم الله تعالى سلسلة العلة، والمعلوم على سبيل الاستثناء. وكان الإمام الأشعري يقول إن الشيء الذي يسلم بعلته لا يمكن أن يختلف عنه المعلول قط؛ ولهذا فهو أنكر هذه السلسة كليًا، وخلاصة القول أن جميع مسائل العقائد تنشأ بهذا التسلسل كما ذكرنا آنفًا، وكانت السلسلة الكاملة لعلم الكلام قد رتبت ودونت قبيل عهد الإمام الغزالي.

كان هذا العهد الأشعري الأول لعلم الكلام، والعهد الثاني يبدأ بالإمام الغزالي الذي غير مضمون علم الكلام.

الإمام الغزالي وعلم الكلام:

كتبت سيرة حياة مستقلة للإمام الغزالي ذكرت فيها أنه مخترع علم الكلام وذلك في بحث مفصل، وأذكر هنا في هذا الوضع الأمور الجديرة بالذكر بطريقة مجملة:

١- الإمام الغزالي هو أول عالم ألف كتابًا مستقلاً للرد على الفلسفة.

٢- كان الفقهاء والمحدثون ينظرون إلى المنطق والفلسفة بعين الكراهية؛ ولهذا السبب لم يدخل هذا العلم كليًا في المناهج العامة للتعليم فأعلن الإمام الغزالي أن تعلم المنطق فرض كفاية، وبالنسبة للفلسفة فقد صرح بأنها فيما عدا بعض المسائل فإن بقية المسائل لا تخالف الدين.

٣- بفضل الإمام الغزالي نالت الفلسفة شهادة القبول وبدأ تدريس الفلسفة والدين جنبا إلى جنب، وهذه الطريقة من التعليم أنجبت علماء أمثال: الإمام الرازي وشيخ الأشراف والعلامة الآمدي وعبدالكريم الشهرستاني وكانوا رؤساء المحافل العلمية في كل من المعقول والمنقول.

٤- في بداية الأمر أيد الإمام الغزالي منهج الأشاعرة، ولكنه في النهاية استقر على هذا الرأي وهو أن منهج الأشاعرة مناسب للجمهور لكنه لا يحتوي على أصل الحقيقة ولا يمكن أن نقتنع به بشكل كامل.

٥- بناءً على هذا ابتعد الإمام الغزالي عن منهج الأشاعرة، وشرح مسائل العقائد طبقًا لذوقه، ومن بين الكتب التي ألفها، جواهر القرآن والمنقذ من الضلال والمضنون الكبير والصغير ومعارج القدس ومشكاة الأنوار.

٦- كان الإمام الغزالي يرى أن أسرار الشريعة لا يمكن أن تظهر بشكل عام، وبناءً على هذا فإن الكتب التي نشرها كانت موافقة لمعتقدات الأشاعرة، والكتب التي ألفها طبقًا لذوقه ورأيه الخاص لم ينشرها بشكل عام.

٧- النتيجة التي توصلنا إليها بشكل عام هي أن الإمام الغزالي يعتبر في عداد الأشاعرة؛ ولهذا السبب لم يستطع إجراء أي تعديل يذكر في السلسلة القديمة لعلم الكلام سوى أنه ضم الفلسفة إلى علم الكلام.

الشهرستاني:

حصل العلامة محمد بن عبدالكريم على شهرة واسعة النطاق بعد الإمام الغزالي، وهكذا فقد لقب بلقب الأفضل بلغة القوم.

ولد العلامة الشهرستاني سنة ٤٧٩هـ ودرس الفقه على أحمد بن خوافي وتعلم الأصول علي أبي القاسم الفيشري وكان من مشاهير الصوفية، وحصل علم الكلام على أبي القاسم الأنصاري، ووصل إلى بغداد في سنة ٥١٠هـ وأقام بها ثلاث سنوات فقدروه وبجلوه ووعظه شاهد على بلاغته وفصاحته بين الخاصة والعامة.

أظهر العلامة الشهرستاني نبوغاً في علم الحديث، وكان السمعاني المحدث الشهير تلميذه وله مؤلفات عديدة في علم الكلام هي: نهاية الأقدام في علم الكلام، والمناهج والبيان، وكتاب المضارعة، وتلخيص الأقسام لمذاهب الآنام، ولكن زاعت شهرته بسبب كتابه الملل والنحل ويقع هذا الكتاب في جزءين، تناول في الجزء الأول تاريخ ظهور جميع الفرق الإسلامية وتطورها، إلى جانب هذا كتب عن معتقداتهم بالتفصيل وتناول في الجزء الثاني تاريخ الأديان الأخرى وركز بشكل خاص على فلاسفة اليونان وكتب شرحًا مفصلاً ومسهبًا عن سيرتهم. وتناول في هذا الجزء خلاصة فلسفة فلاسفة اليونان كل على حده بدقة وشمولية تجعل المرء يتعجب لهما، وهذا الكتاب تنظر إليه أوربا بعين التقدير، ولهذا ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع مع الأصل العربي.

على الرغم من أن العلامة الشهرستاني كان محدثًا وواعظًا وفقيهًا فإنه لما كانت معرفة الفلسفة مُجّرمة لهذا لم يسلم من حملات سوء الظن، وقد نقل عن العلامة السمعاني في طبقات الشافعية أنهم كانوا يعتقدون أنه ملحد. يقول صاحب

الكافي: "لولا تخبطه في الاعتقاد وميله إلى أهل الزيغ والإلحاد لكان هو الإمام في الإسلام".(١)

وقد تعجب المحدث ابن السبكي من سوء ظن الناس به، والتي تتعارض تمامًا مع مؤلفات العلامة الشهرستاني، ويرى أن شخصًا ما أضاف هذه العبارة في كتاب العلامة السمعاني وهذا صحيح. (٢)

الإمام الرازي:

بعد الشهرستاني وُضع تاج علم الكلام على رأس الإمام فخر(٣) الدين الرازي، واسمه محمد بن عمر، ولد سنة ٥٤٤هـ وتلقى تعليمه في طفولته على يد والده، وحصّل الفقه على كمال السمعاني وبعد الفقه تشوق لدراسة المعقولات وكان في ذلك العصر مجد الدين الجيلي الذي بلغ ذروة الكمال في هذه العلوم وكان مقيمًا في مدينة الإمام الرازي أي الري فالتحق به الإمام الرازي وبدأ التحصيل عليه وبعد عدة أيام طُلب مجد الدين الجيلي للتدريس في مراغة فذهب معه الإمام الرازي وظل عنده ردحًا من الزمن درس عليه الفلسفة وعلم الكلام، وبعد أن انتهى من الدراسة توجه إلى خوارزم وأخذ هناك يتناظر مع العلماء في مسائل العقيدة وبسببها عارضه الناس فرحل من هناك، وبعد أن خرج من خوارزم وصل ما وراء النهر وهناك واجهته نفس المشكلة فاضطر إلى العودة إلى موطنه الري، وكان يعيش هناك تاجر ثري فزوج بناته من أبناء الإمام الرازي ثم توفي ذلك

---

(١) طبقات الشافعية.

(٢) أحوال العلامة الشهرستاني مأخوذة من طبقات الشافعية وابن خلكان..

(٣) رجعت إلى طبقات الأطباء وابن خلكان للوقوف على سيرة الإمام الرازي.

التاجر بعد عدة أيام ولم يكن له أولاد ذكور فآلت جميع أمواله وممتلكاته للإمام الرازي وأولاده.

كان الإمام الرازي يعاني من شظف العيش ثم فجأة أصبح من الأثرياء لدرجة أن شهاب الدين الغوري فاتح الهند اقترض منه مبلغًا كبيرًا من المال وعندما رد القرض أضاف إليه مبلغا ضخمًا من المال من جانبه على سبيل الصلة، وإلى جانب الوضع المالي للإمام الرازي فقد وصل إلى مرتبة من الجاه والجلال جعلت سلاطين عهده يفتخرون في الحضور إلى خدمته، فكان محمد بن تكش خوارزم شاه وهو من أكبر حكام عصره وفتح مناطق كثيرة من العراق وكاشغر وما وراء النهر وخراسان قد حضر كثيرًا إلى بلاطه.

ذات مرة عندما ذهب إلى هرات خرج حاكمها حسين خرمين لاستقباله وجاء به مكرمًا مبجلاً وأنزله في الإيوان الملكي ثم عقد جلسة موسعة في البلاط حضرها جميع العلماء والأمراء وأمر أن يجلس الإمام الرازي في صدر الجلسة واصطف الغلمان الأتراك عن يمينه وعن يساره واقفين شارعين سيوفهم، وكان هؤلاء الغلمان مملوكين للإمام الرازي وكانوا دائمًا ملازمين له وفي ركابه وعندما اجتمع المجلس حضر حسين شاه والي هرات فحيا الإمام الرازي ومثل بين يديه فأجلسه الإمام الرازي بجواره، وبعد فترة قصيرة حضر السلطان محمود ابن أخي شهاب الدين الغوري (فاتح الهند) فأجلسه الإمام الرازي في الجانب الآخر واحتشد الناس فخطب فيهم الإمام الرازي خطبة بليغة وفصيحة عن حقيقة النفس، وبالمصادفة وأثناء الخطبة هجم صقر على حمامة فهربت ناحية المجلس وسقطت أمام الإمام الرازي منهكة وهرب الصقر بعد أن رأى زحام الناس ونجت الحمامة بحياتها، وكان الشاعر شرف الدين حاضرًا في الجلسة فتوجه ناحية الإمام الرازي وخاطبه مرتجلاً بهذا البيت الذي كان مناسبًا للحدث:

من نبأ الورقاء أن محلكم ∴ حرمٌ وأنك ملجأ للخائف

وقد سعد الإمام الرازي أيما سعادة ببديهته وطبعه واستدعى الشاعر وأجلسه عنده وبعد أن انتهت الجلسة خلع عليه خلعته وأنعم عليه بالذهب والهدايا.

وكان الإمام الرازي غالبًا ما يقيم في القصر الملكي في هرات وهذه البناية الفخمة المنيفة كانت مجهزة بجميع أنواع الراحة والمتعة كان خوارزم شاه قد أهداها إليه.

كان هذا نموذجًا من الجاه والجلال الدنيوي، أما علمه وفضله فقد ذاعت شهرته وكان مئات الآلاف من الناس من كل مكان في العالم الإسلامي يتكبدون عناء السفر آلاف الأميال ليطلبوا منه حل المسائل المختلفة في العلوم الدينية ويعودون بعد حلها، وكان عندما يخرج في سفر كان قرابة ثلاثمائة من العلماء والمريدين يسيرون في ركابه.

وحلية الإمام الرازي هي أنه كان متوسط الطول قوي البنيان عريض الصدر كث اللحية، جهوري الصوت، مهيب الجانب وتوفي في هرات يوم الأحد غرة شوال سنة ٦٠٦هـ.

وكما كان إمامًا في الفقه والأصول والتفسير فهو كذلك في الفلسفة والعقليات ولم يولد له مثيلٌ في عصره وبهذه الخصوصية لا يمكن للقدماء أن يدعوا منزلته، وهكذا فقد يسر مسائل الفلسفة وقضاياها الدقيقة والمعقدة بطريقة خذلت أفلاطون وأرسطو.

لا يمكنني في هذا الموضع أن أفصل أعماله العلمية وخاصة إسهاماته فيما يتعلق بعلم الكلام وسوف أكتفي هنا بتفصيلها:

١- فيما يتعلق بعلم الكلام فإن أعظم مآثره هو الرد على الفلسفة لكنه كان من المغالين فيها إلى حد ما بسبب قوة طبعه، ولم يكن لديه أي تمييز بين الضروري وغير الضروري منها، بل أخذ يوجه سهام الاعتراض

إلى الفلسفة، وكان في الفلسفة آلاف المسائل والقضايا الصحيحة في حد ذاتها ولا تتعارض كذلك مع الدين لم يتركها الإمام الرازي أيضا حتى القضايا التي كان لا يمكن الاعتراض عليها مثل: إثبات الباري وتوحيد الباري وغيرها اعترض عليها بطريقته وقال مع أن هذه القضايا صحيحة في حد ذاتها لكن استدلال الفلاسفة غير صحيح، ومع هذا كان لا يمكن أن ينجح الإمام الرازي في هذا الهجوم العالمي وقد أيد المحقق الطوسي وصهره باقر الفلسفة في تنافس معه، ورغم ذلك فإن أحجار اعتراضاته زلزلت دعائم عمارة الفلسفة وقوضتها، أما العلامة قطب الدين الرازي الذي حكم بين الإمام الرازي والمحقق الطوسي فألف كتابا مستقلاً عن هذه المعركة الكلامية، وقد انهزم الإمام الرازي في مواجهة هذا السيل من الاعتراضات.

٢- كان الإمام الرازي أول من كتب الكلام بأسلوب الفلسفة، وخلط آلاف القضايا الفلسفية بقضايا علم الكلام، وقام المتأخرون بعد ذلك تدريجيا بجعل الفلسفة كلها علم كلام.

٣- بعض أسماء الكتب التي ألفها الإمام الرازي في علم الكلام هي: مطالب عالية، نهاية العقول، الأربعون في أصول الدين، محصل، البيان والبرهان، مباحث عمادية، تهذيب الدلائل، تأسيس التقديس، إرشاد النظار إلى لطايف الأسرار، أجوبة المسائل البخارية، تحصيل الحق، الزبدة، لوامع البنيات في شرح أسماء الله والصفات، كتاب القضاء والقدر، تعجيز الفلاسفة، عصمة الأنبياء، كتاب الخلق والبعث والخمسين في أصول الدين. وقد اطلعت على الكتب الثلاثة الأولى، وكتب الفلسفة التي يرد فيها على الفلاسفة مثل شرح الإشارات والمباحث المشرقية يمكن أن تحسب ضمن مؤلفات علم الكلام من هذه الناحية.

٤- أسس الإمام الرازي دعائم علم الكلام على عقائد الأشاعرة ودافع عنها وكانت قضايا الأشاعرة التي تحتاج إلى تأويل لا يتركها بلا تأويل ويقيم مئات الحجج والبراهين على صحتها، فمثلا كان الأشاعرة يقولون أنه ليس للإنسان قدرة مؤثرة على أفعاله وكانوا يكسونها بلباس الاختيار للهروب من الجبر في أفعاله، إلا أن الإمام الرازي كشف هذا اللثام وزعم أن الإنسان مجبر على أفعاله وهكذا فقد صرح بهذا الزعم في مواضع كثيرة من "التفسير الكبير" وأقام عليه الدلائل والبراهين. وأمثلة أخرى مثل: أفعال الله تكون بلا أي مصلحة أو حكمة والحسن والقبح ليست أمورًا عقلية والجسم لا يكون شرطًا للحياة ولا يشترط الجهة والجسم واللون من أجل الرؤية وليس هناك أي خاصية في أي شيء وليس هناك سبب ومسبب في الأشياء وغيرها من المسائل، وقد قدم مئات الأدلة على جميع المسائل وأقر بمعيار الاعتزال والتسنن في تلك المسائل وهكذا تغص جميع كتبه الكلامية والتفسير الكبير بتلك المباحث. والحقيقة هي أن هذه المسائل كانت قد لاقت رواجا وقبولا عامًا بهذا القدر فكان لا يمكن لأي شخص أن يقضي حياته في إنكارها، وقد أشار الإمام الغزالي إلى تلك المسائل في كتابه "إلجام العوام" يقول: " الثانية أن يحصل بالأدلة الوهمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة صدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشاع إنكارها ونفرة النفوس عن إبداء الرأي فيها".

٥- سلك الإمام الرازي سبلاً مختلفة لإظهار أصل الحقيقة[١]

---

(١) إلجام العوام ص ٣٩

أما الناس الذين كانوا يبحثون في أسرار الشريعة ويطبقون المعقول والمنقول "فقد أطلق عليهم الإمام الرازي فلاسفة الإسلام ويذكر في موضع من تفسيره ما يلي: "احتج حكماء الإسلام بهذه الآية".(١)

ويقول في موضع آخر: "المقام الثاني وهو قول حُكماء الإسلام".(٢) ويكتب في موضع ثالث: "هو أن جماعة من حكماء الإسلام".(٣)

والإمام الرازي يذكر اسم هذه الجماعة بلهجة تعظيم ولم ينتقد أقوالها بل يمدحهم في أكثر المواضع كناية وفي بعض المواضع صراحة.

والمسائل التي ذكرت على لسان هؤلاء الفلاسفة هي في الحقيقة الأفكار الأصلية للإمام الرازي وهي روح علم الكلام، ففي تفسير هذه الآية من القرآن الكريم ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ ﴾ ما المقصود من تدوين سجل الأعمال ووزنه؟ وما نتيجة هذا؟ كان ردهم أنه يوجد هنا رأيان مختلفان: ففي مذهب المتكلمين أن سجل الأعمال سيوزن في الواقع وأن الهدف من هذا أن يتكشف لجميع الحاضرين يوم القيامة أن أعمال الشخص فلان خيرة، والشخص فلان شريرة.

ويرى فلاسفة الإسلام أن الإنسان عندما يؤدي أي عمل خيرًا أم شرًا يطرأ على قلبه أثر خاص ويترك هذا الأثر نقشًا عميقًا بقدر ما يصدر من تكرار هذه الأفعال إلى أن تنشأ في قلبه ملكة راسخة للخير أو للشر اسمها كتابة الأعمال ولأن كل فعل يظهر أثرًا ما، لهذا فإن كل فعل يصبح وكأنه نقش أو كتابة. (تفسير كبير سورة الرعد) أو كتب مثلاً في تفسير هذه الآية من القرآن الكريم: ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ (سورة إبراهيم) إن هذا مذهب أهل السنة

---

(١) تفسير آية: الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا..

(٢) التفسير الكبير. سورة الرعد. آية: له معقبات من بين يديه.

(٣) التفسير الكبير. سورة إبراهيم. آية: قالت لهم رسلهم إ نحن إلا بشر مثلكم..

والجماعة، النبوة مرتبة يمنحها الله لمن يريد ولهذا ليس من الضروري أن يتوفر في الرسول أي قوة اشراقية أو قدسية خاصة والتي يتميز بها عن الآخرين، وفي مقابل هذا يذكر فلاسفة الإسلام هذا الرأي: " مادام الإنسان ليست فيه صفات قدسية وروحانية خاصة لا يمكن أن يكون رسولاً" وقد بدأ فلاسفة الإسلام رأيهم هذا بهذه الكلمات: واعلم أن هذا المقام فيه بحث شريف دقيق وهو أن جماعة من حكماء الإسلام إلخ".

أو مثلاً يفسر هذه الآية من القرآن الكريم: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام) بعد أن يذكر مذهب عامة المفسرين يقول: وللحكماء في تفسير هذه الآية كلام عجيب".

وكتب في تفسير هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (سورة آل عمران) أن الإنسان يندم على عمله السيء وضلاله يوم القيامة وفلاسفة الإسلام يعبرون عنه بالعذاب الروحاني ويقولون إن هذا العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني.

وفي بعض المواضع يشار إلى هذه الجماعة (فلاسفة الإسلام) بأرباب النظر وأرباب المعقولات.

على سبيل المثال اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (سورة الأعراف) فأصحاب الرواية يقولون إن الله تعالى عندما خلق آدم خلق من ظهره ذريته بعد أن أخذ الله منهم إقرارا بربوبيته ثم أدخلهم في أصلاب آدم. وبعد أن نقل الإمام الرازي هذا القول يقول إن هذا هو مذهب قدماء المفسرين أمثال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير.

ثم يكتب أن "هذا رأي أرباب النظر وأرباب المعقول وهو أن الإنسان جُبل على الفطرة وكأنه يشهد بربوبية الله وهذه الشهادة ليست شفاهية بل حالية".

ويذكر الإمام الرازي بعد أن نقل هذا القول: "وهذا القول الثاني لا طعن فيه البتة" المهم أنه بهذه الطريقة شرح ووضح أكثر مسائل الاعتقادات المطابقة للفلسفة وللعقل.

٦- إن أعظم عمل أداه الإمام الرازي فيما يتعلق بعلم الكلام هو تفسير القرآن الكريم لأن التفاسير التي أُلفت قبل الإمام الرازي لا يوجد تفسير واحد منها كتب بطريقة عقلية أي أنهم كانوا يوردون اعتراضات من جانب المعارضين لبعض آيات القرآن الكريم ويردون عليها بأجوبة لا تتوافق مع الأصول العقلية، بل كانوا يكتفون بالنقل والرواية فقط، ولا غرو فقد ألف المعتزلة العديد من التفاسير من هذا النوع لكنها كانت عديمة النفع لأنهم لم يهتموا أي اهتمام بالجوانب العقلية. وكان الإمام الرازي أول من ألف تفسيرًا على هذا المنهج من جماعة الأشاعرة، والمنهج الذي ألف به لم يكتب أفضل منه حتى اليوم فأسلوبه بشكل عام فيه سعة البيان وتبحر علمي وتناول العديد من الأمور بطريقة مختصرة، ورغم ما يعتريه من حشو وإسهاب إلا أنه حل مئات المسائل الدقيقة والصعبة والتي لا يوجد لها مثيل في أي كتاب آخر.

وقد استخدم الإمام الرازي في هذا التفسير كتبًا كلامية أكثر تحررًا وغير متعصبة، وكان ينقل آراء فلاسفة الإسلام من موضع لآخر، ورغم أنه معارض للأشاعرة إلا أنه كان يثني عليهم ويصوب رأيهم بل زاد على ذلك أنه يستعين بتفاسير المعارضين له خاصة تفاسير المعتزلة وينقل أقوالهم وآراءهم في أكثر من موضع بلا أي نوع من قدح أو جرح بل كان في بعض المواضع يتردد على لسانه عبارات الثناء عليهم تلقائيا، وقد نقل رأي أبي مسلم الأصفهاني في تفسير آية قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ ﴾ (سورة آل عمران) وهو مخالف لآراء باقي المفسرين وتنساب هذه الكلمات وتجري على قلمه فيقول: "وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الخوض على الدقائق واللطائف".

ومع أن أبا مسلم الأصفهاني معتزلي شهير وألف تفسيره طبقًا لجميع الأصول العقلية، فإن ما أسداه الإمام الرازي لهذا التفسير يعد عملاً جليلاً وجديرًا بالثناء حيث قدم شرحًا صحيحًا لقصص وروايات القرآن الكريم، فقد ورد في القرآن الكريم الكثير من قصص أنبياء بني إسرائيل والأمم السابقة بشكل مجمل وكان في تلك القصص مئات الروايات المشهورة المتعلقة باليهود وهي روايات عقيمة وخلاف للعقل، وعندما ظهر الإسلام أضاف اليهود جميع هذه القصص في تفسير القرآن الكريم وألصقوها بالقرآن، وكانت هذه القصص ممتعة وخادعة ولأنها كانت تؤدي عمل السحر في المحافل المحتدمة للوعاظ والخطباء فقد لاقت قبولا واسعًا ورواجًا عظيمًا وسنحت لهم الفرصة لكي يملؤوا جميع التفاسير بتلك القصص. كان المحدث والمفسر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري محدثًا ومفسرًا من الطراز الأول وعلى حد قول جميع المحدثين والفقهاء بالنسبة لتفسيره أنه لم يكتب تفسيرًا أفضل منه في الإسلام، ورغم ذلك لم ينج هذا التفسير(١) أيضا من هذا النوع من القصص، كانت زهرة إحدى النساء الفاحشات في بابل وكان لاسميا عظيم الأثر حيث اعتلت السماء وصارت كوكبًا بعد أن صعدت هناك هذه القصة مذكورة في هذا التفسير ومذكورة بسند.

وقد أضيفت إلى التفاسير روايات وقصص عديدة مثل: تهيؤ سيدنا يوسف للمعصية، تغلب الشيطان على سيدنا أيوب وقضى على أسرته وأمتعته وأمواله، أطلق سيدنا آدم اسمًا من أسماء الشيطان على أحد أبنائه وهو عبدالحارث (الحارث اسم الشيطان)، قال سيدنا إبراهيم عليه السلام الكذب ثلاث مرات، وصول ذي القرنين إلى ذلك المكان عندما غربت الشمس في عين ماء، رغبة سيدنا داود في زوجة أويريا وغيرها من الروايات، صارت من عناصر الروايات الدينية وكانت هذه الروايات هي التي منحت الفرصة الأكبر لأعداء الإسلام للهجوم على الإسلام،

---

(١) يطبع هذا التفسير فى الوقت الحاضر في مصر وأما من الجزء الأول منه.

وكان المعتزلة أول من رفض هذه الروايات، ولكن أي شيء ينكره المعتزلة فإن الناس يقبلون الشيء نفسه ويتعصبون له، وكانت هذه القصص القيمة شائعة ومتداولة حتى عهد الإمام الرازي، وقد رفض الإمام الرازي تلك القصص السخيفة بجرأة وشجاعة وأثبت بالدلائل والحجج الدامغة أن هذه القصص في مجملها كاذبة.

وذكر في التفسير فيما يتعلق بقصة سيدنا إبراهيم أن شخصًا سألني قائلاً: إن سيدنا إبراهيم قال الكذب ثلاث مرات والواقعة مؤكدة من الأحاديث فكيف يمكن إنكارها؟ أجبته أنه لو أن رواة الحديث صادقون لفرض على سيدنا إبراهيم الكذب فرضًا، ولو أن سيدنا إبراهيم صادق فإنه من المحتم أن الرواة كاذبون والآن عليكم أن تختاروا من منهم تكذِّبونه ومن منهم تصدقونه.

وقد فسر الإمام الرازي في هذا التفسير موضوعات جديرة بالاهتمام في العقائد طبقًا للأصول والقواعد العقلية وسنأتي على ذكر الأجزاء الأخرى من هذا التفسير عندما تسنح الفرصة المناسبة.

سوء الظن بالإمام الرازي لدى المحدثين:

وعلى الرغم من أن الإمام الرازي رجح كفة المنقول في مقابل المعقول، وكتب كتبًا مستقلة للرد على المعتزلة وغيرهم إلا أن الفقهاء والمحدثين كان لهم هذه الآراء فيما يتعلق به يقول العلامة الذهبي في الميزان: " الفخر بن الخطيب صاحب التصانيف رأس في الذكاء والعمليات لكنه عرى من الآثار وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدين تورث حيرة نسأل الله أن يثبت الإيمان في قلوبنا".

يذكر الحافظ ابن حجر في لسان الميزان نقلاً عن ابن الربيب:

"وكان يُعاب بإيراد الشبه الشديدة ويقصر في حلها حتى قال بعض المغاربة يورد الشبه نقدًا ويحلها نسية"، ثم يكتب نقلاً عن الإكسير في أصول التفسير:

"عن شيخه سراج الدين الرمساجي المغربي أنه صنف كتاب المآخذ في مجلدين بين فيها ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج وكان ينقم عليه كثيرا ويقول: يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق ثم يورد مذهب أهل السنة الحق على غاية من الوهي - قال الطوفي: ولعمري أن هذا دأبه في كتبه الكلامية حتى اتهمه بعض الناس".

ثم نقل الحافظ بن حجر بعد هذه العبارة قول الطوفي: "إن سوء الظن بالإمام فخر الدين الرازي ليس صحيحًا لأنه لو كان له بعض الأفكار الأخرى لكان قد خشى أن يظهرها". لكن الطوفي لا يعلم أن الإمام الرازي قد تورط في هذه المصيبة. وقد ذكر الحافظ بن حجر في هذا الكتاب: "وهموا به فاستتر". والمسائل التي استدل بها لإثبات زندقة الإمام الرازي أوردها الحافظ بن حجر في ذلك الكتاب على لسان ابن خليل:

"إن مذهب الجبر هو المذهب الصحيح وقال بصحة بقاء الأعراض وصفات الله الحقيقية وزعم أنها مجرد نسب وإضافات كقول الفلاسفة وسلك طرق أرسطو في دليل التمانع ونقلوا عنه أنه قال عندي كذا مائة شبهة على القول بحدوث العالم".

وبعد الإمام الرازي بل حتى في نهاية عصره أخذ متاع الإسلام وكنوزه في الخراب والدمار عندما تدفقت سيول التتار، علاوة على هذا كان من الصعب سطوع نجم أي اسم لفترة من الزمن أمام شهرة الإمام الرازي، مع ذلك لأن القالب العلمي للإسلام كان فيه بقية من روح فقد ظهر بعض العلماء الذين لا نستطيع أن نتجاهلهم في تاريخ علم الكلام وأكثرهم شهرة العلامة سيف الدين الآمدي.

العلامة الآمدي:

اسمه الكامل أبو الحسن علي سيف الدين الآمدي ولد سنة ٥٥١هـ وتوفي سنة ٦٣١هـ، تعلم الفقه والأصول وغيرهما في بغداد وحصّل العلوم العقلية في الشام وأظهر فيها نبوغا ثم سافر من الشام إلى مصر، وعين نائب مدرس في مدرسة القرافة هناك وأخذت شهرته تزداد يومًا بعد يوم وذاع صيت علمه وفضله ولكن هذه الشهرة كانت وبالاً عليه، وطبقًا لما ذكره ابن خلكان فإن الفقهاء ناصبوه العداء بسبب قبوله وشهرته لدرجة أن الفقهاء أعدوا مذكرة اتهموه فيها بأنه فاسد العقيدة وملحد وزنديق وفيلسوف، وقد وقع على هذا المحضر جميع الفقهاء، ومن الطريف أنهم أرسلوها للعلامة الآمدي نفسه وأمروه أن يوافق ويصادق عليها فكتب عليها العلامة الآمدي هذا البيت من الشعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ∴ فالقوم أعداء له وخصوم

ولم تكن لدى العلامة الآمدي شهادة ذوق العالم وإلا لنطق بلغة قاتليه ولوقع على المذكرة.

على كل حال هرب العلامة الآمدي في مصر إلى الشام وأقام في حماة ثم وصل إلى دمشق وعين مدرسًا بالمدرسة العزيزية ولكن لم يكن الزمن ملائمًا له فعزل بعد عدة أيام وفي النهاية ظل ملازمًا لبيته وتوفي وهو في هذه الحالة.

مؤلفاته غزيرة، وله مؤلفات في الفلسفة وفي أكثر المواضع كان يرد على أرسطو لكنه لم يكن حذرًا حصيفًا مثل الإمام الرازي بل كان يتحدث بآرائه التي كانت جديرة بالاعتراض في الواقع، وعلى الرغم من أنه في علم الكلام إمام للأشاعرة لكنه كان ينتقدهم بحرية في بعض المواضع. ومن كتبه المشهورة في علم الكلام: دقائق الحقائق، ورموز الكنوز وأبكار الأفكار.(١)

---

(١) السيرة المفصلة للعلامة الآمدي مذكورة في طبقات الشافعية وطبقات الأطباء وعند ابن خلكان.

ولم يصل أي عالم إلى هذه المكانة بعد العلامة الآمدي والتي هي جديرة بالذكر، فقد ألف القاضي عضد والعلامة التفتازاني وغيرهما كتبًا ضخمة في علم الكلام، وتدخل بعض أجزاء تلك الكتب في المناهج الدراسية النظامية في تلك الأيام وهذه هي الثروة العلمية لعلمائنا، لكن أولاً فإن القليل اقتبس من الإمام الرازي والآمدي، وثانيا أنهم أدخلوا هذا القدر من مسائل الفلسفة الخالصة في تلك الكتب بحيث لا يبدو جليا الفرق بين الفلسفة وعلم الكلام، وما أصدق ما كتبه العلامة ابن خلدون في مقدمته:

> "ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم".

أسباب شهرة طريقة الأشعري:

كان علم الكلام الذي طوره الأشعري ووصل به إلى عنفوانه يرجى منه سد النقص وإصلاح المسالب والوصول به إلى مرتبة الكمال، لكن غارات التتار تصاعدت على حين بغته فقضت على جميع الآمال وتسببت هذه الحادثة الطارئة في الحيلولة دون تطوره العلمي لكن لم تحدث خللاً في نشره، بل تجمعت مثل هذه الأسباب تدريجيًا وخيمت على جميع العالم الإسلامي، وقد ذكر المقريزي في تاريخ مصر.[١]

أسباب تطوره ونشره وأنقل هنا عبارته بعينها بعد حذف بعض المترادفات والكلمات غير الضرورية:

---

(١) المجلد الثاني صفحة ٣٥٨.

"فلما ملك السلطان صلاح الدين كان هـو وقاضيه عبدالملك على هذا المذهب، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة قطب الدين وصار يحفظها صغار أولاده؛ فلذلك عقدوا الخاصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب ثم في أيام مواليهم الملوك من الأتراك، واتفق مع ذلك توجه محمد بن تومرت وأخذه عن أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري؛ فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد الغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة بن تومرت فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلا الله، فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام".

ونقل المؤرخ المقريزي في موقع آخر عقائد الإمام الأشعري يقول:

"فهذه جملة من أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية والتي من جهر بخلافها أريق دمه".(١)

نظرة إجمالية على علم الكلام عند الأشاعرة:

تنقسم مسائل علم الكلام عند الأشاعرة إلى ثلاثة أقسام هي:

١- مسائل فلسفية خالصة.

٢- مسائل في الفلسفة يعتبرها المتكلمون مخالفة للدين.

٣- مسائل إسلامية خالصة.

---

(١) المقريزي: خطط المقريزي.

القسم الأول لا علاقة له بعلم الكلام، والقسم الثاني أيضا في الحقيقة مختلف عن علم الكلام لأن المسائل التي تعتبر مخالفة للدين هي في الحقيقة لا علاقة لها بالدين والآن تبقى المسائل الإسلامية الخالصة.

ومن بين تلك المسائل هناك مسائل خاصة بالأشعرية والتي أشرنا إليها آنفًا، وبالرغم من أن الإمام الغزالي والرازي قد بذلا جهودًا مضنية في إثباتها، لكن تلك المسائل كانت من هذا النوع الذي يذهب الجهد المبذول فيها هباءً، وحكموا أنتم أنفسكم هل هذه هي الأمور التي كلفنا بها الله تعالى؟ فالمسببات لم تكن مبنية على الأسباب، فالجسم ليس شرطًا للحياة، وبالسحر يقلب الإنسان حمارًا، فمن ذا الذي أكد وحقق وتثبت وهل تستطيعون التحقق؟

أما جميع القضايا والمسائل الباقية التي يجمع عليها كل الفرق الإسلامية أي إثبات وجود الله والتوحيد والنبوة والقرآن الكريم كلام الله وإثبات المعاد فإننا ننقل هنا بعض المسائل المهمة مع أدلتها لتقييمها حسبما هو مؤكد بالدلائل العقلية.

وجود الباري:

والدليل عليه هو أن العالم حادث والحادث يحتاج إلى علة، لهذا العالم محتاج إلى علة وتلك العلة نسميها الله، والجزء الثاني من هذا الدليل لا يحتاج إلى دليل، وهناك أدلة متعددة لإثبات الجزء الأول. أولاً ما هو موجود في العالم إما أن يكون جوهرًا أو عرضًا، ولا أحد يمكنه الشك في كون العرض حادثًا، ولهذا فالجوهر حادث، ولا يمكن أن يخلوا أي جوهر من العرض مطلقا، وعندما يكون العرض حادثًا فمن الضروري أن يكون الجوهر حادثًا أيضا، ولو أن الجوهر قديم - وهذا أمر مسلم به ألا يكون الجوهر بغير عرض - عندئذ سيتحتم بالضرورة قدم العرض أيضًا.

الدليل الثاني هو أن جميع الأجسام إما متحركة أو ساكنة، والحركة والسكون كليهما من الأشياء الحادثة لهذا ستكون جميع الأجسام حادثة، وأن حدوث الحركة كما يبدو من معنى الحركة هو الانتقال من حالة أو مقام إلى حالة أو مقام آخر، لهذا فالسكون حادث لأنه لو لم يكن حادثا لكان قديما، والشيء القديم لا يمكن أن يكون زائلا لهذا سيلزم الشيء الساكن ألا يزول سكونه قط.

والدليل الآخر على إثبات وجود الله هو أن الأجسام جميعا متحدة في الحقيقة وبالرغم من وجودها فإنها تختلف في خصائصها؛ ولهذا فإن تلك الخصوصيات ليس بالضرورة أن يكون لها مخصص وهي نفسها الله، مثلا النار والماء هما من حيث الحقيقة الأصلية متحدان، وكان يجب من هذا الجانب أن يكون الاحتراق صفة النار ويستطيع الماء أن يحرق أيضا ولكن لم يحدث هذا بل لكليهما خصائص منفصلة ولهذا من الضروري أن يكون هناك مخصص يخلق هذه الخواص وهو الله تعالى. وهناك أدلة أخرى لإثبات الباري مذكورة في الكتب لكن هذا أولها.

توحيد الباري:

أي الوحدانية لأنه لو أنهما اثنان وتتوفر فيهما جميع صفات الإلوهية بدرجة واحدة، فسيلزم هذا ألا يكون هناك أي شيء مخلوق، ولهذا يكون لهما دور متساوي في خلق جميع المخلوقات، وفي هذه الحالة لو أن كليهما خلقا مخلوقا واحدا فيستوجب وجود علتين تامتين لمعلول واحدا، ولو أن واحدا فقط خلق مخلوقا تكون الأفضلية بلا مرجح.

النبـــــوة:

معنى النبوة عند الأشاعرة هي أن الله تعالى يصطفي من يشاء من عباده يكلفه بتبليغ الأحكام الإلهية ولهذا لا يتطلب أن يتوفر في ذلك الشخص أي نوع من الكفاءة وصفاء النفس.

إن إثبات النبوة رهن بالمعجزة، وتعريف المعجزة هو أنها الفعل الخارق للعادة وأن تكون من جانب الله تعالى، ولا يمكن معارضتها، وتظهر من جانب مدعي النبوة، تكون مطابقة لدعوى النبوة، وهي الفعل الذي لا يصدر أولا عن دعوى النبوة، فالمعجزة التي تصدر عن شخص فيه هذه الشروط يكون نبيًا، والمعجزة دليل النبوة، وبناءً على هذا عندما تصدر أي معجزة من شخص ما فإن الله نفسه يثبت هذا الأمر في قلوب الحاضرين وهو أن الرسول على حق.

حقيقة نبوة الرسول ﷺ :

من المسلم به أن العرب في عصره كانوا أساطين البلاغة والفصاحة وكان العالم أجمع عاجزًا أمامهم، وقد نزل القرآن الكريم في ذلك العصر ونزل متحديًا إياهم بأنه لو اجتمعت الدنيا جميعًا بل جميع الجن والإنس ليأتوا بمثله فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، وقد أنفق العرب كل قوتهم ضد هذه الدعوى ولكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة صغيرة مثله، ولهذا فإن هذا الأمر جدير بالإذعان والتسليم به بأنه من جانب الله تعالى وأنه معجزة وإلا كيف يمكن أن يعجز العرب جميعًا أمامها.

المعاد وكيفيات المعاد:

يعني في يوم القيامة تحشر جميع أجسام البشري وتوزن الأعمال بالميزان وعبور الصراط، والذهاب إلى الجنة والنار وغيرها.

إن طريقة إثبات هذه الأمور هي أن تعد كل هذه الأمور من الممكنات ولأن المشرع عليه السلام أكدها لهذا فهي يقينية.

والجزء الأكبر من علم الكلام عند الأشاعرة هو في الرد على الفلسفة اليونانية، ولاشك في أن مسائل الفلسفة معارضة للإسلام، وإن الرد عليها هو روح

الإسلام، إلا أن المتكلمين قدموا أخطاء فادحة فيها، والمسائل التي تعتبر من مسائل الفلسفة اليونانية، وهي في الحقيقة لم تكن مسائلهم، وكانت المسائل عندهم في الحقيقة في الأغلب الأعم مخالفة للإسلام.

الماتريدية:

من الأمور العجيبة أنه بالرغم من أن فرقة الحنفية التي يفوق عددها جميع الفرق الإسلامية مجتمعة ماتريدية من حيث العقائد، إلا أن الماتريدية في علم الكلام أقل شهرة من الأشعرية، وقد تسبب عدم الشهرة هذا في أن أكثر علماء الحنفية اليوم على نفس مذهب الأشاعرة مع أنه في قديم الزمان كان الحنفي الذي يصبح أشعريًا ينظر إليه بعين التعجب، وذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ أحداث سنة ٤٦٦هـ "وهذا مما يستطرف أن يكون حنفيًّا أشعريا".

وسبب ضلال الماتريدية أن علماء الحنفية صنفوا كتبًا قليلة جدا في علم الكلام بقدر ما هو مشهور في هذا العلم من مؤلفات ذائعة الصيت مثل مؤلفات الشافعية وكانت عمومًا أشعرية.

وهذا الفرع من علم الكلام ينسب إلى أبي منصور الماتريدي، واسمه الكامل محمد بن محمد بن محمود وكان من سكان قرية ماتريد وهي من أعمال سمرقند وكان قد تلقى تعليمه على الإمام أبي النصر العياشي، وأبي بكر أحمد بن إسحاق بن صالح الجوزجاني، ونصير بن يحى البلخي ومحمد بن مقاتل الرازي ويعد من تلاميذ أبي يوسف والإمام محمد وتوفي سنة ٣٣٣ هـ[١] ومؤلفاته حسب ما يلي: كتاب التوحيد، وكتاب المقالات، ورد أوائل الأدلة للكعبي، وبيان وهم المعتزلة، وتأويلات القرآن، وقد اطلعت على نسخة غير كاملة من كتاب تأويلات القرآن.

---

(١) انظر سيرته الكاملة في شرح إحياء العلوم ٢/٥.

وقد اختلف الإمام الماتريدي مع الأشعري في جميع الأصول التي نعدها من خصائص الأشاعرة؛ ولهذا السبب يُعتقد أن علم الكلام عنده مختلف عن علم الكلام عند الأشعري، وقد أحصى العلماء المسائل التي اختلف فيها هذان العالمان الكبيران، فذكر بعضهم أنها ثلاث مسائل، وذكر البعض الآخر أنها ثلاث عشرة مسألة، في حين عدها آخرون أربعين مسألة، إلا أن العلامة ابن البياضي قام بمزيد من البحث والتمحيص وأوصلها إلى خمسين مسألة مختلفاً فيها؛ ولذلك أذكر فيما يلي المسائل المهمة. (١)

المسائل التي يختلف فيها الإمام الماتريدي مع الإمام الأشعري:

١- حسن الأشياء وقبحها أمر عقلي.

٢- لا يكلف الله عبدًا بما لا يطيق.

٣- الله لا يظلم وظلمه محال عقلاً.

٤- جميع أفعال الله مبنية على المصلحة

٥- ينال العبد أفعاله بالاختيار والقدرة، وتترك هذه الفطرة أثرًا في وجود تلك الأفعال .

٦- الإيمان لا يكون بالقلة والكثرة.

٧- في حالة اليأس من الحياة فإن التوبة مقبولة.

٨- الإحساس بأي شيء من الحواس الخمس ليس بعلم بل وسيلة للعلم.

٩- لا يمكن إعادة الأعراض.

والأشاعرة يخالفون جميع هذه العقائد.

---

(١) شرح إحياء العلوم ٤/١٢..

العهد الثالث

ابن رشد – ابن تيمية – شاه وليّ الله

ابن رشد:

على الرغم من أن المتأخرين جعلوا من علم الكلام مجموعة من الاحتمالات والأوهام، لكن لا يمكن إنكار إحسانهم حيث نال المنطق والفلسفة إجازة القبول والشهرة عن طريقهم، ونتيجة لهذا اطلعت الجماعة الدينية التي تتجنب العلوم العقلية حتى الآن على تلك العلوم، ونتيجة لهذه النتيجة خيمت عقائد الأشعرية على الدنيا بأسرها ولكن في بعض الأماكن كانت أصوات الثورة تتعالى على حكومتهم العالمية، فعندما حكم الملثمون في الأندلس قضوا على تلميذه المهدي بنصيحة من الغزالي وبإشارة منه ومنحوا العرش والتاج لعبد المؤمن بدلاً منه واتخذت الدولة الأشعرية مذهبًا لهما، وازدهر المنطق والفلسفة بهذه العلاقة أيضا،(١) ولم يكن قد انقضى على ذلك نصف قرن حتى ظهر كبار الحكماء والفلاسفة مثل ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد وكان لهؤلاء العلماء مكانة سامقة، ولم يكن يدانيهم أي عالم في دول المشرق سوى الفارابي، وكانت الأخطاء التي وجدها ابن سينا عند شرح الفلسفة اليونانية قد اكتشفها هؤلاء العلماء وأقاموا عليها مئات المسائل الخاطئة، وشرحوا أصل الحقيقة، وكان بينهم ابن رشد الذي اهتم بعلم الكلام وبناءً على هذا نذكر سيرته بقدر من التفصيل.

---

(١) ذكر الغزالي هذه الأحداث بالتفصيل.

الاسم الكامل لابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ولد في قرطبة سنة ٥١٤هـ - ١١٢٠م وكانت أسرته أسرة علمية، وكان جده المتوفي سنة ٥٢٠هـ قاضي قضاة الأندلس - وتلقى ابن رشد تعليمه في قرطبة وقد درس الفقه والأدب والطب أولاً ثم تاقت نفسه لتعلم الفلسفة وظل في خدمة ابن ماجة، وقد بلغ ذروة الكمال في الفلسفة، وقام عبدالمؤمن - وكان حاكما على الأندلس في ذلك الوقت وكان يقدر العلماء والأدباء حق قدرهم - باستدعاء ابن رشد إلى بلاطه، وقلده منصب القضاء، وعينه مستشارًا ونديما خاصا له علاوة على منصب القضاء، وتضاعف تقديره يومًا بعد يوم حتى وصل إلى منصب قاضي القضاة مع أن عمره في ذلك الوقت لم يتعد ٢٧ سنة، وبعد عبدالمؤمن جلس ابنه يوسف على العرش فقدر أيضا ابن رشد أيما تقدير، وكان يوسف يميل كثيرًا إلى الفلسفة اليونانية، ولأن الفلسفة اليونانية لها مؤلفات قيمة فقد ترجمها إلى اللغة العربية وكانت مبهمة وغامضة وغير كاملة وكثيرة الأخطاء، فأمر يوسف ابن رشد بكتابة شرح مفصل لمؤلفات أرسطو بمشاركة ابن طفيل والتشاور معه وهكذا بدأ ابن رشد هذا العمل باهتمام وجهد ومشقة.

وفي سنة ٥٦٦هـ أسند يوسف إليه قضاء أشبيلية فظل شاغلاً هذا المنصب لمدة عامين، وفي هذه الأثناء كان مشتغلاً بالتأليف والتصنيف إلى جانب أعباء القضاء، وقد كتب في ذلك الوقت شرحًا لكتاب الحيوان لأرسطو، وفيما يتعلق بالقضاء فقد قام بجولات وزيارات لمختلف الأقاليم فطاف في قرطبة ومراكش وأشبيلية، وفي سنة ٥٧٥هـ عندما توفي ابن طفيل عينه يوسف طبيبًا خاصا له، وتوفي يوسف سنة ٥٨٠ هـ واعتلى العرش ابنه منصور، وكان منصور كذلك يبجل ابن رشد ويحترمه، وكان ابن رشد في ذلك الوقت قد بلغ الشيخوخة فقدم استقالته من الوظيفة وتفرغ كليًا للتأليف والتصنيف.

واستخدم ابن رشد أفكاره الدينية بحرية خلافًا لمعاصريه، وكتب كتابًا رد فيه على الكتاب الذي ألفه الإمام الغزالي في نقد الفلسفة وهاجم الأشاعرة في

مؤلفاته هجومًا شرسًا، وناصبه الفقهاء العداء نتيجة لتلك الآراء كما نشأت عدة أسباب من هذا النوع ونتيجة لذلك نفاه منصور من وطنه.

كان الفقهاء غاضبين من الترويج للفلسفة لدرجة أنهم فكروا في أن يعيثوا فسادًا ويقوضوا أمن الدولة وأمانها، فاضطر منصور أن يأمر بحرق كتب الفلسفة ولهذا أحرقت آلاف الكتب ، وأبعد ابن رشد عن موطنه واعتقل في جزيرة لوسينا ومعه فلاسفة آخرون هم: أبو جعفر الذهبي، وأبو عبدالله محمد بن ابراهيم، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس والذين نالوا العقوبة نفسها، ولأن منصور لم يكن في الأصل غاضبًا من ابن رشد لهذا استتابه في الظاهر وعفا عن خطئه، وأفسح له مكانًا في البلاط مرة أخرى وتوفي ابن رشد سنة ٥٩٥هـ.(١)

إن العمل الذي قام به ابن رشد في شرح وتوضيح الفلسفة اليونانية يمكننا أن نقدر قيمته من خلال هذه الفقرة التي ظلت مضربًا للأمثال في أوروبا لمدة من الوقت "لا يمكن للإنسان أن يدرك أصول الفطرة حتى ذلك الوقت مادام لم يفهم مؤلفات أرسطو، وأن مؤلفات أرسطو لا يمكن فهمها حتى ذلك الوقت مادام لم تفهم مؤلفات ابن رشد".

ألف العالم الفرنسي الشهير رينان كتابًا خاصًا عن سيرة ابن رشد ومؤلفاته وفلسفته يقع في أربعمائة صفحة، وذكر في هذا الكتاب بالتفصيل كيف قلد فلاسفة ألمانيا وفرنسا أفكار ابن رشد لفترة من الوقت ونسبوها بأنفسهم إلى ابن رشد.

ولأننا في هذا الكتاب لا نستطيع أن نبحث في فلسفة ابن رشد لهذا نكتفي بما كتبه فقط فيما يتعلق بعلم الكلام والإصلاحات والإبداعات التي قدمها له.

---

(١) تذكرة ابن رشد مذكورة إجمالاً في طبقات الأطباء، وهناك سيرة مختصرة له في بعض الكتب الأخرى، لكن في كتاب آثار الأدهار وهو مؤلف جديد في بيروت به تذكرة مفصلة له وعرض لمؤلفاته وقد رجعت كثيرًا إلى هذا الكتاب ومصادر آثار الأدهار مأخوذة عن مؤلفات أوربية.

مع أن موهبة ابن رشد تفتقت في الحقيقة بسبب فلسفة أرسطو التي لم يكن اليونانيون أنفسهم يفهمونها بشكل صحيح، وكان قد غير الأخطاء التعبيرية لابن سينا تغيرًا جذريًا، وأبان الصورة الأصلية الصحيحة، ولكن اجتمعت عدة أسباب خارجية جعلته يهتم بعلم الكلام، وكانت الفلسفة قد شاعت في ذلك العصر وتغيرت المعتقدات الدينية لدى كثير من الناس؛ ولهذا قرر الفقهاء والمحدثون تحريم قراءة المنطق والفلسفة كليًا.

وكان ابن رشد نفسه شغوفًا بالفلسفة، لكنه كان يرى أن الفلسفة والشريعة بناء له عمودين، ولهذا لا يستطيع أن يستسيغ الضعف الديني، ولا يمكن أن يفهم أن المنطق والفلسفة حرام، وقد دعت الحاجة إلى هذه الضرورة وهي تطبيق المعقول والمنقول.

إن الدافع لهذه الفكرة كان بسبب أنه تلميذ مباشر للإمام الغزالي، وظل هذا الموضوع موضع رعاية مؤلفات الإمام الغزالي، وقد ألف كتابين مختصرين في علم الكلام هما: فصل المقال وتقرير ما بين الشعرية والحكمة من الاتصال، والكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، وكلاهما كان يطبع في أوربا لفترة من الوقت والآن طبع المصريون نسخة منهما.

وفي الكتاب الأول أثار هذا السؤال للبحث والمناقشة، هل تعلم الفلسفة والمنطق جائز أم لا؟ وأجاب عليه "واجب أو على الأقل مستحب"؛ لأن الله تعالى يستدل على وجوده بعالم الكائنات من موضع لآخر في القرآن الكريم وأمر بهذه الطريقة من الاستدلال، وقد استنبط الفقهاء من هذا النوع من الآيات أنه من الضروري استعمال القياس في استنباط المسائل، وعندما صدر الجواز الفقهي بالقياس على تلك الآيات لم يكن هناك سبب لعدم جواز القياس البرهاني، وبعد ذلك بحث في هذه المسألة: هل تأويل النصوص القرآنية جائز أم لا؟ فيما يتعلق بالتأويل انقسم المسلمون إلى فريقين، أحدهما قال بعدم جواز التأويل قط، والثاني قال

بجوازه، ولكن الجواز وعدم الجواز عند الفريقين كان مبنيا على النصوص ذاتيـا، ولم يكن هناك أي دخل بين الأشخاص والمخاطب، وقد اختار ابن رشـد الجانـب الثالث وهذا هو التأويل الجائز في النصوص وهو مخصوص فقط بهـؤلاء النـاس من أصحاب النظر والمبدعين، أما عامة الناس فيجب تلقينهم المعنـى الظـاهري تمامًا ولو شكوا أو ارتابوا، فيجب تفهيمهم بأن هذه النصوص تـدخل فـي نطـاق النصوص المتشابهات ويكفي الإيمان بها إجمالاً، وقد بين ابن رشد أسبابه وهي أن المعنى الأصلي والحقيقي لا يمكن أن يرد على أذهان العوام؛ ولهذا فـإنهم يلقنـون المعنى الأصلي وكأنهم ينكرون النصوص القرآنية، فمثلاً لو يقـال للعامـة إن الله موجود ولكن لا مقام له ولا مكان ولا جهة فلا يمكن أن يرسخ في ذهنهم هذا النوع من الوجود، وهذا القول كأننا نقول أن الله غير موجود، فالنصوص التي تحتاج إلى تأويل يسمح بالتفكير والتمعن فقط لهؤلاء العلماء المجتهدين، فلو أن هؤلاء النـاس من المجتهدين أخطؤوا في التأويل فلا تسريب عليهم، لكن الشخص الذي لم يـصل إلى مرتبة الاجتهاد لا يغتفر خطؤه، فعلى سبيل المثال لو طبيب حاذق أخطـأ فـي العلاج فلن يؤاخذه أحد، لكن لو لم يكن طبيبًا ماهرًا فسوف يحاسب على خطئه.

وقد أخذ ابن رشد في هذا الكتاب علم الكلام عند الأشاعرة مؤاخذة شـديدة، وأثبت أن طريقتهم ومنهجهم ليس عقليا ولا نقليا، لم يكن نقليًا لأن النصوص التـي أولوها لا يأخذون فيها بالمعنى الظاهر للألفاظ مثل المحدثين الآخرين، ولـم يكـن عقليًا لأنهم بقدر ما هو مذكور من أدلة عقلية في كتبهم فإنهم لم يلتزمـوا التزامـا كاملاً بمعايير المنطق والفلسفة.

وفي الكتاب الثاني أثبت أولاً خطأ معتقدات الأشاعرة والمعتزلة والباطنيـة ومنهج استدلالهم ثم بين حقيقة المعاد، والعدل والظلم، والقـضاء والقـدر، وبعـث الأنبياء، وحدوث العالم، وصفات الباري، والتوحيد، وإثبات وجود الله، وقدم الدلائل العقلية والنقلية عليها.

وهذه الرسالة رغم أنها غير جامعة لكنها تتميز بأنها حازت قصب السبق على جميع المؤلفات والكتابات القديمة، وبناءً على هذا يمكن أن نطلق على ابن رشد أنه مبدع ومخترع.

كان المنهج العام في علم الكلام هو أن يقدم الاستدلال الأصلي على مسائل العقائد وكان هذا من اختراعهم، على عكس هذا فإن الدلائل التي أقامها ابن رشد على المسائل المذكورة آنفًا استنبطها جميعًا من القرآن، لقد ادعى ابن رشد وأثبت دعواه أن دلائل القرآن الكريم مثلما هي خطابية وإقناعية أي يقتنع بها عامة الناس هي أيضا قياسية وبرهانية أي أنها غير متطابقة تمامًا مع أصول ومعايير المنطق، وسأذكر تلك الدلائل في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

والمسائل التي خالف فيها ابن رشد جمهور الأشاعرة كان من بينها معجزة دليل النبوة، وكان جميع الأشاعرة يسلمون بأن المعجزة دليل على صحة النبوة، وابن رشد في الأصل لا ينكر المعجزة لكنه لا يقبل بالأسباب التي يمكن على أساسها الاستدلال بالنبوة، ويقول: إن هذا الاستدلال مكون من مقدمتين:

١- الصغرى وهي المعجزة الصادرة عن شخص ما.

٢- الكبرى وهي المعجزة الصادرة عن شخص يكون نبيًا.

وهاتان المقدمتان تتطلبان البحث والدقيق، أولاً: لكي يثبت كيف ظهر هذا الأمر الخارق للعادة إلى حيز الوجود وأنه لم يكن نتيجة أي طبيعة خاصة أو صناعة.

ثانيًا: إثبات المقدمة رهن لهذا الأمر أولاً وهو أن يثبت وجود النبوة والرسالة لأن الشخص الذي لم يدَّعِ النبوة مطلقا أنى له أن يُسلم بهذه المقدمة؟ وعندما يُسلم بوجود النبوة فكيف يمكن أن نثبت أن المعجزة صادرة عن نبي؟ ربما يقال إن التجربة والعادة شاهدة عليها أي أن المعجزة عندما صدرت فإنها

تكون قد صدرت عن الأنبياء منذ البداية وحتى اليوم، ولكن هذا الدليل في هذه الحالة سيفيد الأنبياء السابقين فقط، بادئ ذي بدء كيف تتأكد من نبوة النبي المبعوث؟ وكيف يتأتى للناس أنه لم يبعث نبي قبله؟ ولا صدرت عنه أي معجزة؟ وكيف يعلم الناس أن الذين صدرت عنهم معجزات أنبياء؟ إضافة إلى ذلك فإن الأشاعرة يسلمون بأنه فيما عدا الأنبياء يمكن أن تصدر جميع أنواع خرق العادة من الآخرين، فلو يُعتقد في هذا فماذا تبقى من خصوصيات النبوة؟ يقول الأشاعرة أن هناك فرقًا بين المعجزة وخرق العادات الأخرى، لأن المعجزة تصدر فقط عن ذلك الشخص الذي يدعى النبوة، ويكون نبيًا حقًا، ولو أن هناك شخصًا آخر ليس نبيًا في الحقيقة ويدعى النبوة فلن تصدر عنه معجزة، لكن هذا فرق عجيب عندما نقبل بأنه يمكن أن تبدر عن الآخرين جميع أنواع خرق العادات، فمن ذا الذي سيقبل بهذه التفرقة لأن خرق العادة يقتنع بها كل شخص ماعدا ذلك الشخص الذي يدعى النبوة كذبًا.

هذا هو جوهر رأي ابن رشد وخلاصة أفكاره، ولكن في رأيي أن اعتراض ابن رشد هذا ليس صحيحًا، فقد صرح الأشاعرة بوضوح أن دلالة المعجزة ليست عقليًا بل عادة وهكذا فقد أفرد لها عنوانا خاصًا في "شرح المواقف" وفي هذه الحالة لو اعترض ابن رشد على اللزوم العقلي فلن يكون هناك أي اعتراض على الأشاعرة، فالأشاعرة يقولون هذا فقط: عندما تصدر المعجزة يتيقن الناس من النبوة ومن ذا الذي يمكنه إنكارها.

على الرغم من أن الحكومة الدينية للأشاعرة خيمت على الدنيا لكن الحنابلة ظلوا[1] معارضين لهم دائمًا، وكان الحنابلة من أهل الظاهر، وظل هذا الفرق بينهما، وكان الأشاعرة يأولون تلك النصوص القرآنية التي يثبت منها في الظاهر

---

(١) هذه الفرقة التي كان الإمام أحمد بن حنبل إمامًا لها.

أن الله له جهة وجسم أما الحنابلة فلم يستسيغوا هذا الأمر، ووصل استياؤهم إلى حد أن كلا الفريقين قد وصل به العراك إلى حد القتل والدماء، وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه هذا النوع من الأحداث بالتفصيل.

مع أن الأشاعرة على حق في هذه المسألة الخاصة، لكنهم أقاموا دعائم خصومتهم على نتيجة رئيسية، وقد تضاعفت قوة الأشاعرة إلى هذا القدر الذي لم يبق هناك من يتجرأ على مخالفتهم في الدنيا كلها، وكان المعتزلة قد خضعوا لهم تماما، ومع أن المحدثين ظلوا لفترة من الوقت يتجنبون الأشاعرة تماما لكنهم في النهاية أخذوا يتحدثون بلغة واحدة تدريجيًا، أو على الأقل كانوا لا يعارضونهم علانية والحنابلة فقط ظلوا قائمين على مخالفتهم، ولا شك أن الحنبالة كانوا قلما يمسون عقائد الأشاعرة والتي كانت في الواقع جديرة بالاعتراض، وقد سنحت لهم الفرصة الآن، وقد جعلت الفلسفة والمنطق محفل المحدثين والفقهاء يحتدم بسبب الإمام الغزالي، وقد أنجبت هذه الجماعة المباركة كبار العلماء والفلاسفة حتى ولد العلامة ابن تيمية في القرن السابع وكان من أساطين المحدثين والمناطقة، وقد نبغ في علم الكلام وألقى بنظره الثاقب المحقق على المناهج الرائحة والمتداولة آنذاك في علم الكلام، ووقع نظره على تلك المسائل التي اهتم بها الأشاعرة في علم الكلام والتي لم يكن أحد قد تعرض لها بالنقد حتى الآن، مع أن هذه المسائل كانت في الأصل جديرة بالانتقاد، وهكذا قام ابن تيمية بنقد جميع تلك المسائل بجرأة وحرية.

ابن تيميـــــة:

واسمه أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، ولد في حران إحدى مدن الشام في ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١هـ وانتهى من تحصيل العلوم الأساسية وهو في الحادية عشرة من عمره ونال كفاءته العلمية وهو في السابعة عشر من عمره

لدرجة أن الناس بدأوا يستفتونه، وبدأ التأليف والتصنيف منذ ذلك الوقت وكانت رصانة الكتب التي ألفها قد حيرت جميع علماء عصره، وكُلف بالتدريس وهو في الواحد والعشرين من عمره.

وعلى الرغم من أن علمه وفضله لا يمكن أن ينكره أحد إلا أنه كان في طبعه بون شاسع بين الاعتدال والحرية لهذا خالفه جماعة كبيرة من العلماء لدرجة أنهم قدموا ضده الشكاوي في البلاط الملكي وأصدروا فتوى بقتله، وبناءً عليها استدعوه في البلاط، ولكن لأنه لم يكن يكترث قط بالجاه والحشم الملكي فأجرى حوارًا بجرأة وحرية وظل متمسكًا بآرائه، وفي النهاية نفوه من وطنه الشام إلى مصر ووضع في السجن وأطلق سراحه بعد عدة أيام، وفي سنة ٦٩٩هـ عندما ولى التتار وجوههم شطر الشام كشف العلامة ابن تيمية نبوغه في الوعظ والجهاد وتشجع أمراء وسلاطين الإسلام بسبب شجاعته وصموده وتحريضه للناس بالتصدي للتتار وسافر ابن تيمية إلى مصر من أجل هذه المعركة وظل منهمكًا في هذا الجهد والسعي لعدة سنوات متصلة حتى أنه شارك بنفسه في المعركة وفي سنة ٧٠٤هـ نال النصر.

ومع أنه أرسى دعائم المواساة والاستقامة الإسلامية لكن لأنه يعارض الرأي العام في بعض مسائله فقد غضب كثير من العلماء ولجؤوا للبلاط الملكي وانعقدت جلسة مهيبة للحكم في أمره شارك فيها نائب المملكة بنفسه، وعلى الرغم من أنه انتصر في المناظرة إلا أن السخط العام انتشر إلى حد أنه مُنع من إبداء رأيه بحرية. فلم يكف عن إبداء رأيه فسجنوه، وظل في سجنه عدة مرات، ولكنه في آخر مرة سُجن فيها ظلت عملية التأليف مستمرة في سجنه الضيق وفي النهاية منعوا عنه القلم والدواة وجميع الأشياء فاضطر أن يبدأ في العبادة ليل نهار حتى مرض وظل مريضًا لمدة عشرين يومًا وتوفي في ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ.

ومع سماع خبر وفاته تدفق جموع الناس من كل صوب وحدب بأعداد لا تحصى إلى القلعة التي سجن بها، وكان هناك أعداد غفيرة من الناس وحضر جنازته مالا يقل عن مائتي ألف رجل وأغلقت جميع حوانيت المدينة وكان الناس من حماس العقيدة يقذفون بأرديتهم ومناديلهم من بعيد فكانت تلامس جثته طلبًا للتبرك.

إن سيرة حياته ممتعة للغاية ومليئة بالإخلاص وقول الحق والشجاعة والحرية المثيرة للحيرة والتي نادرًا ما نجد أمثلة عليها في الدنيا ولكن ليس هذا مجال تفصيلها، وقد ألف ابن رجب سيرة ذاتية مفصلة عنه تقع في مجلدين ونجد تذكرة له بقدر من التفصيل أيضا في طبقات الحفاظ وذيل ابن خلكان وغيرهما، ويمكن للقراء الرجوع إليها، ونهدف هنا إلى التذكير بأعماله ومآثره العلمية فقط.

كان ذكاء العلامة بن تيمية وقوة ذاكرته، وتبحره العلمي وسعة نظره في الحقيقة فوق الفطرة، ولم يكن تأليفه اليومي لا يقل عن أربعين صفحة في المتوسط، وما كان يؤلفه كان يحتوي على ذوق المجتهد، وعدد مؤلفاته حوالي خمسمائة مؤلف وأكثرها مؤلفات ضخمة وتحتوي على عدة مجلدات وعندما كان الإمام الذهبي - وهو من كبار المحدثين، ومعاصرًا لابن تيمية - يذكره في مؤلفاته كانت تتملكه الدهشة والحيرة من تأثير إبداعاته العلمية.

ألف العلامة ابن تيمية كتبًا كثيرة جدا في علم الكلام ونتعرف على موضوعات تلك الكتب من أسماء بعض العناوين وهي: الاعتراضات المصرية في أربع مجلدات في الرد على تأسيس التقديس للرازي، شرح المحصل، شرح الأربعين للإمام الرازي في تعارض العقل والنقل في مجلدين، الرد على النصارى في أربع مجلدات، الرد على الفلسفة في أربع مجلدات، وإثبات المعاد، وثبوت النبوات، والمعجزات والكرامات عقلاً ونقلاً، والرد على المنطق.

ذكرنا هنا أسماء بعض الكتب فقط، وقد ذكر في "فوات الوفيـات" فهرسًـا كاملاً لكتبه في علم الكلام، ومن بين تلك المؤلفات كتاب الرد على المنطق تنـاول فيه الاعتراضات على منطق أرسطو، وكتاب الرد على الفلسفة فقـد دار حولهمـا جدلاً واسعًا، وكتابه الرد على المنطق موجود عندي وسوف أستشهد فـي بعـض المواضع بتحقيقاته.

كان علم الكلام يسير على حالة واحدة منذ فترة، وكان يحتوي على عشرات المسائل الخاطئة التي كان يسلم بها على سبيل الأصول الموضوعة، ولم يكـن أي شخص يستطيع أن يتجرأ بالنقاش حولها إلا أن العلامة ابن تيمية خالفها على الملأ بحرية وشجاعة منقطعة النظير، وأعلن أن الشيء الذي يعتبره المتكلمـون مؤيـدًا للدين هـو في الحقيقـة يلحق بالدين المزيد من الضـرر، يقول في كتابـه الـرد على المنطق:

> "وإمكان رؤيته تعلم بالدلائل العقلية القاطعة لكن ليس هو الدليل الذي سلكه طائفة من أهل الكلام كـأبي الحسن وأمثاله حيث ادعوا أن كل موجود يمكن رؤيته بل قالوا ويمكن أن يتعلق به الحواس الخمس فإن هذا مما يعلم فساده بالضرورة، وهذا من أغاليط بعض المتكلمين كغلطهم في قولهم إن الأعراض يمتنع بقاؤها وإن الأجسام متماثلة وأنها مركبة مـن الجـواهر المفردة، وكذلك غلط من غلط المتكلمين، وادعى أن الله لم يخلق شيئًا بسبب ولا حكمة ولا خص شيئًا من الأجـسام بقـوى وطبائع، وادعى أن كل ما يحدث فإن الفاعل المختار الذي يخص أحد المتماثلين بلا تخصيص يحدثه، وأنكر ما في مخلوقات الله وما في شرعه من الحكم التي خلق وأمر لأجلها فإن غلط هؤلاء مما سلط أولئك المتفلسفة وظنوا أن ما يقوله هؤلاء وأمثالهم هـو دين المسلمين وقول الرسول وأصحابه".

رغم أن العلامة ابن تيمية كان متعصبًا متقشفًا وعدوا سافرًا للفلسفة إلا أنه لم يلتزم بالتقليد وكان يميز الحق والباطل ولهذا يقول رأيه بعدل وإنصاف في كل مكان في مقابل المتكلمين والفلاسفة. يقول في أحد المواضع:

"وأما فيما يقولونه في العلوم الطبيعية والرياضية فقد يكون صواب المتفلسفة أكثر من صواب من يرد عليهم من أهل الكلام فإن أكثر كلام أهل الكلام في هذه الأمور بلا علم ولا عقل ولا شرع".

وأكثر الناس يعتقدون ولازالوا حتى اليوم أن عقائد الأشاعرة مع أنها لم تكن محكمة ومتينة من حيث الدلائل العقلية، لكن كانت هذه عقائد أكابر السالف، وقد كشف العلامة ابن تيمية هذا الخطأ في أكثر من مكان، مثلاً ساد الاعتقاد أن الناس في القرون الأولى لم يقولوا بالحسن والقبح العقلي، وبناءً على هذا لا يعتبرون أنه من الضروري أن تكون الأحكام الشرعية مبنية على المصالح العقلية، لكن العلامة ابن تيمية يقول: "إن جميع كبار السلف كانوا يقولون بالحسن والقبح، وكان الإمام أبو الحسن الأشعري أول من أنكرها وهو مبدع هذه الفكرة" وهكذا يكتب بعد بحث مفصل عليها:

"بل هؤلاء ذكروا أن نفي ذلك هو من البدع التي حدثت في الإسلام في زمن أبي الحسن الأشعري لما ناظر المعتزلة في القدر".

وكان العلامة ابن تيمية - كما ذكر المقريزي في تاريخ مصر - قد أراد تأسيس نموذج كامل للعقائد الإسلامية بعد أن يطهرها من الحشو والزوائد مثلما كانت في القرون الأولى، ولكن نشأ هذا القدر من الغضب والسخط بين أوساط الناس بسبب

حقد بعض الفقهاء وحسدهم وحدة خطاب العلامة ابن تيمية نفسه، وقد عاش العلامة ابن تيمية في السجن لفترة وقد أثرت عليه فخمدت حدته، ومع ذلك قلده تلاميذه ابن القيم وغيره، ولو أنه لم يستطع أن يؤدي أي خدمة مفيدة تتعلق بعلم الكلام إلا أنه قود بقوة قلمه دعائم وأسس آلاف البدع التي كانت سائدة منذ فترة.

شاه ولي الله الدهلوي:

بعد ابن رشد وابن تيمية بل حتى في عصرهما بدأ الانحطاط الفكري لدى المسلمين، ومن هذه الناحية لم يلح في الأفق أي بارقة أمل في ظهور أي مفكر وعالم، ولكن القدر أدهشنا بأعاجيبه عندما بزغ نجم عالم مثل شاه ولي الله في آخر ذلك العهد، وقد ذهب رواء وبهاء أعمال الغزالي والرازي وابن رشد أمام إبداعاته.

ولد شاه ولي الله يوم الأربعاء الرابع من شوال سنة ١٢١٤هـ في دهلي، واسمه التاريخي عظيم الدين وجلس في الكُتّاب في الخامسة وبدأ الصلاة في السابعة من عمره وأجريت له عملية الختان في نفس السنة، وختم القرآن في نهاية السنة نفسها، وبدأ في تعلم اللغة الفارسية، ووصل في سن العاشرة إلى دراسة شرح الملا، وتزوج في الرابعة عشرة من عمره على الرغم من أن سن الزواج لم يكن موافقًا لتلك العادة لكن والد شاه ولي الله خالف العادة لحكمة ما، وفي سن الخامسة عشر بايع على يد والده الطريقة النقشبندية وفي هذه السنة انتهى من الكتب الدراسية وأذن له والده عبدالرحيم بالتدريس وأقام حفلاً كبيرًا بهذه المناسبة وأعد مائدة عامرة بجميع أنواع الأطعمة.

وكانت المناهج الدراسية التي درسها شاه ولي الله هي:

١- الفقه: شرح الوقاية والهداية كاملين.

٢- أصول الفقه الحسامي والتوضيح والتلويح.

٣- المنطق: القطبي ـ شرح المطالع.

٤- الكلام: شرح العقاد مع خيالي ـ شرح المواقف

٥- التصوف: العوارف والرسائل النقشنيدية وشرح رباعيات الملاجامي واللوائح ونقد النصوص.

٦- الطب: الموجز في الطب

٧- الفلسفة: الميبذي وغيره.

٨- النحو: الكافية وشرح الجامي.

٩- المعاني: المطول ـ مختصر المعاني.

١٠- الفلك والحساب: الكتب الأولية.

ظل شاه ولي الله منهمكًا في الدرس والتدريس لمدة اثنتي عشرة سنة بعد أن انتهى من دراسته، ثم قدم إلى الحرمين الشريفين، وتشرف بالحج سنة ١٢٤٣هـ وظل مقيما في الحرمين لمدة عامين تقريبًا وأكمل هناك دراسة الحديث على الشيخ طاهر والمحدثين الآخرين، وقد أفاد واستفاد من علماء الحرمين كثيرًا ثم عاد إلى الهند في رجب سنة ١٢٤٥ وتوفي سنة ١٢٧٦هـ[(١)]

لم يؤلف شاه ولي الله أي كتاب مستقل في علم الكلام، وبناءً على هذا فإنه من غير الملائم فيما يبدو عده ضمن زمرة المتكلمين، لكن كتابه "حجة الله البالغة" بين فيه أسرار الشريعة وحقائقها وهو في الحقيقة روح علم الكلام.

---

(١) هذه السيرة كاملة كتبها شاه ولي الله في رسالة مختصرة اسمها الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف..

مآثر شاه ولي الله في علم الكلام:

علم الكلام اسمه في الحقيقة يؤكد على علاقته بالدين الإسلامي وهو مُنزل من الله، والدين مركب من شيئين: العقائد والأحكام، وبقدر ما ألفت مؤلفات حتى عصر شاه ولي الله كانت كلها تتعلق بالعقائد فقط وهو الجزء الأول أما الجزء الثاني وهو الأحكام فلم يتطرق إليه أحد، فكان شاه ولي الله أول شخص ألف كتابا في هذا الموضوع وهو يذكر في مقدمته: "كما مُنح الرسول معجزة القرآن الذي لم يستطع العرب والعجم أن يأتوا بمثله، كذلك مُنح الشريعة وهي أيضا معجزة لأنه مثل هذه الشريعة كاملة الجوانب خارجة عن نطاق القدرة البشرية، ولهذا ألفت كثيرا من الكتب حول معجزة القرآن، ومن الضروري أن تؤلف الكتب المستقلة فيما يتعلق بهذه المعجزة.

ثم يقول: "إن أهل البدع يعترضون أكثر فيما يتعلق بالمسائل الإسلامية لأنها خلاف للعقل، فهم يقولون مثلاً: ما علاقة العقل بعذاب القبر والحساب والجسر والصراط والميزان؟ وما معنى وجوب صيام اليوم الأخير من رمضان، وغرة شوال حرام وما يتعلق بالترغيبات والترهيبات التي وردت في الشريعة كلها أمور جديرة بالسخرية، وخلاصة القول أن المعترضين يعترضون على كثير من هذا النوع، ومن الضروري أن نرد عليهم لنؤكد على أن جميع مقاصد الشريعة موافقة للعقل.[١]

لقد بين شاه ولي الله كلا الفرضين وأهم مقاصد علم الكلام ومن هذا الجانب قررنا أن كتابه في الأصل كتاب في علم الكلام.

---

(١) حجة الله البالغة: ١/٤١ (المترجم).

والقضايا الكلامية المهمة التي بحثها شاه ولي الله في كتابه حجة الله البالغة هي حسب مايلي:

١- لماذا خُلق الإنسان مكلفا أي لماذا كلف بالأوامر والنواهي.

٢- عادة الله وفطرته لا تتغير ولا تتبدل.

٣- حقيقة الروح.

٤- حقيقة الجزاء والعقاب.

٥- حقيقة أحداث القيامة.

٦- عالم المثال.

٧- حقيقة النبوة.

٨- جميع الأديان أصلها واحد.

٩- أسباب اختلاف الشرائع.

١٠- من الضروري وجود مثل هذا الدين الناسخ لجميع المذاهب القديمة.

وعالم المثال هو أعظم القضايا الفلسفية عند شاه ولي الله لهذا فإنه بادئ ذي بدء بدأ بها في كتابه حجة الله البالغة، وهناك كثير من الأحاديث تدل على هذا الأمر وهو أن هناك عالمًا آخر في عالم الموجودات ليس ماديًا ولا عنصريًا، والأشياء التي تظهر إلى حيز الوجود في عالم المحسوسات كان ظهورها أولاً في عالم المثال، ومع وجودها عالم المثال فإنها أشياء غير جسمانية، مع ذلك تتحرك وتصعد وتهبط ولكن عامة الناس لا يمكنهم رؤيتها.

مثلاً في الحديث أن سورة البقرة وسورة آل عمران ستأتيان على هيئة غيوم وسحب يوم القيامة، وفي أحد الأحاديث أن الأعمال ستحضر يوم القيامة، وستأتي الصلاة أولاً ثم تليها الصدقة ثم يليها الصوم.

وفي حديث ستأتي الأيام يوم القيامة بصورتها العادية والمعتادة لكن يوم الجمعة سيأتي مشرقًا وضاحًا.

وفي حديث آخر ستأتي الدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء.

وفي حديث المعراج أنني اطلعت على أربعة أنهر، اثنان منهما ظاهران، واثنان منهما مخفيان، والظاهران هما النيل والفرات.

ونقل كثير من الأحاديث من هذا النوع وجميعها من عالم المثال ومحسوبة عليه. وقد وسع شاه ولي الله نطاق العمل كثيرًا في هذا العالم، عندما رأت السيدة مريم سيدنا جبريل عليه السلام قادمًا من عند رسول الله ﷺ، لما تأتي الملائكة في القبر، الملائكة الذين يحضرون وقت الموت، الله سيتحدث إلى عباده يوم القيامة وكل هذا أدخله شاه ولي الله ضمن ذلك العالم، ثم يقول هذا النوع من الأحداث منقولة في الأحاديث استقر الرأي فيما يتعلق بها على ثلاثة آراء:

الأول أن تحمل على المعاني الظاهرية وسنقول في هذه الحالة بعالم المثال: وكما سلمنا أن أصول المحدثين لها موجبها ومقتضاها مثلما صرح السيوطي. والثاني لو لم يعتقد بعالم المثال سنقول أن هذه الأحداث تتضح هكذا لهذا الشخص ولو لم يكن في الخارج وهكذا فقد فسر عبدالله بن مسعود هذه الآية من القرآن: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فقال أصاب أحد العصور قحط ومجاعة وبسبب جوع الناس تراءت لهم السماء كأنها دخان، مع أن السماء في الحقيقة ليس بها دخان. يقول ابن الماجشون أن الأحاديث المتعلقة بمجيء الله تعالى ونزوله يوم القيامة معناها أن الناس سيشاهدون الله هكذا مع أن الله لن ينزل ولن يعتريه أي نوع من التغير. والاحتمال الثالث هو أن تلك الأحاديث والأحداث تشبيه واستعاره.

ويكتب شاه ولي الله بعد تلك الاحتمالات أن الشخص الذي يعتقد بالاحتمال الثالث فقط أنا لا أعتبره من أهل الحق.

شاه ولي الله إذن لا يجيز الاحتمال الثالث لكنه يقر الاحتمال الأول والثاني وأحدهما موافقًا لأصول أهل الحديث ولو سلمنا بعلماء الدين الآخرين فلن يبقى أي نوع من النزاع بين الفلسفة والدين.

إن ثروة علم الكلام التي كانت موجودة أيام شاه ولي الله كانت فقط من تأليف الأشاعرة المتأخرين، وكان شاه ولي الله قد تربى وتعلم وفقًا لهذه الطريقة، لكن تلك الأشياء لم تترك أي أثر على إبداعه وطبيعته الرقيقة، ورتب قضايا علم الكلام جذريًا وفقًا للقواعد والأصول الجديدة، أما المسائل المميزة لدى الأشاعرة فقد خالفها شاه ولي الله عمومًا، وبالنسبة للأوليات والاجتهادات المهمة لشاه ولي الله في علم الكلام سوف أدرج بعضها في هذا المكان.

كان أعظم عيوب علم الكلام شبهات المعارضين للقرآن الكريم والتي قلما كان يتصدى لها، ونجد في كتاب شرح المواقف وغيره الاعتراضات المتعلقة بالفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم؛ ولذا تعرضوا لها فقط مع أن اعتراضات المخالفين كانت تتعلق بالمعاني أكثر من الألفاظ ومذكور في كتب التفسير الكثير من هذه الاعتراضات، ولكن الإجابات التي ردت عليها لم تكن شافية، وقد أزال شاه ولي الله جميع تلك الاعتراضات بطريقة شيقة، مثلاً كان اعتراض أحد المخالفين أن الأمر الواحد يذكر في القرآن الكريم عشرات المرات، وكان المفسرون يردون عليه بأن الهدف من هذا إظهار القدرة على البلاغة لأن صياغة المعنى الواحد بأساليب مختلفة وعبارات متنوعة لدليل دامغ على النبوغ، لكن هذه الإجابة مجرد لغو لأن صياغة موضوع واحد بطرق مختلفة يمكن أن يؤديه أبو الفضل وظهوري وليس الله ذو الجلال.

يذكر شاه ولي الله سبب هذا التكرار فيقول: "وكذلك فإن المقصود هو استحضار صورة ذلك العلم في ذاكرته، حتى يتلذذ به كثيرًا وتفنى القوى القلبية والإدراكية في ذلك العلم، ويطغى لون هذا العلم على كافة القوى، مثلما يتكرر

المعنى الشعري الذي عرفناه وفي كل مرة نجد لذة ونحب تكراره من أجل هذه اللذة، والقرآن الكريم أراد نوعين من الإفادة بالنسبة لكل موضوع من موضوعات الفنون الخمسة وهما تعليم ما لا يُعلم به بالنسبة للجاهل وتلوين النفوس بتلك العلوم نتيجة تكرارها بالنسبة للعالم، فيما عدا غالبية مباحث الأحكام التي لم يحدث فيها التكرار لأن إفادتها الثانية لم تكن مطلوبة والفارق هنا أن تكرار تلك الوسائل قد ورد في أغلب الأحيان بعبارات وأدوات جديدة، كي تكون أوقع في النفوس وأكثر ثباتًا في الأذهان".

وفي العصر الحاضر هناك اعتراض كبير وطعن للقرآن الكريم أنه ليس فيه أي نوع من الترتيب والنظام حيث يبدأ في موضوع ولم يكن قد اكتمل بعد فيبدأ في الموضوع الثاني، فيبين مسائل الفرائض ويرد في وسطها ذكر صلاة العصر، ويهيئ المعلومات لما يتعلق بموضوع ما وتوزع على أماكن صغيرة مختلفة.

لم يجب أحدٌ من القدماء على هذا الاعتراض ولم يتعرض لهذا الطعن نفسه مع أن في العصر الحاضر يعتقد أنه اعتراض مشكل. وكارلايل الذي كان يحمل أفكارًا عظيمة خاصة بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وينظر بعين العدل والإنصاف إلى جميع تعاليم الإسلام ذُهل لتباين الموضوعات هذا في القرآن الكريم ولم يستطع أن يأولها بأي تأويل. وقد تعرض شاه ولي الله لهذا الطعن وأجاب عليه إجابة مقنعة. يقول: "إذا سُئل لماذا ورد هذا الموضوع في سور القرآن ولم يراع الترتيب، أقول: برغم أن القدرة تشمل كافة الممكنات إلا أن الحكم والفيصل في هذه الأبواب هي الحكمة، فالحكمة هي موافقة المبعوث إليهم في اللسان وفي أسلوب البيان".

والترتيب الذي اخترعه المؤلفون الآن لم يكن يعرفه العرب، وإذا لم تصدق هذا فتأمل قصائد الشعراء المخضرمين، والمقصود أيضا ليس مجرد الإفادة بل الإفادة مع الاستحضار والتكرار".

خلاصة هذا التقرير أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، والعرب هم المخاطب الأول ولهذا كان من الضروري أن يراعى أسلوب العرب في أسلوب بيانه، وكان العرب القدماء يوجد لديهم هذا القدر من النظم والنثر، وكان هذا أسلوب الجميع فهم لا يتناولون الموضوعات في مكان واحد، بل يتحدثون عن موضوع ولا يكملونه ثم يطرقون موضوعًا آخر ثم يبدءون في الموضوع الأول ثم يشرعون في الموضوع الثاني علاوة على ذلك فإن أعظم مقاصد القرآن الكريم هو موضوعات التوجه إلى الله والإخلاص والعبادة فيردونها مرارًا وتكرارًا حتى تطرأ على المخاطب حالة يرى فيها أنه لم يكن من الممكن لهذا النوع من التكرار أن يكون مرتبًا.

وفيما يتعلق بالقرآن الكريم هناك بحث مهم حيث يبدو أكثر من موضع فيه مخالفًا لقواعد النحو، وأخذ المفسرون يأولون تلك المواضع تأويلات عجيبة ليثبتوا تطابق القرآن الكريم مع الكتب النحوية الموجودة، وقد حل شاه ولي الله هذه المعضلة هكذا: "وتحقق هذه الكلمة عندي هي أنها تخالف اللغة اليومية الشائعة، فقد كان العرب الأوائل يستخدمون أثناء الخطب تعبيرات كثيرة كانت تنطق خلافًا للقاعدة المعروفة، ومادام القرآن قد نزل بلغة العرب الأوائل فما العجب إذن إذا جاءت الياء أحيانًا مكان الواو، أو المفرد مكان المثنى، أو المؤنث مكان المذكر".

وهناك موضوع مهم مرتبط بالقرآن الكريم تركه جميع القدماء وتطرق إليه شاه ولي الله وهو أن جميع الناس كانوا يعتبرون أن القرآن الكريم معجز من حيث البلاغة والفصاحة فقط ولم يرد إلى ذهن أحد منهم أن أعظم معجزة للقرآن الكريم هي الحقائق المذكورة في القرآن الكريم مثل المعاد والرسالة والتوحيد وتزكية النفس والأخلاق وهي خارجة عن نطاق مقدرة الطاقة البشرية، وقد بين شاه ولي الله أسباب أعجاز القرآن كما يلي:

"وعلى سبيل المثال المعنى الـذي لا يتيـسر فهمـه إلا للمتدربين في أسرار الشرائع وهو أن هذه العلوم الخمسة نفسها دليل على وجود القرآن النازل من الله من أجل هداية البـشر، فمثلاً عندما ينظر عالم الطب في كتاب "القانون" ويرى مـدى جهله في بيان أسباب وأعراض الأمراض ووصف الأدويـة، فإنه لا يشك أبدًا في أن مؤلفه كامل في فن الطـب، وكـذلك عندما يعرف عالم أسرار الشرائع أي الأشياء يمكن غرسـها في بني البشر من أجل تهذيب النفوس، ويتأمل في الفنون الخمـسة بعد ذلك، فإنه يدرك بدون شك أن هذه الفنـون تتجلـى في معانيها بحيث لا يمكن أن تكون هناك صورة أفضل من ذلك".

طلعت الشمس والشمس هي الدليل ∴ فإذا كان لابد لك من دليل فلا تعرض عنها

فلاسفة الإسلام

يبدو أن ذكر فلاسفة الإسلام عند الحديث عن المتكلمين أمر غير مناسب؛ لأنه بناءً على ما شاع واشتهر من أن المتكلمين والحكماء فرقتان مخالفتان ولكنهما في الواقع ليسا هكذا، ولاشك أن كلمة فلاسفة يمكن أن تكون تأييدا للقب متعلمين وقد نال كل من الإمام الغزالي وابن رشد لقب فلاسفة الإسلام، وهذان العالمان نفساهما في طليعة علماء الكلام.

وللأسف أن مؤرخينا وكتاب التذاكر عندنا لم يؤلفوا أي كتاب بعنوان فلاسفة الإسلام يمكننا من خلالها أن نجد أسماءهم في مكان واحد، لكن لا غرو أن الإسلام فيه جماعة خاصة بهذا الاسم، وقد نقل الإمام الرازي أقوال هؤلاء الفلاسفة في كثير من المواضع بهذا اللقب خاصة في كتابه التفسير الكبير فيذكر في أحد المواضع" احتج حكماء الإسلام بهذه الآية".[١] وفي موقع آخر يقول: "المقام الثاني وهو قول حكماء الإسلام".[٢] ويكتب في موضوع ثالث "وهو أن جماعة من حكماء الإسلام".[٣] وكان يستعمل كلمة حكماء فقط في أكثر المواضع ويقصد من هذا حكماء الإسلام لأن القول الذي ينسبونه إليهم يتعلق بالقرآن الكريم، وهذا على ما يبدو من أقوال فلاسفة اليونان ولا علاقة له بالقرآن الكريم.

والأقوال التي نقلها الإمام الرازي عن حكماء الإسلام في التفسير الكبير يتضح من استقرائها أن الهدف الخاص لهذه الجماعة هو تطبيق الشريعة والفلسفة،

---

(١) التفسير الكبير: "اللذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.

(٢) التفسير الكبير: سورة الرعد. آية " له معقبات من بين يديه".

(٣) التفسير الكبير: "سورة إبراهيم. آية "قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم".

وننقل هنا رأي حكماء الإسلام في البحث عن حقيقة حساب يوم القيامة في تفسير سورة الأنعام يقول في النهاية: "فيذه أقوال ذكرت في تطبيق الحكمة النبوية على الحكمة الفلسفية" ويوجد هذا النوع من التصريح في مقامات أخرى.

بادئ ذي بدء فإن أول من ألف في هذا الموضوع غالبًا هو يعقوب الكندي وهو في طليعة حكماء الإسلام، وكان معاصرًا للمأمون الرشيد ولكن لم نستطع كتابة أي موضوع يتعلق به لأن مؤلفاته مفقودة هذه الأيام.

أبو نصر الفارابي:

يأتي بعده الفيلسوف أبو نصر الفارابي المتوفي سنة ٣٣٩ وقد كتب موضوعات متفرقة في تطبيق الفلسفة والشريعة وخلاصتها حسب ما يلي:

١- الإنسان اسم مكون من شيئين، الروح والجسد، والروح لا شكل ولا صورة لها، ولا ذو جهة ولا ذو إشارة، ولاشك أن الجسم يتصف بجميع تلك الأوصاف، ويعبرون في الشرع عن مصطلح الروحانيات والجسمانيات بالأمر والخلق وقد ورد في القرآن الكريم:﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ والمقصود من هذا نفسه (وقد فسر الإمام الغزالي الخلق والأمر أيضا).

٢- الشخص الذي يحصل على القوة القدسية من الروح يكون نبيًا وهكذا يحكم العالم السفلي للأرواح عامة وتحصل القوة القدسية على حكم العالم العلوي ومن آثار ذلك تصدر معجزات فوق العادة عن النبي، وما هو مكتوب في اللوح المحفظوظ (أي علم الباري) منقوش في الأرواح القدسية.

٣- من أحوال الروح العادية عندما تتجه نحو الباطن يختفي أمامها الظاهر ويتجه الظاهر ناحيتها فتحصل النشوة من ناحية الباطن لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال منع أي شيء من روح القدس.

٤- الملائكة اسم لصور علمية قائمة بذات نفسها، ووجدها قسمان: حقيقي وهو الذي يدخل في الروحانيات ويدركها فقط صاحب القوة القدسية، وفي وقت الإدراك يتوجه صاحب القوة القدسية فوق الحس الظاهري والباطني وتبدو الملائكة آنذاك في صورة مجسمة، وفي هذه الحالة يسمع صاحب القوة القدسية صوتها، وهذا الصوت هو الوحي، ولكن هذه الصورة وهذا الصوت كلاهما من الأشياء الإضافية. ومعنى الوحي الحقيقي هو أن الملائكة تتصل بالروح مباشرة، وتلقى الملائكة بأشعها على الروح مثلما هو في حالة اتصال الشمس بالماء، ويشعر صاحب القوة القدسية بالصوت والصورة المثالية للملائكة، وفي هذه الحالة يقع العبء على كلا الجانبين الظاهري والباطني، ولهذا تطرأ عليه حالة من فقدان الوعي والصواب.

٥- ليس المقصود باللوح والقلم الآلات الجسمانية، بل المراد منها الملائكة الروحانية، والهدف من الكتابة هو تصوير الحقائق، والقلم يأخذ المعاني من عالم الأمر، وتنقش تلك المعاني على اللوح عن طريق الكتابة الروحانية، وما يظهر إلى حيز الوجود من اللوح والقلم اسمه القضاء والقدر.

٦- من كمال النفس المطمئنة أنها توقن بالذات الإلهية، وهذه هي اللذة القصوى للروح(١)

---

(١) نقلاً عن فصوص الفارابي..

ابن سينـــــــــا:

بعد الفارابي أضاف أبو علي سينا إلى هذا الموضوع وكتب تفسيرًا لـــبعض سور القرآن الكريم بذوق فلسفي، وكتب موضوعات قيمة للغاية عن النبوة والمعاد وخلق الشر وتأثر الدعاء وفرض العبادات وغيرها في كتابية الــشفاء والإشـــارات وأثبت تلك الموضوعات بالدلائل العقلية.

وهذا الأمر جدير بالذكر في هذا المكان بــشكل خـــاص، وهـــو أن الإمـــام الغزالي قال: إن ابن سينا كافر لأنه لم يقل بالمعاد الجسماني، ولكن بصرف النظر عن إنكاره لمعاد الجسد لا يتوجب عليه الكفر من عدمه، ومن الأمور الطريفة أن ابن سينا يعترف بشكل صريح بالمعاد الجسماني وفيمـــا يتعلـــق بالمعـــاد الجسماني يذكر في الهيات الشفاء. "وقد بسطت الشريعة الحقة التي أتانا بهـــا نبينا وسيدنا ومولانا محمد ﷺ حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن".

وحل ابن سينا أعقد عقد الشريعة، وبحث في المعجزات وخرق العادات، ولم ينقل عن فلاسفة اليونان أي نوع من الإقرار أو الإنكار فيما يتعلـــق بـــالمعجزات، وهكذا فقد صرح العلامة ابن رشد بوضوح في "تهافت التهافت" وكتب: "أما الكلام في المعجزات فليس فيه لقدماء من الفلاسفة قول". لكن العلماء الطبيعيـــين الـــذين يطلق عليهم اليوم لقب طبيعيين أو ماديين ينكرون بوضوح خرق العـــادة، وكـــان أرباب المذهب يؤمنون بخرق العادة ولكن لأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بدليل علـــى ذلك كان يظن أن اعتقادهم اعتقاد تقليد وعامي، وابن سينا هو أول شـــخص أثبـــت خرق العادة بالأصول الفلسفية. يكتب العلامة ابن رشد في التهافة:

> **"وأما ما حكاه في إثبات ذلك عن الفلاسفة فهو قول لا أعلم أحدًا قال به إلا ابن سينا".**

وقد أفرد ابن سينا عنوانًا خاصًا بهذا البحث في الإشارات، وأثبت أن هذا ممكنا بالأصول العقلية أن أي موهوب يضرب عن الطعام لفترة من الوقت أو يخبرنا بالغيب، أو يهبط المطر بالدعاء، أو تصل إلى مسامعه أصوات الغيب، أو يرى الصور غير المحسوسة وغيرها وسيرد ذكر تلك الأمور التي أثبتها في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

علم الكلام عند ابن مسكويه:

ولد في ذلك العصر أحمد بن مسكويه المتوفي سنة ٤٢١هـ الذي ألف كتابًا خاصًا مازج فيه بين الفلسفة والشريعة، وكان ماهرًا في العلوم الفلسفية، ولا يدانيه أحد في اطلاعه ومعرفته بالفلسفة اليونانية سوى الفارابي وابن رشد ومن مؤلفاته تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم وهو مؤلف تاريخي طبع في أوربا.

وقد ألف كتابين في التوفيق بين الفلسفة والشريعة هما الفوز الأصغر والفوز الأكبر وطبع الكتاب الأول في بيروت واطلعت عليه وتناول في هذا الكتاب أهم ثلاث مسائل هي: وجود الباري وصفات الباري، وحقيقة الروح وخواصها، والنبوة، وأسلوب بيان هذا الكتاب خلافًا لابن سينا واضح وفصيح وسهل، وهو أسلوب ابن مسكويه عامة.

ولأن هذا الكتاب جامع ومانع ومختصر لهذا ننقل في هذا المكان مباحثه الضرورية.(١) وجود الباري – هذه المسألة سهلة وصعبة في نفس الوقت، ومثال على ذلك الشمس مضيئة جدًا لكن ضياءها هو سبب وجودها بحيث لا يمكن النظر إليها، ويعجز الخفاش عن رؤيتها، هذه العلاقة هي نفسها مع الله والعقل الإنساني.

---

(١) لن تكون ترجمة حرفية بل أتناول معانيها بتصرف.

إن بداية إدراك الإنسان تبدأ بالحواس الخمس فيحس الأشياء بالبصر والسمع والتذوق والشم واللمس، ويظل مقيدًا في البداية بالحس أي مادام يوجد أمامه أي شي مادي فإنه يدركه ثم يتطور بهذا القدر فتصبح صورة هذا الشيء مستقرة في مخيلته وهي أولى درجات التجرد من المادة، ثم تؤسس الكليات من الجزئيات، ومع أن الكليات أكبر من المادة لكن لأن الكليات تتولد من الجزئيات، وعلم الجزئيات يكون عن طريق الحواس فقط لهذا تتوسل الحواث ثم تبقى وتستقر.

خلاصة القول لأن توسل الحواس ينشأ مصاحبًا للفطرة ويظل باقيًا طوال العمر؛ لهذا فإن تعقل أي شيء مثل هذا مجرد محض، ومن الصعوبة بمكان أن تظهر وسيلة الحواس في مكان ما في إدراكه، وهو نفس السبب لأن الإنسان يستطيع بصعوبة بالغة إدراك الله تعالى لأن الله مجرد محض لا علاقة له بأي نوع من الحواس، وأرباب النظر يكرسون جهودهم لهذا الأمر ويتخيلون تلك الأشياء فقط، ويفصلون الإدراكات عن الحواس والتي هي أكبر من المادة، وتنشأ حالة تدريجية من ممارسة ومزاولة تصور المعقولات مثل الروح والعقول والكليات، لأنه تصور مجرد محض يصل إلى حد الإمكان ثم يتطور ليصبح يقينًا مؤكدًا.

وهناك بون شاسع بين الجزئيات والكليات لأن الجزئيات تبذل كل حين، ولهذا السبب يظل علمها يتغير في كل وقت، فمثلاً الشخص الجالس أمامنا فيما يبدو ولو لم يتراء لنا متغير لكن أجزاء جسمة تفنى كل وقت وتتشكل أجزاء جديدة بدلاً منها ويُعبر عنها بمصطلح بدل ما يتحلل، وبناءً على هذا فإن علم الجزئيات ليس له أسس راسخة ومستقلة، بل تتغير في كل لحظة على العكس من ذلك الكليات لا تتغير ولا تتبدل، والتقلب في حالة زيد وبكر وعمر لا يعد تحولاً في حقيقة نفس الإنسان، وهكذا فالشيء الذي برأت ذمته من التغير والتبدل بقدر ما يبرأ من المادة بنفس القدر، وبناء على هذا فإن إدراكه يبرأ من التغير والتبدل ومن ثم فعلم الكليات أسمى وأشرف وأرسخ من علم الجزئيات.

يثبت من تلك المقدمات أن إدراك الله يكون على قدر الطاقة البشرية ويختص به أولئك الذين يرتبطون بالمعقولات بعد أن يطوروا المحسوسات ويستعملوها بهذا القدر في التفكير والتدبر ولا حاجة لتوسل المادة والحواس من أجل تصور أشيائه.

إثبات وجود الله – من المسلم به أن جميع الأجسام يتوفر فيها نوع ما من الحركة، ولا نقصد من الحركة الانتقال المكاني فقط، بل إن كل نوع من التغير اسمه حركة، فالجسم مثلاً إما يزيد أو ينقص أو يظل قائما على مكانته ونشعر بالتغير علانية في الحالتين الأولى والثانية، والحالة الثالثة لا تخلو أيضا من التغير في الحقيقة، لأن الأجزاء القديمة تفنى وتحل محلها أجزاء جديدة وهذا دليل القضية الأولى.

والقضية الثانية هي أن الشيء الذي يتحرك من الضروري أن يكون له محرك لأنه لو لم يكن له أي محرك خارجي فيبقى هناك احتمال فقط أن ذات هذا الشيء نفسه هي المحرك وهذا ليس صحيحا، مثلاً من الطبيعي أن الإنسان متحرك بالإرادة فلو أن حركته ذاتية وأردنا أن نفصل الأعضاء المفضلة عن أي إنسان سنجد حركة في الجسم الأصلي والأعضاء المفصولة، مع أنه لم يبق حركة واحدة فيهما.

عندما يثبت أنه من الضروري لكل متحرك وجود محرك ما، فمن الضروري أن ينتهي وجود سلسلة جميع الأجسام والتي هي غير متحركة بذاتها لأنه لو هي متحركة أيضا فمن الضروري أن يكون لها محرك، وفي هذه الحالة سوف تتطلب وجوذا لا متناهيا في هذه الصورة وهذا محال أن يكون المحرك الأول نفسه غير متحرك، والله هو باعث الحركة لجميع الأشياء.

ودليل ابن مسكويه في الأصل مأخوذ عن أرسطو، بل هو نفس الدليل الذي كتبه أرسطو، وكان أرسطو قد قال إن العالم قديم لكن حركته حادثة وإن الله خلق

هذه الحركة وهذا الرأي مطابق تمامًا لرأي أولئك الناس الذين يقولـون إن المـادة قديمة لكن تتغير الصور المختلفة للمادة وهذا حادث أيضا، وما يفعله الله أنه يغيـر تلك الصور فقط.

لكن هذا الاستدلال غير صحيح، فالمعارض يستطيع اختيار هذا الجانب لأن الحركة التي في الأشياء حركة غريزية أي أنها نفسها خاصية من خواص تركيبها، وهذا الاعتراض الذي يؤكد لو أن هذه الحركة غريزية لأنها توجد في الأجزاء بعد فصلها هذا الاعتراض مجرد لغو باسم الطبيعة والتركيب والمزاج، وعندما تنفصل الأجزاء لن تظل حالة التركيب، وبالتالي لن تبقى تلك الحركـة، وتلـك الأجـزاء اختارت الآن صورة أخرى، ولهذا دب فيها نوع آخر من الحركة.

وبناءً على هذا أقام المتكلمون دلائل وبراهين أخرى لإثبات وجود الله، ومع أنها دلائل ضعيفة إلا أنها أقوى من دلائل أرسطو على كل حال.

بعد هذا الاستدلال أثبت ابن مسكويه صفات الله وهي أنه واحد أزلي لا جسم له، ومدار إثبات كل ذلك قائم على نفي رصد الحركة وتفاصيلها هكذا:

الوحدة: لو أن الله متعدد فمن الضروري أن يكون فيما بين هذا جزء التعدد مشترك، بسببه نطلق عليه جميعًا الله، وجزء ما غير مشترك بسببه يحدث الفـرق والامتياز فيما بينهم، وفي هذه الحالة سيكون التركيب لازمًا، والتركيب نـوع مـن الحركة ومن المؤكد أن الله ليس فيه أي نوع من الحركة.

الأزلية: الشيء الذي لا يكون أزليًا يكون متحركًا لأنه يخلق من العدم، وهو نوع من الحركة، ومن المؤكد أن الله لا يوجد فيه أي نوع من الحركة.

لا جسم له: لو أن لله تعالى جسمًا فمن الضروري أن يكون متحركًا لأن هذا الأمر قد ثبت آنفًا وهو أن الجسم يظل فيه نوع من الحركة في كل وقـت، ومـن المؤكد أن الله تعالى غير متحرك.

ترتيب المخلوقات: بالرغم من أن الله تعالى خلق العالم بأسره لكن الله تعالى لم يخلق العالم كله بصورة مباشرة.

عندمـــا تصدر أشياء متعددة عن شيء واحد تكون هنـــاك أسباب متعـــددة لهذا التعدد:

١- الشيء الذي يكون مركبا من قوى مختلفة مثل الإنسان فهو مركب مـــن قوى مختلفة وعناصر مختلفة؛ ولهذا يمكن أن تبدر عنه أفعالاً مختلفـــة ومتعددة عن طريق تلك القوى المختلفة.

٢- آلاته تكون مختلفة فمثلاً البخار يستطيع أن يؤدي أعمالاً مختلفـــة عـــن طريق آلات مختلفة.

٣- تظهر آثارًا مختلفة بسبب اختلاف المواد فمثلاً الاحتراق هي الخاصـــية الوحيدة للنار لكن ينصهر منها الجديد ويتصلب منها الطـــين ووظيفـــة النار في كليهما واحدة ولكن لأن المادة مؤهلة أي لأن هنـــاك اختلافًـــا في طبيعة الحديد والطين لذا تظهر النتيجة مختلفة.

لا يمكن أن توجد أي طريقة من تلك الطرق الثلاثة في الذات الإلهيـــة وإلا لبطل مركب القوى علانية، والاحتمال الثاني باطل فمن هو خالق تلك الآلات فلـــو أن هناك خالقًا آخر لتحتم بالضرورة تعدد الآلهة، ولو أن الله ذاته خالقها للزم آلات أخرى في تكوينها، وفي هذه الحالة سنعترف بالعلاقة غير المتناهية للآلات.

يبقى الآن الاحتمال الثالث ويطفو على السطح هذا السؤال فقط وهو مـــن ذا الذي خلق المواد المختلفة، الله نفسه لا يمكن أن يخلق أشياء مختلفة ولو هناك إلـــه آخر خلقها فمن اللازم أن تعدد الآلهة، وعندما يكون من غير الممكن نـــسبة هـــذه الطرق الثلاثة لله تعالى عندئذ تبقى هذه الطريقة فقط وهي أن الله يخلق شيئًا واحدًا

بالذات ثم يخلق شيئًا آخر وهكذا يظهر العالم كله بالواسطة، وهكذا يكون ترتيب المخلوقات فالله تعالى يخلق العقل الأول في البداية وتتولد النفس من النفس والأفلاك من الأفلاك ويكتمل العالم.

بعد هذا التقرير يقول ابن مسكويه: أرسطو أول من اخترع هذا المذهب ثم يذكر ابن مسكويه: نقلت هذا التقرير بكامله عن فرفوريوس أي يارفريونس.

الماديون: يرى الماديون أنه لا يمكن أن يخلق أي شيء من العدم المحض؛ وما يظهر إلى حيز الوجود في العالم توجد مادته من البداية، ولهذا المادة قديمة، الله لم يخلق المادة، بل إن الصورة التي اختارتها المادة هي من فعل الله، كان هذا مذهب جالينوس، وألف كتبًا لإثبات هذه المسألة، وألف إسكندر فردوس أحد حكماء اليونان كتابا للرد عليه، وقد تحيز العلامة ابن مسكويه إلى رأي إسكندر فردوس وكتب تقريرًا في غاية الوضوح خلاصته حسب ما يلي:

"يسلم الجميع بأن المادة عندما تتغير من صورة وتختار صورة أخرى تفنى الصورة الأولى تمامًا، لأنها لو لم تنعدم فإنه يبقى احتمالان فقط، إما أن تنتقل هذه الصورة وتحل في جسم آخر أو تظل موجودة هناك حيثما كانت، الصورة الأولى غلط بداهة ونحن نراها بأعيننا، فمثلا عندما تتبدل كرة الشمع إلى شكل مسطح فإن الشكل الكروي لا ينتقل إلى أي جسم آخر، والاحتمال الثاني باطل لأن لو الصورة الأولى تظل قائمة بعد خلق (تكوين) الصورة الثانية سيقتضى ذلك اجتماع النقيضين أي يكون الشيء الواحد هو نفسه في ذات الوقت فيكون طويلاً ومستديرًا في نفس الوقت.

لهذا سنسلم بالضرورة بأنه عندما تتشكل صورة جديدة فإن الصورة الأولى تفنى كليا، وعندما يتأكد أن الصورة الأولى انعدمت تمامًا فإن نتيجتها الحتمية هي أن الصورة الجديدة تظهر إلى حيز الوجود من العدم المحض.

يثبت من هذا قطعا أن الأعراض أي الصورة واللون والطعم والرائحة وغيرها تظهر إلى حيز الوجود من العدم، يبقى الآن إثبات هذا الزعم بالنسبة للجوهر، ويجب أن أرسخ في الأذهان الدعاوي التالية من أجليا:

١- تحليل المركبات لتنتهي في النهاية إلى بسائط، وتظل في النهاية مادة بسيطة فقط.

٢- الأمر البديهي أن المادة لا يمكن أن تنفصل عن الصورة بأي حال من الأحوال ويعترى المادة آلاف الأشكال من التغير لكن ستبقى صورة ما لهذا فإن المادة والصورة متلازمتان.

٣- لقد تأكد من قبل أن الصورة ليست قديمة بل تظهر إلى حيز الوجود من العدم المحض إلى جانب هذا عندما يثبت أن المادة لا يمكن أن تنفصل عن الصورة في أي حالة، فمن الضروري أن تكون المادة قديمة وإلا سيلزم قدم الصورة أيضا وعندما يثبت أن المادة حادثة فمن الضروري أن تنشأ إلى حيز الوجود من العدم المحض، لأن المادة بسيطة محض ولم يكن أي شيء موجود قبليا تخلق منه المادة هذا هو جوهر تقرير العلامة ابن مسكويه.

هذه الفكرة جديرة هنا بالاهتمام لأن أكثر فلاسفة اليونان يقولون بقدم العالم ولهذا يميل أرسطو إلى هذا الجانب لأن قدم العالم كان ضد العقائد الإسلامية ولهذا انحاز العلامة ابن مسكويه إلى هذه الفرقة من اليونانيين القائلة بالحدوث واستفاد من الدلائل التي ذكرتها هذه الفرقة.

الروح أو النفس الناطقة

يبدأ العلامة ابن مسكويه هذا البحث بهذا التمهيد:

حقيقة الروح ــ ووجودها بعد فناء الجسم وبقاؤها من المسائل الصعبة والدقيقة، ولكن لأن المعاد مؤكد فهو رهن لتلك المسائل، لهذا من الضروري أولاً أن نتباحث في تلك المسائل.

إن ما كتبه أرسطو وغيره فيما يتعلق بالروح مبعثر ومتفرق وغامض وظل كذلك بلا ترتيب أو تنسيق حتى بعد أن عالجه العلامة ابن مسكويه وحل عقده، ولهذا فإنني أسرد هنا بطريقة واضحة وسلسة جوهر جميع حلقات التقرير.

وجود الروح وعدم جسمانيتها: من خواص الجسم أنه عندما يتصف بصورة ما فإنه لا يمكن أن يقبل صورة ثانية ما لم تمح هذه الصورة فمثلاً لو تريد أن تجعل كأسًا من الفضة دورقًا لا يمكن أن تختار صورة الدورق ما لم تمح صورة الكأس، وهذه الخاصية مشتركة في جميع الأجسام، ومن هذه الناحية فإن الشيء الذي لا تتوفر فيه هذه الخاصية لا يكون جسمًا.

في الوقت الذي يدرك الإنسان شيئا ما يتصور صورته في نفسه فإنه يمكنه إدراك شيء آخر في نفس الوقت، بل بقدر ما تتزايد الإدراكات تتضاعف هذه القوة، ويثبت من هذا أن القوة المدركة للإنسان ليست جسمانية، وهذا الشيء الذي تستقر فيه صور الأشياء المختلفة، والتي عن طريقها يدرك الإنسان الأشياء المختلفة في وقت واحد اسمها الروح أو النفس الناطقة باختصار فإن الشيء محل الإدراك هو النفس والروح.

ولا يستطيع أي شخص إنكار أن في الإنسان حاسة يدرك منها "تلك الأشياء، ولكن الناس الذين ينكرون النفس يقولون إن هذه الحاسة جسمانية أو هي إحدى خواص الجسم؛ ولهذا فإن مصدر النزاع وكنهه فقط هو هل النفس حاسة جسمانية أم بريئة تمامًا من الجسمانية؟ وقد أقام العلامة ابن مسكويه العديد من الدلائل والبراهين على أن هذه القوة غير جسمانية وأكثرها مأخوذ عن أرسطو.

١- الحواس الجسمانية: هي خاصية عندما تدركها أي قوى وتشعر بها تضمحل قوته ويعتريها الضعف، فمثلا عندما يقع نظرك على الشمس فإن قوة الإبصار يعتريها صدمة شديدة وتعجز عن أداء عملها على

عكس العقل الذي تستفحل قواه من إدراك المعقولات ولهذا لا يمكن أن تكون هذه القوة أو الحاسة جسمانية. لكن هذا الاستدلال ضعيف، فهذه الحالة نفسها هي حالة العقل فهو يعجز ويضعف في مثل هذه المواقع فمثلاً عندما يتصور وجود الله فإن العقل تطرأ عليه نفس الحالة التي تطرأ على العين من رؤيتها للشمس.

٢- الحواس الجسمانية: هي خاصية عندما تدركها أي قوى وتشعر بها فإنها لا تستطيع إدراك أنه يشعر بالضعف وقتًا طويلاً. فمثلاً عندما يعافي بصره من رؤية الشمس فإنه يظل زمنًا لا يستطيع رؤية أي شيء عادي، ولكن القوة المدركة على عكس هذا، ويتضح من هذا أن القوة المدركة ليست جسمانية. ولكن هذا الاستدلال باطل لأن هذه الحالة هي بعينها حالة القوة العقلية عندما تعكف على أي موضوع دقيق وصعب وتظل منهمكة في حله زمنًا طويلاً وفي هذه الحالة لا تستطيع الاهتمام بأي موضوع سابق ويبدو لها الأمر الميسر السهل صعبًا.

٣- عندما يمعن الإنسان فكره في أي موضوع عقلاني وحساس فإنه في ذلك الوقت يتوخى صرف النظر عن المحسوسات ويرغب في الجلوس في خلوة ولا ينبغي عليه رؤية أي شيء أو سماعه أو شمه وهذه الأشياء تصبح عقبة في سبيل تمعنه وفكره ، ويتضح من هذا أن القوة العاقلة ليست جسمانية، لأنها لو تكون جسمانية فإنها لا تستطيع ولا تريد العمل بعد أن تستقل عن المحسوسات والأجسام. وهذا الاستدلال أيضا غير صحيح، فلاشك أن الإنسان يبتعد عن جميع أنواع المحسوسات عند التفكير والتمعن، ولكن يرجع سبب ذلك إلى أنه يهتم بآثار تلك المحسوسات ونتائجها التي تجمعت في عقله منذ البداية، والمحسوسات مازالت تؤدي عملها حتى الآن، ولاغرو أن هناك فرقًا

لأن المحسوسات لن تكون جديدة بل إن نتائج المحسوسات القديمة تظل تمارس عملها لأن هدف المحسوسات الجديدة ألا تتعلق بها.

٤- يعتقد الإنسان في كثير من المسائل التي لا تتعلق بالحواس، فمثلا إن اجتماع النقيضين باطل، والله موجود فوق فلك الأفلاك ولإخلاء ولإملاء فجميع هذه المسائل مجرد مسائل عقلية ولا دخل للحواس في تحصيل نتائجها. هذا الاستدلال غير صحيح كذلك، فلو حُللت المسائل المذكورة آنفا فستكون المحسوسات هي نهايتها، فمثلا عندما نرى مئات وآلاف الأمثلة فلا يجتمع شيئان مخالفان في مكان واحد هنا نتوصل إلى نتيجة عامة مفادها أن اجتماع النقيضين محال، ولكن هذه الكلية تنشأ جراء استقراء آلاف الجزئيات التي ترتبط بالحواس.

٥- القوة المدركة تحتد وتقوى أكثر في الشيخوخة ويثبت من هذا أنها لا ترتبط بالجسم ولا يضعف الجسم الذي يجعلها ضعيفة.

كانت هذه الدلائل المأخوذة من أرسطو، كما نقل العلامة ابن مسكويه دلائل أفلاطون أيضًا، ولكنها أيضا كانت مقبولة لدى العوام وهناك استدلال واحد قوي في كل هذه العلاقة ذكره العلامة ابن مسكويه بطريقة مجملة وناقصة، ولو أضاف إليه بعض المقدمات الأخرى لصاد دليلاً محكمًا ومتينًا ولحاز القبول والذيوع، ولهذا أذكره فيما يلي:

يبدو هذا الأمر بديهيًا وهو أن هناك أجزاء مختلفة في جسم الإنسان وأن لجميع تلك الأجزاء أفعالاً مختلفة، فاللسان يتكلم، والأذن تسمع والأنف تشم، وهذه الحالة ليست مقصورة على الآثار الظاهرية، بل ثبت من الأبحاث الحديثة أن المشاعر والعواطف المختلفة في الإنسان مثل الغضب والرحمة والحماس والحب وذاكرة التخيل مواضعها منفصلة في مختلف أجزء العقل.

هذا الأمر يبدو علانية أن جميع هذه الأجزاء في صورة آلات ولا تعمل من أجلها، بل للآخرين وهناك شيء آخر ما يحكمها جميعًا ويستعملها كذلك، فما تلمسه الأيدي وتراه الأعين وتسمعه الأذن هذه الإحساسات لا تؤديها الأيدي والأعين والآذان بنفسها ولكن هناك قوة أخرى تتمتع بنتائجها، وتوفر الحواس جميع أنواع الشهادات، ولكن اتخاذ القرار يكون بناءً على تلك الشهادات ومهمة قوة أخرى.

ويتضح هذا الأمر أكثر في هذا المكان حيث تخطئ الحواس نفسها، فمثلاً يبدو الشيء صغيرًا بسبب بعده، فالعين تعتبر هذا الشيء صغيرًا، ولكن الإنسان يقرر هل أخطأت العين وشهادتها في هذا الموقع غير جديرة بالاعتبار؟

السؤال الآن هو: ما الشيء المشغل لجميع تلك الأجزاء والأعضاء والحواس الظاهرية والباطنية؟ يقول الماديون إنه الدماغ، ولكن ثبت أن الدماغ يحتوي على أجزاء مختلفة ومتعددة، وكل جزء هو منبع لقوة خاصة، ولم يثبت أن هناك موضعًا في الدماغ لهذه القوة العامة المتحكمة في جميع القوة الخاصة وتعمل جميع هذه القوى كالآلة من أجلها، وأثبتت التجربة بما لا يدع مجالاً للشك أن الشيء الجسماني أو جزء من الجسم لا تعدو حيثيته أكثر من آله، ولهذا فالشيء الذي يستعمل في جميع الأعضاء والحواس والقوى من المحتم أنه أسمى منها جميعًا وغير جسماني، لأنه لو هو جسماني لأصبح آلة ولها عمل خاص ومحدود، هذه القوة العامة التي تستعمل الجميع هي قوة الروح أو النفس.

تبقى الآن هذه الشبهة فقط وهي أن هذا الشيء ممكن وهو ليس بجوهر بل عرض أي أنه طور من أطوار بنية الجسم وطبيعته مثلما يزعم الماديون في العصر الحاضر، وقد أبطل العلامة ابن مسكويه هذا الاحتمال هكذا:

١- الشيء الذي نسلم به بمختلف صوره وأحواله تكون تلك الصور والكيفيات لا علاقة لها بأي فرد فمثلاً الجسم الذي يقبل الألوان المختلفة

يمكن أن يكون أبيض وأسود وأحمر من الضروري أن يكون هو نفسه سادة لا يتلون بأي لون وإلا فإنه لا يستطيع قبول الألوان المختلفة الأخرى. ولأن الروح يمكنها تصور جميع الأشياء ولديها الأهلية لقبول وإدراك جميع الصور لهذا من الضروري ألا يكون عرضًا وإلا فإن مختلف أنواع العرض أي الكم والكيف وغيرها ستدخل تحت أي قسم.

٢- العرض هو الشيء الذي يطرأ بعد خلق الجسم ومنزلته أدنى ولهذا لا يمكن لذلك الشيء أن يحكم جميع الأعضاء والأجزاء والقوى والحواس الظاهرية والباطنية فهو نفسه شيء عرضي وغير ثابت وغير مستقل.

ويمكننا بيان هذا الاستدلال بقوة ووضوح أكثر هكذا - الأمر المسلم أن جسم الإنسان وكيفيات الجسم جميعًا تتغير لدرجة أن الماديين في العصر الحاضر يذكرون أنه لن تظل ذرة واحدة من الجسم الأول للإنسان بعد مرور ثلاثين عامًا وتتغير جميع الأجزاء الأولى ويخلق جسمًا جديدًا تمامًا يشبه الجسم الأول مع كل هذا لا يظل شيئًا قائما على حاله، وبسبب ذلك يقال أن زيدًا هو زيد نفسه الذي كان من ثلاثين عامًا خلت، وهذا الشيء نفسه هو الذي نطلق عليه اسم الروح والنفس الناطقة.

من الطبيعي ألا يكون هذا الشيء عرضًا لأن العرض يظل يتغير كل وقت، وهذا الشيء يظل قائمًا رغم جميع التغيرات.

الروح أزلية وغير فانية: عندما يثبت أن الروح جوهر وليست جسمًا فإنها هي نفسها تؤكد أنها أزلية وغير فانية لأن الفناء من خواص الأجسام، والشيء المنزه عن الجسمانية تمامًا أنى له أن يفنى.

هذا الزعم يمكن إثباته بسهولة طبقًا للأبحاث الراهنة، فقد أثبتت الدراسات الحديثة بصورة قاطعة أن أي شيء لا يفنى بل تتغير هيئته التركيبية فقط وبعد أن

تنفصل أجزاؤه تتخــذ أشكالاً وصورًا أخرى، فلو أردت أن تمزج الدنيــا بأســرها لا يمكن أن تفنى ذرة واحدة بحيث تكون محض معدومة تمامًا.

ولأنه قد ثبت أن الروح ليست مركبة بل بسيطة فإنها لا يمكن أن تتحــلل ولا يمكن أن تتبدل أجزاؤها، ولهذا فإن فناءها مستحيل.

النبـــــوة

من أجل فهم حقيقة النبوة يجب أولاً أن نمعن التفكير في ترتيــب الكائنــات وتسلسلها وتطورها خطوة بخطوة.

كان وجود العناصر أي الأجسام المفردة فقط هي أولى مراتب الموجــودات وعندما يتم تركيب العناصر فيما بينها فإن الجمادات أول ما يظهر إلى حيز الوجود وهي أدنى درجات عالم التركيب ثم تحصل الجمادات على درجة النباتات بعــد أن تتكون، والنباتات تترقى درجة بدرجة وكانت موجودة من قبل على شــكل فـسيلة وليست بذرة بل تنبت بذاتها ثم تصير شجرة والأشجار نفسها تترقى درجة بدرجــة حتى ينبت هذا النوع من الأشجار فيه جذوع وأغصان وأزهــار وبــذور وتحتــاج لتغذيتها أرض خصبة وماء نقي وهواء نظيف، عندئذ تنمو وتتطور حتــى تظهــر فيها خواص الحيوانية وتقترب تمامًا من تخوم الحيوانات فمثلاً البلح والتمر يُنبتــان من أشجار أنثى وذكر مثل الحيوانات، وكما يولد الأولاد من مباشرة الذكر للأنثــى كذلك فإن تلك الأشجار لن تثمر ما لم تلقح بالاتصال فيما بين الذكر والأنثى، وكما ورد في الحديث بجلوا عمتكم النخلة لأنها تنبت من ذلك الطين الذي خلق من ترابه سيدنا آدم.

النباتات: وهي تتطور وترقى عندما تتصل بالحيوانات فينشأ نــوع يحمــل صفات الحيوان والنبات كلاهما مثل المرجان والصدف.

ولم تتطور العلوم الطبيعية في عهد ابن مسكويه إلى هذا الحد؛ ولهذا فقد ضرب مثلاً بالمرجان والصدف بينما ثبت في العصر الحاضر العديد من هذه النباتات التي تجمع بين الصفات النباتية والحيوانية بوضوح فمثلاً هناك أحد الطفيليات يظل معلقاً بالأشجار وعندما يمر أي حيوان من أمامه فإنه يتشبس به ويلتف حول هذا الحيوان بسرعة ويمص كل دمائه حتى ينفق الحيوان.

عندما تتطور النباتات وترقى وتصل إلى المنزلة الحيوانية تنشأ أولا على هيئة دودة فيها حركة اختيارية فقط، ولا تتميز عن النباتات في شيء ثم يدب فيها التطور رويدا رويدا حتى يتوفر فيها حاسة اللمس وتبدأ الحواس الأخرى تنمو فيها عندئذ تنشأ مثل هذه الحيوانات وتوجد فيها جميع الحواس الخمسة مثل اللمس والسمع والشم والتذوق والنظر ويظل فيها معدل النمو قائما كذلك، وهكذا فإن الحيوان البدائي يكون غير متطور ثم يصبح حادًا وعاقلاً وسريعًا الفهم عندئذ يتطور ويرقى حتى يصل إلى المنزلة الإنسانية، فالقرد مثلاً عندما يتقدم خطوات إلى الأمام يصبح منتصب القامة مثل الإنسان وتتشابه كثير من قواه العقلية مع الإنسان، وهذه الدرجة هي نهاية الحيوانية وبداية الإنسانية ولذلك يبقى الفرق قليلاً للغاية بين تلك الحيوانات والبشر المتوحشين في بعض مناطق أفريقيا.

إن سلسلة التطور هذه هي نفسها السائدة في النوع البشري عندئذ تتطور القوى العقلية كالذهن والذكاء وصفاء الباطن وطهارة السرية إلى أن يصل الإنسان إلى حد الملوكية وهذه المرتبة التي نعبر عنها بالنبوة والرسالة.

حقيقة الوحي

إن قوى الإدراك عند الإنسان ترقى وتتطور درجة بدرجة فتدرك المحسوسات أولا ثم تدرك التخيل والفكر إلى أن تصل إلى العقليات المحضة، لكن عندما يصل الإنسان إلى هذه المرتبة التي عبرنا عنها آنفا بمرتبة النبوة فليس

من الضروري بمكان أن يحدث تطور تدريجي في إدراكه للحقائق والمعلومات، بل إنه منذ البداية يدرك حقائق الأشياء أي أن الأمر الذي يهتدي إليه الناس من ترتيب المقدمات وتجريد المحسوسات واستقرار الجزئيات يلقنها النبي بداهة بلا تفكيــر أو تذير ونطلق عليه اسم الوحي أو الإلهام.

وأحيانًا يتجه النبي إلى المعقولات ويدرك مفهومًا ما عن طريق القوة العقلية ثم تؤثر القوة العقلية على القوة الفكرية، وتعمل القوة الفكرية طبقًا لتعليمات القــوة المتخيلة، والقوة المتخيلة طبقًا للقوة الحسية، وتكون نتيجتها أن ذلك المفهوم الــذي كان عقليًا ومجردًا عن المادة يصبح مجسمًا محسوسًا مثله مثل النعــاس فالإنــسان تتــراءى له الصور ويشعــر بها عن طريق القــوة المتخيلـــة أو يــستمع إلـــى أصوات محسوسة.

وهكذا عندما تتطور المعلومات المادية والمحسوسة فإنها تتجرد من المــادة وتظل مفهومًا عقليًا فقط، وهكذا المفهوم العقلي عندما يميل إلى التخلف بأنه يتخــذ شكلاً جسمانيا والصور الملائكية التي يشاهدها الأنبياء ويشعرون بها أو الأصوات التي تتناهى إلى أسماعهم هي حقيقة أيضًا.

والفرق بين الفيلسوف والنبي هو أن الفيلسوف يطور المحسوسات تــدريجيًا بينما الأنبياء يتجهون من التطور إلى التقهقر للتقرب من فكر عامة الناس.

وما بينه العلامة ابن مسكويه عــن حقيقــة الــوحي ومــشاهدات الأنبيــاء ومسموعاتهم صاغها الأمام الغزالي كما هي بأسلوبه في كتابه "المضنون به علــى غير أهله"، وتنقل عبارات الغزالي كاملة ونكتفي فقط بالفقرات الضرورية:

> "إن لسان الحال يصير مشاهدًا محسوسًا علــى ســبيل التمثيل وهذه من خصائص الأنبياء والرسل علــيهم الــصلاة والسلام كما أن لسان الحال يتمثل في المنــام لغــير الأنبيــاء

> ويسمعون صوتًا وكلامًا، فالأنبياء يــرون ذلــك في اليقظــة وتخاطبهم هذه الأشياء في اليقظة".

وقد صاغ عبدالرزاق اللاهجي هذا الموضوع هكذا في كتابه "جوهر المراد" فكما أن الصور العقلية تتشكل في أدمغة الناس بعد تجريــد المحــسوسات كــذلك الأنبياء عليهم السلام فإن قوتهم القدسية تلبس المعقولات لباس المحسوسات.

لكن يجب أن ندرك أن حقيقة الوحي والمشاهدة هذه هي فقط علــى مــذهب الفلاسفة، وهي في رأي علماء الظاهر تدخل في نطاق الكفر الصراح.

وقد أسس إخوان الصفا مجلسهم في نحو من ذلك العصر وكان هدفهم هــو التوفيق بين الشريعة والفلسفة.

وقد ألف أعضاء هذا المجلس إحدى وخمسين رسالة في المسائل المهمة في الشريعة والفلسفة وهي موجودة الآن في أربعة مجلدات ضخمة باسم "رسائل اخوان الصفا"، ولكن لم يكن لهؤلاء العلماء هذا الحد من الجرأة ليكشفوا عــن أســمائهم، ومن بين العلماء الذين ذكرت أسماؤهم في كشف الظنون: أبو سليمان محمــد بــن نصير البستــي وأبو الحســن علــي بــن هــارون الزنجانــــي وأبــو أحمـــد هنرجـــوري وزيد بن رفاعة.

ويسلم الجميع بأن الذين ألفوا هذه الرسائل جميعهم فلاسفة الإســـلام، يقــول صاحب كشف الظنون "كلهم حكماء اجتمعوا وصنفوا" وقد ذكرهم الشهر زوري في كتابه: "تاريخ الحكماء" بقدر من التفصيل، وقد أبان هؤلاء العلماء عن مقاصدهم في أحد المواضع وفيما يلي خلاصة أهدافهم:

> "ألف قدامي الفلاسفة كتبًا كثيرة في العلوم والفنون مثل الطب والرياضيات والنجوم والعلوم الطبيعية وغيرها واستنتجوا نتائج مختلفة من تلك المؤلفات وعارضتهم جماعة وسبب ذلــك

إما عن جهل أو أن هذه المسائل بأكلمها خارجة عن نطاق مداركهم، والجماعة الأخرى قرأت تلك العلوم لكن لأنها لم تكملها بشكل كامل لذا كانت النتيجة أنهم أنكروا أحكام الشريعة وبدؤوا النظر بعين التحقير إلى الأمور الدينية، ولما كان هدف إخواننا العلماء جميعًا سبرغور الحقيقة لهذا ألفوا أحدى وخمسين رسالة كشفوا فيها حقائق الشريعة الإسلامية والعلوم الفلسفية".(١)

ولد الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري، وكان رائذا لجميع المتقدمين والمتأخرين في هذا المجال وقد مزج المنقول بالمعقول تمامًا ومن حسنات هذا المزج أن أحد الجوانب لم يطغ على الجانب الآخر، ولو أمكننا اليوم تأسيس علم الكلام الجديد لاستطعنا أن نرفع بنيانه على دعائم تلك الأفكار وبناءً على هذا سنذكر أفكاره في الجزء الثاني من هذا الكتاب، ولا غرو أنه من الضروري في هذا المكان أن نذكر مؤلفات الإمام الغزالي في كل علم والمناهج الجديدة التي غيرها في كل مجال فهو أحيانا متكلم وأحيانًا فقيه وأحيانًا أخرى واعظ وفي مجال فيلسوف وفي مجال آخر صوفي؛ ولهذا يصعب التمييز بينها ومعرفة مذهبه الخاص حقًا وما هي معتقداته، وعندما حصرنا جميع مؤلفاته ومزجنا أحدها بالآخر وتعرفنا على إشاراته بلغة مستترة تمكننا من حل هذا السر؛ ولهذا فإنني أدون سيرته وأحواله في كتاب مستقل اكتب فيه هذه المباحث بالتفصيل وهذا الكتاب سينشر بعد طبعه.

بالرغم من أن الإمام الغزالي يعمل في خفاء وسرية وحذر خوفًا من علماء الظاهر إلا أن العالمين ببواطن الأمور يدركون أنه يتحدث بلسان الفلسفة؛

(١) رسائل إخوان الصفا. ٣٢٩/٢.

ولهذا فإن كبار العلماء المشهورين أمثال القاضي عياض والمحدث ابن الجوزي وابن القيم وغيره شهروا بغوايته وضلاله فقد أتلفت كتبه في الأندلس بأمر من القاضي عياض، وقد ذكرت تلك الأحداث بالتفصيل في سيرته.

وبفضل الإمام الغزالي وحدت الفلسفة أهميتها بين الجماعات الدينية وانتشر تعليم المنطق والفلسفة وعمت شهرتهما، وبسبب هذا الحراك ظهر كثير من العلماء مازجوا بين الفلسفة والدين وكان على رأس القائمة شيخ الإشراق الشيخ شهاب الدين المقتول وبفضل علمه أجلس الفلسفة بجانب الدين، ولقياس أفكاره وتقديرها ننقل فقرة من مقدمة كتابه المشهور "حكمة الإشراق":

> **"وما ذكرته من علم الأنوار وجميع ما يتبنى عليه وغيره يساعدني عليه كل من سلك سبيل الله عز وجل وهو ذوق إمام الحكمة ورئيسها أفلاطون صاحب الأيد والنور وكذا من قبله من زمان والد الحكماء هرمس من عظماء الحكماء وأساطين الحكمة مثل أنبادقلس وفيثاغورس وغيرهما وعلى هذا متبنى قاعدة الشرق في النور والظلمة التي كانت طريقة حكماء الفرس مثل جاما سب وفرنسا فرشادشر وبزرجمهور ومن قبلهم وهي ليست قاعدة كفرة المجوس وإلحاد ماني".**

شيخ الإشراق وتخصصاته:

ولد شيخ الإشراق حوالي سنة ٥٥٠هـ وحصل المعقولات على مجد الجيلي أستاذ الإمام الرازي وبلغ الكمال في علمه في عمر قصير بسبب ذكائه وموهبته فلم يدانيه أحد في الدول الإسلامية بأسرها.

وعندما وصل إلى حلب سنة ٥٧٩ هـ كان حاكمها آنذاك الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين فأنزله منزلة سامقة، وعقد مجلسًا للمناظرة شارك فيه جميع كبار العلماء وقدم فيه شيخ الإشراق تقريرًا عن دقائق علمه أعجزت جميع معاصريه لدرجة أن العلماء ناصبوه العداء وكتبوا للسلطان صلاح الدين رسالة جاء فيها أنه لو ظل هذا الشخص حيا فإنه سيضل أسرتك بل وسيضل المسلمين أجمعين، وبناءً عليه أرسل السلطان صلاح الدين مرسومًا إلى الملك الظاهر لقتله، وقتلوه سنة ٥٨٦ برواية صاحب طبقات الأطباء.

مع أنه يثبت من جميع كتب التاريخ أن صلاح الدين أصدر أمرًا بقتله لكن في رأيي أن غضب العلماء لم يكن بسبب الحقد والحسد بل كانوا في الحقيقة يعتبرون شيخ الإشراق ضالاً.

ومؤلفات شيخ الإشراق موجودة حتى اليوم وفيها مئات الآراء التي تعتبر عند الفقهاء كفرًا وضلالاً، فقد ذكر في كتابه "حكمة الإشراق" أن زردشت وغيره أنبياء، وعد فلاسفة اليونان من المقربين من الحضرة الإلهية فماذا تريدون أكثر من هذا دليلاً على الكفر؟

وقد ألف الشيخ كتبًا كثيرة في الفلسفة وافق في أكثرها فلسفة أرسطو وألف من بينها كتابا يحمل ذوقه الخاص وهو "حكمة الإشراق".

وكان قد بدأ نقد واعتراض مسائل فلاسفة اليونان منذ عهد قدامى المتكلمين وقد وسع كل من الإمام الغزالي والإمام الرازي دائرة النقد كثيرًا لكن شيخ الإشراق حاز النصيب الأكبر من الاعتراض والنقد، وكان هدف الإمام الغزالي وغيره النقد والقدح فقط وهو نفسه لم يكن مؤسسًا لفلسفة ما على عكس شيخ الإشراق الذي ألف فلسفة خاصة أطلق عليها اسم فلسفة الإشراق دون فيها مذهبه بنفسه بعد أن أثبت خطأ أكثر مسائل أرسطو وأقام عليها الدلائل والبراهين، وصرح في نهاية الكتاب أن هذه المسائل إلهام نزل عليّ من عند الله، وله آراء في المنطق علاوة على الفلسفة، وأثبت خطأ بعض المسائل وأصلح البعض الآخر ونقحه. أنقل هنا بعضها لإمتاع القراء.

ذكرت هذه الطريقة لتعريف الأشياء في المنطق، وهو بيان حقيقة حدود الشيء، ونريد بيان القسمين وهما الذوات والأوصاف الأول يوجد في الأغيار مثل تميز الإنسان وتحركه بالإرادة، وتوجد أكثر في الإنسان والحيوانات الأخرى كذلك. الثاني خاص مثل صفة النطق تتوفر في الإنسان ولا تتوفر في أي حيوان آخر، ومجموعة الأجزاء أو الأوصاف في كلا القسمين هي نفسها حد هذا الشيء وحقيقته وتسمى تلك الأجزاء الجنس والفصل.

ويرى شيخ الإشراق أن هذه الطريقة غير صحيحة ويقول إن الجزء الخاص لا يوجد في أي شيء آخر سوى ماهيته لماذا يكون علمه للمخاطب، هذه الماهية ليست معلومة للمخاطب الآن وفيما عدا هذه الهيئة فإنه لا وجود لها في مكان ما، مثلاً تعريف الحصان في المنطق بأنه حيوان صاهل، والصهيل صوت خاص، وهو خاص بالحصان ملازم له، افرض الآن أن شخصًا ما لا يعرف حقيقة الحصان، ولم ير من قبل حصانًا قط، ولم يسمع صوت الصهيل فلو يقال له إن الحصان حيوان يصهل فأنى له أن يعرف مفهوم الصهيل.

بناءً على هذا ففي رأي شيخ الإشراق أن طريقة تعريف الشيء هي أن تبين جميع ذاتياته وأوصافه، رغم أنها متفرقة إلا أنها موجودة في الآخرين ولا توجد مجمعة في أي شيء.

وهناك أقسام عديدة للموجبات أقرت وقد اعترض عليها الشيخ أيضًا، حيث يقول إن الوجوب هو أصل الجهة والباقي الإمكان والامتناع وهذا داخل في المحمول، فمثلا عندما نقول إن الإنسان كاتب بالإمكان فإن إمكان الكتابة ضروري، أي أن إمكان الكتابة بالنسبة للإنسان ضرورية ولازمة؛ ولهذا فإن الممكنة في الحقيقة موجبة أيضًا.

واختلف شيخ الإشراق مع أرسطو وغيره في كثير من المسائل الفلسفية فمثلاً أرسطو يؤمن بالهيولي، وشيخ الإشراق اعتبر الهيولي باطلة، أرسطو وغيره

يعتبرون وجود الممكنات زائدًا عن الماهية، والشيخ يقول بالعينية، وأرسطو وغيره يقولون بالعقول العشرة، ويرى الشيخ أن العقول لا تحدد بعشرة بل بمئات وآلاف العقول أي كل شيء رب النوع هو عقل. وأفلاطون يقول بقدم النفس، في حين أن شيخ الإشراق قدم أدلة وبراهين عديدة على بطلانها، وأرسطو وغيره يقولون بالمقولات العشر، ويرى شيخ الإشراق أن كل هذه الأشياء اعتبارية.

بالرغم من كثرة هذا النوع من المسائل لكن هذا الكتاب ليس محلاً للفصل فيها بل نبحث هنا فقط في آرائه الدينية وتأثيرها على علم الكلام.

إن أغلب إلهيات شيخ الإشراق تقليد لأبي علي سينا أو أنها توارد أفكار مع أبي علي سينا، ولكن فيما يتعلق بالوحي والإلهام ورؤية الملائكة فإن له مذهبًا خاصًا هذا تفصيله.

يرى الشيخ أن هناك وجودا مثاليًا من بين أنواع الوجود، وأن الوحي والإلهام وغيرها جميعًا مظاهر لهذا الوجود المثالي لهذا يقول:

> **"وما يتلقى الأنبياء والأولياء وغيرهم من المغيبات فإنها قد ترد عليهم في أسطر مكتوبة وقد ترد بسماع صوت قد يكون لذيذًا وقد يكون هائلاً وقد يشاهدون صور الكائنات وقد يرون صورًا حسنة إنسانية تخاطبهم في غاية الحسن فتناجيهم بالغيب".**

المهم يقول بعد أن يذكر الصور المتعددة لهذا النوع:

> **"كلها مثل قائمة وكذا الروايح وغيرها".**

يا له من رأيٍ عجيب فمثل هذه الأفكار عند شخص تعد كفرًا وعند الآخر حقائق وأسرار، فمنزلة الشيخ في محفل الصوفية الكرام معروفة، ورأي العلامة ابن تيمية وغيره في شيخ الإشراق لا يستحق المجاهرة.

نظرة إجمالية على علم الكلام

يرى أكثر الناس أن مسائل علم الكلام معظمها مقتبس عن اليونانيين ومنبع هذه الفكرة هي أن ما قدمه الإمام الغزالي من تفسير وشرح لحقيقة المعجزات والثواب والعذاب والرؤيا والإلهام والوحي والنبوة وغيرها في كتبه المضنون والصغير والكبير وجواهر القرآن كلها مأخوذ عن ابن سينا والفارابي، وما يكتبه كل منهما منقول عن الفلسفة اليونانية، لكن هذه الفكرة خاطئة تمامًا ولا غرو أن أبحاث الإمام الغزالي فيما يتعلق بالمسائل المذكورة مقتبسة من ابن سينا والفارابي وهذه المسائل من إبداع ابن سينا والفارابي نفسيهما ولا علاقة لها باليونانيين، يذكر العلامة ابن رشد في التهافت.

> **"أما الكلام في المعجزات فليس للقدماء من الفلاسفة قول[1] أما ما حكاه في الرؤيا عن الفلاسفة فلا أعلم أحدًا قال به من القدماء يزعم أن الفلاسفة ينكرون حشر الأجسام وهذا شي ما وجد لواحد ممن تقدم فيه قول"..**

والحقيقة هي أن المسلمين مع أنهم نظروا بعين الاعتبار والتبجيل إلى فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة وأخذوا جميع مسائلهم، إلا أن هذه التلمذة كانت محدودة بالرياضيات والعلوم الطبيعية وغيرها في حين أن الأمور الدينية عند اليونانيين كانت ناقصة وغير مكتملة وقد تفوق عليهم المسلمين، وكان علماء الكلام

---

(١) ص ١٢٦ (٢) ص ١٢٧ (٣) ص ١٣٩ - ص ١٥و ٢١و ٢٣ (انظر: تهافت الفلاسفة. دار المعارف. مصر. الطبعة الثانية. ١٩٦٠ (المترجم).

يزدرون دائمًا الإلهيات عند اليونانيين، وكان العلامة ابن تيمية لا يعتقد بالمتكلمين ويذكر هكذا في "الرد على المنطق".

"إن كثيرًا مما يتكلمه المتكلمون باطل" مع ذلك يكتب بعد هذه العبارة:

> **"وهذا كلام أرسطو موجود وكلام هؤلاء موجود فإن هؤلاء المتكلمين يتكلمون بالمقدمات البرهانية اليقينية أكثر من أولئك بكثير كثير".**

فمسائل النبوة والمعجزات والمعاد وغيرها من المسائل التي نسبها الإمام الغزالي في "تهافت الفلاسفة" لم يخترعها فلاسفة اليونان بل اخترعها ابن سينا، وفي الأصل لم يخترعها ابن سينا بل إن ابن سينا أجرى تعديلات طفيفة على أبحاث قدامى المتكلمين وأعرب عنها بأسلوب جديد.

يكتب العلامة ابن تيمية في "الرد على المنطق":

> **"وابن سينا تكلم في أشياء من الإلهيات والنبوات والمعاد والشرائع لم يتكلم فيها سلفه ولا وصلت إليها عقولهم فإنه استفادها من المسلمين".**

لم تكن شهرة العلامة ابن تيمية في العلوم العقلية بشكل عام ولهذا فإن شهادته في الغالب لم يكن لها اعتبار عند الناس ولكن العلامة ابن رشد وهو من هو بين فلاسفة المسلمين صرح في مسائل كثيرة في كتاب التهافت بأن ابن سينا اقتبسها من المتكلمين فيذكر على سبيل المثال فيما يتعلق بمسألة إثبات الفاعل: "وإنما اتبع هذان الرجلان فيه المتكلمين من أهل ملتنا".[1] ويقول في موضع آخر: "وهو طريق أخذه ابن سينا من المتكلمين".[2]

---

(١) التهافت: ١٨.

(٢) التهافت: ١٧٤.

محاسن علم الكلام:

سنظل دائمًا نذكر محاسن علم الكلام، فبفضله تحررنا من عبودية اليونانيين، وكانت الفلسفة اليونانية قد حاذت القبول والشهرة في العالم لدرجة أن مسائل مثل الوحي كان يسلم بها، وكان المسلمون أيضا ينظرون إلى الفلسفة نفس النظرة، ويعتبرون أرسطو وأفلاطون ملاكي العلم، سأل رجل الفارابي ما علاقتك بأرسطو فأجابه قائلاً: لو كنت في عهد أرسطو لكنت أحد تلاميذه النجباء، وذكر أبو على سينا في موضع ما بشكل ضمني لقد مرت أزمانا طويلة إلى هذا الحد ولكن لم تضف مثقال ذرة إلى أبحاث أرسطو.

وقد ظل تفوق اليونانيين قائمًا حتى ذلك الوقت مادام علماء الكلام لم ينظروا إلى الفلسفة بعين النقد، وكان النظام أول من كتب ردًا على كتاب "الطبائع" لأرسطو، ثم كتب الجبائي كتابًا ردا على كتاب " الكون والفساد" لأرسطو، وتطور هذا الاتجاه باستمرار حتى كتب الإمام الغزالي "تهافت الفلاسفة"، وألف أبو البركات كتاب المعتبر أثبت فيه أخطاء كثير من المسائل الفلسفة، وأعد الإمام الرازي على هذا المؤلف تلو الآخر، وألف ابن تيمية كتابًا في أربعة مجلدات في الرد على الفلسفة خاصة، وهذه المؤلفات رغم أنها كتبت من أجل هذا الغرض أي علم الكلام إلا أنها لا علاقة لها به ولكن بفضلها أزيل الخوف من الفلسفة من القلوب وتحفز العلماء لنقد الفلسفة وكشفوا أخطاء مئات المسائل.

ذكر أكثر الكتاب الأوربيين أن المسلمين عمومًا كانوا يقلدون أرسطو تقليدًا أعمى لدرجة أن أحد كتّابهم تطاول وذكر أن المسلمين كانوا حمالي عربة أرسطو ويجب أن يعلم قصار النظر أنهم لو قرأوا مؤلفات ابن تيمية والآمدي والإمام الرازي والإمام الغزالي وأبي البركات بدلاً من الفارابي وابن سينا لوجدوا أن الفلسفة فلسفة المسلمين وأنهم أثبتوا أخطاء اليونانيين في المنطق وأن إجمالي الأخطاء التي اكتشفوها لم يستطع أحد قط أن يكتشفها.

يذكر العلامة مرتضى الحسيني في شرح إحياء العلوم [1]: "وأول من بين فساده وتناقضه، ومناقضة كثير منه للعقل الصريح وألف فيه أبو سعيد السيرافي النحوي ثم القاضي أبو بكر الطيب والقاضي عبدالجبار والجبائي وابنه وأبو المعالي وأبو القاسم الأنصاري وخلق لا يحصون وآخر من تجرد لذلك تقي الدين ابن تيمية الحافظ فإنه أتى في كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب".

وكتاب ابن تيمية موجود عندي وسوف أعرض موضوعاته على القراء في موضع آخر.

إن أغرب وأعجب شيء في تاريخ علم الكلام هو مناخ الحرية والتحرر في الدولة العباسية، والحقيقة أن هذا العامل هو الذي أوصل علم الكلام إلى هذه المكانة، وإلا لو عُمل بتعليمات هؤلاء العلماء وإرشاداتهم وكانوا يستعملون في كل موقع السؤال بدعة لقضي اليوم على علم الكلام كليًا فكان هذا من آثار الحرية وفي غضون قرن من الزمان تدفقت الأفكار المختلفة كالسيل وأخذت تزداد لحظة بلحظة وبفضلها كانت تنشأ عشرات الفرق الجديدة، وهذه الفرق رغم أنها مختلفة فيما بينها في المعتقدات فإن كل فرقة نالت نصيبًا من الحرية العامة وكانت كل فرقة تريد أن تنشر أفكارها ومعتقداتها يمكنها أن تفعل ذلك بالطريقة التي تريدها.

عاش المعتزلي الشهير واصل بن عطاء في عهد الخليفة المنصور وقد أرسل سفراء وممثلين عنه إلى جميع البلاد الإسلامية فبعث عبدالله بن الحارث إلى المغرب، وحفص بن سالم إلى خراسان، وقاسم إلى اليمن وأيوب إلى الجزيرة، وحسن بن زكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينية، وقد نشر هؤلاء الرسل والسفراء أفكارهم بحرية في كل مكان وناظروا المعارضين[2].

(١) المجلد الأول طبعة مصر. ص ١٧٦.

(٢) الملل والنحل ص ١٩.

كان العلماء من كل مذاهب وفرق النصارى واليهود والمانوية والمجوس موجودين في البلاط العباسي وكانت مجالس المناظرة تنعقد في البلاط، وفي معظم الأوقات يكون الخليفة نفسه أحد فرق المناظرة، وكان الناس يعبرون عن آرائهم وأفكارهم بحرية وجرأة وشجاعة بالرغم من وجوده ولا يكترثون قط بمذهب الخليفة ولا بمعتقداته.

وفي القرن الثالث الهجري عاش العالم ابن الراوندي المتوفي سنة ٣٤٥هـ واسمه أحمد بن يحى وكان عالمًا كبيرًا؛ ولهذا كتب ابن خلكان اسمه باللون الأحمر بلقب العالم الشهير وذكر من مؤلفاته مائة وأربعة عشر مؤلفًا.

ولا علم لنا بالأسباب التي دعته للإلحاد ومعارضة الإسلام، وقد ألف كتبًا كثيرة في معارضة الإسلام، وكتب في أحد كتبه ردًا على جميع الموحدين واسمه كتاب "التاج" وألف كتابا والعياذ بالله رد فيه على القرآن الكريم واعترض في أحد كتبه واسمه "الفريد" على جميع الأنبياء.(١)

وقد نقل التفسير الكبير بعض اعتراضاته، وبالرغم من كل هذه الوقاحات لم يقتل ولم يعاقب ولم ينف من بلده بل كتب العلماء ردا على كتبه الملحدة وقارعوه الحجة بالحجة وفندوا جميع اعتراضاته.

فهل يمكن أن يكون هناك مثال على الحرية والتحرر أكبر من هذا، فالأوربيون يتهمون المسلمين بالتعصب وضيق الأفق، ولكن أوربا لا تذكر ذلك العهد الذي كان يحرق فيه الناس أحياء عندما يجدون مساحة ضئيلة جدا من الحرية، لدرجة أنهم كانوا في أوربا في بداية أمرهم يشكون في العلماء لاكتشافهم اكتشافات جديدة في العلوم، وبناء على هذا أصابتهم محنة السجن والاعتقال لأن هذه الاكتشافات مخالفة للدين، حتى إن مخترع المنظار لم يسلم من المؤاخذة.

(١) مرتضى: الملل والنحل. طبعة حيدر آباد. ص ٥٣.

قصور علم الكلام وأسبابه:

على الرغم من أن علم الكلام بلغ عمره اثني عشر قرنًا، لكنه لم يصل إلى مرتبة الكمال بعد، وقد واجه معارضة شديدة بمجرد ظهوره وناصبه العداء جميع المحدثين وأئمة المجتهدين عدا الإمام أبي حنيفة وقد نجا علم الكلام من التخريب بفضل رعاية الدولة العباسية، لكنه لم يلق قبولاً عامًا وكانت الفرقة التي ناصرته وأيدته وكانت تريد له التطور والرقي هي فرقة المعتزلة وكان اسمًا سيئ السمعة، وقد توجه أهل السنة والجماعة إليه بعد فترة من الوقت ولكنهم لم يكونوا على علم بالفلسفة والعلوم العقلية، لأن هذه الفرقة كانت تعتبر تعلم الفلسفة والمنطق حرامًا، وقد تجرأ الإمام الغزالي وألقى الضوء على المنطق، وفيما يتعلق بالفلسفة فإنها حظيت كذلك بشرف المثول في هذا المحفل، وكان علم الكلام قد بدأ اختيار قالب آخر بعد أن امتزج بالفلسفة والعلوم العقلية، وكان قد بدأ مع ظهور علماء أمثال الإمام الرازي والآمدي، وفجأة هبت عاصفة عاتية من جانب التتار بعثرت قوى الإسلام وشتته، ولم يستجمع الشرق قواه بعد، وقد تماسكت القوى الوطنية وتكاتفت في الشام وتركيا، وبجانب هذا سلبت من المسلمين جميع القوى الاجتهادية ولم يبق أي أثر للبناء القديم الذي شيده الأشاعره ثم رممه المتأخرون حتى أصبح هذا البناء اليوم. مكانًا للعبادة وما قام به الإمام الغزالي وابن رشد من ترصيع وتزيين لهذا البناء بالجواهر لم يعلم بها أحد.

وأعظم الأسباب التي أبقت على علم الكلام ناقصًا هو أن المجاهرة بحرية الأفكار والتعبير عنها لم يكن مستحيلاً، فمع كون الدولة العباسية متحررة ونحن نمدحها على ذلك لكن هذه الحرية كانت محدودة بالحكومة فقط أما العامة فقد ظل حالهم في كل عهد هكذا فما يخرج عن أفكارهم وأذهانهم فإن الإفصاح عنه يضمر لهم البغضاء والشحناء، وكان رعاية الحكومة لهم ضئيلة ولم ترق إلى درجة أن

يخاطر أحد بنفسه فهل كان من الممكن تصريف الأمور مع هذه القيود؟ وكان ما يريده العوام له صداه ومردوده العام، وكان العيش في رغد وسعة من الرزق يمكن أن يحدث خللاً، إضافة إلى هذا كانت هناك فتنة تعامل فقهاء الظاهر مع العامة، وكان الناس يعيشون في ضيق وضجر من فتاوى الكفر، وقد طالعنا آنفًا أحوال ابن تيمية والشهرستاني وابن رشد والرازي والآمدي والإمام الغزالي فلم يسلم منهم عالم من هجوم فتاوى الفقهاء مع أن هؤلاء العلماء يستعملون الحرية في أضيق نطاقها وما كانوا يقولونه ينقذ مئات الجوانب.

ولو قرأت مؤلفات الإمام الغزالي وغيره لاتضح لك بجلاء مئات الأفكار يغص بها القلب ولكن لا يستطيع أن يتفوه بها اللسان، يذكر في كتابه "جواهر القرآن" أنني بينت الأفكار الأصلية في بعض الكتب وأقسم أن هذه الكتب الخاصة ويجب ألا تفلت من يد أحد منهم، وهذا النوع من تصريحات الإمام الغزالي وغيره سنذكرها في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

كانت هذه الأسباب التي بسببها لم يستطع علماء الكلام أن يبوحوا بالأفكار الأصلية أو بجلها وهكذا فقد فهمها البعض ولم يفهمها البعض الآخر.

ولا غرو أن ما قاله المعتزلة قالوه على الملأ ولم يكترثوا بالعوام فلم يكونوا من الواعظين ولم يصدروا الفتاوي ولم يمتهنوا الإمامة والخطابة ولكن نتيجة هذا لا يوجد لهم اليوم مؤلف واحد، ولو لم تذكر أقوالهم وأحوالهم في الكتب لكان من الصعوبة بمكان معرفة هل كانوا في هذه الدنيا أم لا؟

مسائل علم الكلام:

على الرغم من أن علم الكلام كان علمًا بسيطًا ومختصرًا في بداية أمره، لكن أضيفت إليه فروع تدريجيًا، ومن هذه الناحية الآن علم الكلام اسم لمجموعتين:

١- إثبات العقائد الإسلامية.

٢- الرد على فلسفة الملاحدة والمذاهب الأخرى.

الرد على المذاهب الباطلة:

كان قد بدأ الرد على المذاهب الأخرى منذ البداية وسبب ذلك أن البلاط العباسي كان يضم أناسًا من كل مذهب وملة وكانوا يتناظرون مناظرات دينية فيما بينهم، وكان يعقوب الكندي وهو على رأس فلاسفة الإسلام كان أول من كتب عدة رسائل في هذا الموضوع وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست الرسائل التالية بالتفصيل:

١- رسالة في الرد على المنانية والمنانية فرقة من فرق المجوس.

٢- رسالة في الرد على الثنوية وهم المجوس الذين يؤمنون بوجود إلهين.

٣- رسالة في الاحتراس من خدع السوفسطائيين ـ والسوفسطائية.

وبعد يعقوب الكندي ألف الجاحظ كتبًا في الرد على اليهود والنصارى ثم ألفت العديد من المؤلفات حول هذا الموضوع من بينها: النصحية الإيمانية، وتحفة الأريب، والتحجيل، والانتصارات الإسلامية، وذكر صاحب كشف الظنون في كتابه مؤلفات عبدالجبار المغربي والقاضي أبي بكر والإمام الجويني وابن الطيب والطرسوسي وابن عوض والدمياطي إجمالاً، وقد رد العلامة ابن حزم على كلا المذهبين بالتفصيل في كتابه الملل والنحل، ومن بين العلماء الذين ألفوا كتبًا في هذا الموضوع عالمان جليلان جديران بالذكر هما عبدالله الترجمان ويحيى بن جزلة، وكان يحى بن جزلة هذا نصرانيا في بداية أمره ودرس علومه على يد الوليد المعتزلي واعتنق الإسلام سنة ٤٦٦هـ لإيمانه بقوة استدلاله وهدايته، ولأنه كان عالمًا متخصصًا في التوراة والإنجيل فقد ألف كتابا مستقلاً عن النبوءات والتكهنات في تلك الكتب عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الكتاب غالبًا أول مؤلفاته، وبعد اعتناقه الإسلام كتب خطابا على هيئة رسالة باسم إليا وكان مطرانًا في ذلك الزمان.

وأثبت يحيى بن جزله في مؤلفه بالدلائل الدامغة أن اليهود والنصاري بعد أن عرفوا نبوءات الرسول صلى الله عليه وسلم أخذوا يخفونها ويكذبونها.(١)

وعبدالله الترجمان أيضا كان نصرانيا في البداية وكان سبب اعتناقه الإسلام أنه اطلع على النبوءات الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، وأدرك الحقيقة من أستاذه وكان يُعد من كبار القساوسة في ذلك الزمان، وقال له هذا القسيس لاشك أن هذه النبوءات تنطبق على الرسول صلى الله عليه وسلم ولكني لا أستطيع أن اكشفها بناءً على المكاسب الدنيوية، أما أنت فليوفقك الله اذهب واعتنق الإسلام لهذا أسلم وكتب كتابا باسم "تحفة الأريب" سجل فيه كل هذه الأحداث وأثبت وجود نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية وطبع هذا الكتاب وقد اطلعت عليه.

وقد اطلعت على كتاب آخر ألفه الإمام الغزالي في هذا الموضوع وكان المنهج المتبع في جميع تلك المؤلفات هو إثبات تحريف التوراة والإنجيل من خلال دليلين هما: الأول الخلاف الشديد بين نسخ هذين الكتابين ولا يوجد فيهما أمثلة بصورة ما ولهذا لا يتوفر فيهما الثقة والاعتبار . ثانيا أكثر أقوالهما خلافًا للعقل ولهذا لا يمكن أن يكونا منزلين من عند الله، والأمر الجدير بالذكر هنا أن أي أمر خلافًا للعقل كان علماء السلف يدللون على أنه لا يمكن أن يكون من عند الله.

الرد على الفلسفة:

كان الرد على الفلسفة هو علاقة علم الكلام بها فكان يبطل مسائلها المخالفة لدين الإسلام، ولكن المتكلمين لا يكتفون بهذا بل أثبتوا أخطاء الفلسفة اليونانية بشكل عام، ولهذا السبب عندما ترجمت الفلسفة اليونانية أولع الناس وافتتنوا

---

(١) ابن خلكان: ذكر يحيى بن جزلة.

بها، وقد أحدث هذا الولع أثرًا حيث يقع النظر على العقيدة السليمة لكل نوع من مسائل الفلسفة، وكانت مسائلها الضعيفة تبدو قوية ويقينية، وكانت تلك المسائل تبدو في الظاهر خلافًا للإسلام فعندما أبطل المتكلمون تلك المسائل بشكل خاص فإن أنصار الفلسفة كانوا يرون أن العلم الذي تعد جميع مسائله صحيحة أنى تكون نفس مسائله ضعيفة وهي مخالفة للإسلام.

دعت هذه الحاجة المتكلمين لكي يلقوا نظرة عامة على الفلسفة وليثبتوا خطأ مئات المسائل، وكان قدماء المتكلمين قد اكتفوا بقدر الحاجة ولكن المتأخرين وخاصة الإمام الرازي انتقدوا الفلسفة بأسرها، وينفصل هذا الجزء عن علم الكلام، وهو مستقل في الحقيقة ولعلها فلسفة منفصلة ولو سنحت الفرصة فسوف أكتب كتابًا مستقلاً عنها، لكن هذا الجزء في الحقيقة لا يدخل في نطاق علم الكلام.

أخطاء في فهم الفلسفة اليونانية عند المتكلمين:

لقد وقعت في الحقيقة كثير من الأخطاء في فهم مسلمات فلاسفة اليونان وأفكارهم عند المتكلمين والسبب في هذا أن فلاسفة الإسلام مثل ابن سينا وغيرهم لم يكونوا واقفين على اللغة اليونانية، وكان محور اعتمادهم على ترجماتها التي قام بها حنين وإسحق وغيرهما وهذا الخطأ هو الذي وقع فيه ابن سينا في الأعم الأغلب، وهكذا فقد ذكره العلامة ابن رشد بصراحة تامة في أكثر مواضع "تهافت التهافت" والخطأ هو أن ابن سينا نال مثل هذه الشهرة من حيث كونه مفسرًا لأرسطو؛ ولهذا فإن كل ما صدر على لسانه اعتبره الناس صدر على لسان أرسطو لدرجة أن كثيرًا من مثل هذه المسائل لا علاقة لأرسطو وأفلاطون بها مطلقًا، ومع ذلك فإن الإمام الرازي والإمام الغزالي وجميع المتكلمين ينسبونها إلى أفلاطون وأرسطو ويعتقدون عند دحضها أنهم يدحضون الفلسفة اليونانية، مع أن تلك المسائل من إبداعات ابن سينا ومخترعاته.

وكتب الفيلسوف أبو نصر الفارابي رسالة "الجمع بين الرأيين" وطبعت في الوقت الراهن في أوربا ونعرف منها أكثر المغالطات في هذا النوع وقد استشهد العلامة ابن رشد أيضا بكثير من الأخطاء من هذا النوع في كتابه "تهافت التهافت"؛ ولهذا أتناول بعض المسائل رجوعًا إلى كتابيهما.

١- مشهور بشكل عام أن أرسطو كان يقول بقدم العالم مع أن أرسطو ذكر بوضوح في كتابه "أثولوجيا" أن الله خلق الهيولي (المادة) من العدم المحض ثم خلق جميع المخلوقات من الهيولي، وكذلك ذكر أفلاطون في كتابيه "طيماوس" "وبوليطامين" أن الله تعالى خلق جميع المخلوقات من العدم المحض. (١)

٢- مشهور أن أفلاطون قال بعالم المثل أي أن الأشياء الموجودة في عالمنا يوجد ما يقابلها من جميع الأشياء في عالم آخر، الفرق فقط في أن هذه مادية وتلك غير مادية وأنها لا تفنى قط، ولكن هذا خطأ؛ لأن أفلاطون كان يقول: إن ما هو موجود وما سوف يوجد في العالم بأسره موجود في علم الباري، مثلما توجد خريطة هذا المكان في ذهن الصانع عندما يريد بناءه وهذا يسمى عالم المثال.

٣- الاعتقاد السائد أن أرسطو وأفلاطون كانا ينكران الجزاء والعقاب، ولكن هذا خطأ لأن الخطاب الذي كتبه أرسطو لوالدة الإسكندر بعد وفاته جاء فيه هذه الفقرة "لا تمارسي مثل هذا السلوك أي (الجزع والفزع) لأن نتيجته أن تحرمي من لقاء الإسكندر يوم القيامة". وقد ذكر أفلاطون بوضوح في كتاب السياسة (الجزء الأخير) البعث والنشر، والعدل والميزان، والجزاء والعقاب. (نقلاً عن كتاب الجمع بين الرأيين)

---

(١) هذا ما توصل إليه الفارابي في أبحاثه، لكن أبحاث ابن رشد والشهرستاني على عكس هذا وطبقًا لرأيه فإن أرسطو كان يقول بقدم الأفلاك، وهو القائل أيضًا أن الله لم يخلق الأفلاك بل خلق الحركة، وهذه الحركة لازمة من اللوازم الذاتية للأفلاك.

٤- من المعروف عن الفلاسفة أنهم ينكرون المعجزات ويختلفون مع عقائد المسلمين في تفسير الوحي والرؤيا وغيرها، ويذكر العلامة ابن رشد أنه فيما يتعلق بالمعجزات والرؤيا لم ينقل حرفًا واحدًا عن الفلاسفة.[١] وفي الأصل أن ابن سينا بين حقيقة الإلهام والوحي والكرامة والمعجزة والنبوة في كتابيه الشفاء والإشارات طبقًا للأصول العقلية، ولأن هذين الكتابين مأخوذان بكاملهما عن الفلسفة اليونانية اعتبر الناس أن تلك المسائل مقتبسة عن الفلسفة اليونانية.

٥- مشهور عن أرسطو وغيره من الفلاسفة هذه المقولة: "الواحد لا يصدر منه إلا الواحد" بناءً على هذا قامت سلسلة الكائنات والله تعالى خلق العقل الفعال فقط ثم قام العقل الفعال بخلق العقل الثاني والفلك الأول وهكذا تم خلق الأفلاك والدنيا بأسرها مرحلة بمرحلة، ولكن هذا اتهام لأرسطو فهذه القاعدة والتفريعات من هذه القاعدة جميعها من اختراعات ابن سينا، وقدم العلامة ابن رشد بحثًا تفصيليًا في هذه المسألة في كتابه تهافت التهافت وبين الرأي الأصلي لأرسطو وكتب في النهاية: "فانظر هذا الغلط ما أكثره على الحكماء فعليك أن تتبين قولهم هذا، هل هو برهاني أم لا أعنى في كتب القدماء لا في كتب ابن سينا وغيره الذين غيروا مذاهب القوم في العلم الإلهي".[٢] ويذكر العلامة ابن رشد فيما يتعلق بالعقول العشرة وما بين العلة والمعلول: "وأما ما حكاه ابن سينا من صدور هذه المبادئ بعضها من بعض فهو شيء لا يعرفه القوم".

٦- ذكر في كتب الفلسفة أن الفلاسفة يقولون إن الله موجب بالذات أي أن العالم الذي خلقه لم يخلقه بالإرادة والاختيار بل مثله مثل النور الذي

---

(١) ابن رشد: التهافت ص ١٢٦.

(٢) ابن رشد: التهافت ص ٥٠-٥١.

ينبعث من الشمس من تلقاء نفسه، وبناءً على هذا اعترض كل من الإمام الرازي والإمام الغزالي بشدة على فلاسفة اليونان، ولكن لم يكن هذا رأي الفلاسفة بأسرهم وقد بحث ابن رشد هذا الأمر بالتفصيل في التهافت (ص ٤٣).

٧- قسم ابن سينا المخلوقات إلى ثلاثة أقسام: واجب بالذات أي الله. وواجب بالغير أو ممكن بالذات أي العقل الأول. والممكن ويرى جميع المتأخرين أن هذا في الأصل مذهب أرسطو، ولكن اليونانيين لم يقولوا قط بالواجب بالغير، ففي مذهبهم أن الشيء الممكن بالذات لا يوجب ولا يستحق أي اعتبار.

وكان اليونانيون يقولون بقسمين فقط هما: الواجب والممكن ومن بينهم من يقول إن العالم قديم وواجب، وكانوا يقولون أنه واجب بالذات، ولا يعتقدون أن ذات المبادئ معلولة، ولم يقولوا بالوجوب بالذات، وكانوا يؤمنون أن العالم حادث، وقد دحض كل من ابن رشد في التهافت والعلامة ابن تيمية في الرد على المنطق هذه المسألة.

الخلاصة أن هذا النوع وكثير من المسائل التي اعتبرها المتكلمون مسلمات ومخترعات أرسطو وأفلاطون هي من مخترعات أبو علي سينا وغيره.

يبقى تلك المسائل التي كانت أفكارًا يونانية حقيقة وخطأ المتكلمين المتعلق بها هو أن هذه المسائل مخالفة للدين الإسلامي مع أنها لا تمت بصلة إلى الدين سلبًا أو إيجابًا أي أن إثباتها ونفيها لن يلحق الأذى بالإسلام، ونسجل فيما يلي بعض المسائل على سبيل المثال.

- الوجود مشترك في جميع الموجودات.	- لا، بل لكل موجود وجود مختلف.
- وجود الله هو عين حقيقة الله ووجود الممكن خارج عن ماهيته.	- واجب وممكن وجودهما عينه.
- وجود الأشياء عقلية أيضًا.	- غيري عقلية.
- الوجوب والامتناع والإمكان أشياء حقيقة.	- اعتبارية.
- علة الممكن هي الاحتياج والإمكان.	- ليس الإمكان بل حدوثه خارجي.
- يمكن أن يقوم العرض مع العرض.	- لا يمكن أن يقوم.
- الأعراض تظل باقية.	- تظل فانية كل وقت.
- هناك وجود للزمن والمقدار والعدد.	- لا يوجد وجود لأي شيء.
- الخلاء محال.	- الخلاء ممكن.
- الوجود لا يكون جزءًا لا يتجزأ	- يكون وجميع الأجسام مركبة من تلك الأجزاء.
- الجسم مركب من الصورة والهيولي.	- الهيولي لا تمثل أي شيء.

هذا النوع وكثير من المسائل مذكور بالتفصيل مع الدلائل والبراهين في كتاب شرح المواقف. وقد أسند المتكلمين تلك المسائل إلى الدين الإسلامي، ونذكر هنا أحد الأمثلة بشكل ضمني.

الجسم شيء متصل على مذهب الفلاسفة ومركب من الصورة والهيولي، ويقول المتكلمين إن الجسم مركب من أجزاء لا تتجزأ وليس بينها اتصال حقيقي،

ولو أنها تبدو متصلة في الظاهر، ويرى المتكلمون أن حقيقة كل الأجسام متحدة لأن الجسم اسم لأجزاء لا تتجزأ وهذه الأجزاء واحدة في الحقيقة ويعبر المتكلمون عن هذه المسألة بكلمة "تماثل الأجسام" ويقول عنها العلامة التفتازاني في شرح المقاصد: "وهذا أصل يتبنى علي كثير من قواعد الإسلام كإثبات القادر والمختار وكثير من أحوال النبوة والمعاد".

بناءً على هذا أدخل المتكلمون هذه المسألة في أصول المذهب، فعندما تتخذ كل الأجسام في الحقيقة يجب أن تكون كلها حالة واحدة مع أن الأجسام تحمل خصائص مختلفة، يثبت من هذا أن هذه الخواص نفسها لا تنشأ من الأجسام، بل خلقها قادر مختار ونطلق عليه اسم الله.

إن إثبات خرق العادة قائم على هذه المسألة، لأنه عندما تكون جميع الأجسام متحدة الحقيقة فإن خواص الجسم الواحد تنتقل في الأجسام الأخرى، فمثلاً كما تستطيع النار الإحراق فسيستطيع الماء الإحراق أيضا ويسمى هذا بالمعجزة.

ولكن في الحقيقة أن إثبات القادر المختار لا ينبني على هذه المسألة، وهناك جماعة عريضة من المتكلمين أنفسهم لا يؤمنون بتماثل الأجسام ومع هذا يقولون بخرق العادة وأنه تعالى قادر مختار.

هناك تجاذب وتشابك فيما يتعلق بالمسائل المذكورة آنفا حتى تصل إلى الدين ولكن المسائل التي ترتبط بالدين ارتباطًا قريبًا هي في الحقيقة ترتبط بالدين ارتباطًا ضئيلاً، فمثلاً قدم العالم في رأي المتكلمين مخالف تمامًا للدين، فليس هناك أي إشارة لقدم العالم وحدوثه في القرآن الكريم والحديث، يقول المتكلمون: لو أن العالم قديم فلا يمكن أن يكون الله خالقه، وقدم العالم وكونه مخلوقًا ليس من الأمور المتعارضة عند الفلاسفة، وفي رأيهم أن العالم قديم أيضًا والله خالقه وكانت اليد تتحرك في ذلك الوقت، والقلم يتحرك في ذلك الوقت أي أن زمن حركة كل منهما واحد بالرغم من أن حركة القلم تنشأ من حركة اليد.

أو مثلاً فإن المتكلمين يعتبرون أن عالم الجزئيات هو من عند الله وينكر الفلاسفة ذلك، وفي هذا الإنكار إنكار صريح للنصوص القرآنية، لكن الواقعة الحقيقة أن الفلاسفة لا ينكرون أصل المسألة، ويقولون إن الله يعرف جميع الجزئيات، لكنهم لا يؤمنون بأن الله يعلم بالجزئيات عندما تأتي إلى حيز الوجود لأنها لو كانت كذلك لكان علم الله ليس بأزلي.

شبهات الملاحدة والرد عليهم:

وكما علمتم من الآراء السابقة فإن علم الكلام لم يعترض أو يواجه في أي وقت الفلسفة أو اليهود أو النصارى، ولا غرو فإن المشكلة كانت في مواجهة الملاحدة، وهم فرقة لم تكن تؤمن بأي دين وتنقد وتقدح في كل مذهب، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعارضون كل شيء من المسلمات الإسلامية لكنهم في الغالب كانوا يضعون القرآن الكريم نصب أعينهم، وقد نقل الإمام الرازي في كتابه التفسير الكبير اعتراضاتهم على القرآن الكريم في مواضع عديدة ونسبها لهم، فمثلاً الأحداث المذكورة في القرآن الكريم عن سيدنا سليمان والهدهد وبلقيس والنملة فإنه يقول في تفسيره إن الملاحدة اعترضوا عليها اعتراضات عديدة.

١- أنى للهدهد والنملة بهذه الأحاديث العاقلة.

٢- كان سيدنا سليمان في الشام فكيف يرسل الهدهد من هناك إلى اليمن ثم يعود قافلاً في طرفة عين.

٣- ذُكر عن سيدنا سليمان أنه كان ملكًا على الدنيا بأسرها ورغم ذلك لا يعلم بملكة مثل بلقيس ذات الشهرة والسمعة.

٤- كيف علم الهدهد أن السجود للشمس حرام ويستوجب الكفر. وقد نقل العلامة ابن حزم في كتابه الملل والنحل إحدى المناظرات مع ملحد شهير عاش في عصره اسمه عبدالله بن شنيف.

وقد عقد السكاكي بابا في نهاية كتابه المفتاح قدم فيه أجوبة على اعتراضات الملاحدة من حيث الفصاحة والبلاغة التي ورد ذكرها في القرآن، وكذلك نجد في المؤلفات الأخرى اعتراضات الملاحدة بكثرة، والأمر العجيب أن الفلسفة تطورت في الوقت الحاضر هذا القدر من التطور وكانت حصيلة النقد والتجريح وإثارة الشبهات تتضاعف بلا حدود، ومع ذلك فإن الاعتراضات التي اعترت المسائل الدينية في الوقت الراهن لم تكن أكثر منها من حيث العدد والدقة والقوة والبرهان مثلما كانت لدى الملاحدة في السابق.

وكتب الإمام الرازي بحثًا عن النبوة في كتابه "مطالب عالية" في ستين صفحة تقريبًا فصل فيها اعتراضات الملاحدة فقط في خمسين صفحة تقريبًا، وكذلك نقل في كتابه "نهاية العقول" آلاف الاعتراضات على لسان المنكرين لإعجاز القرآن المجيد، إن إزالة تلك الشبهات والاعتراضات في الحقيقة هي المهمة الأصلية لعلم الكلام، وتنقسم اعتراضات الملاحدة على القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

١- ذكر في القرآن الكريم أحداث ضد قانون الطبيعة مثل كل أنواع خرق العادة، والتحدث إلى الحيوانات، وتسبيح الجبال.

٢- أكثر الأحداث المذكورة مبنية على الوهم مثل: أثر السحر، ظهور الشيطان على هيئة إنسان.

٣- كثير من الأحداث متعارضة مع الأبحاث العلمية مثل الفرق في عين الشمس، وخلق الدنيا في ستة أيام، ونزول المطر من السماء، وخلق النطفة من مكان بين الظهر والصدر وغيرها من الاعتراضات التي أجابت عنها فرق المتكلمين بطرق مختلفة، ومن دأب الأشاعرة أنهم يسلمون بتلك الأحداث التي وردت في القرآن الكريم ثم يردون عليها،

أما قدامى المتكلمين فإنهم ينكرون أكثر الأحداث، ويقولون: إن المنكرين أساءوا تفسير القرآن الكريم، ومثالاً على ذلك نذكر بعض الاعتراضات مع الإجابة عليها.

مثال (١): مذكور في القرآن الكريم ومتعلق بسيدنا عيسى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يذكر عامة المفسرين في معنى هذه الآية أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، ولكن الله تعالى أبدله بشخص آخر على هيئة سيدنا عيسى وفهم الناس أنه سيدنا عيسى فصعدوا به إلى المشنقة، ويوردون عليها اعتراضات عديدة.

١- لو غيرنا الهيئة والشكل هكذا فلن يطمئن شخص ما إلى أنه هو نفسه الشخص أو أي شخص آخر.

٢- لو كان الله تعالى أنقذ سيدنا عيسى فإنه كان يستطيع أن ينقذه هكذا؛ ولهذا فما أهمية صعود مقترف الذنب إلى المشنقة.

٣- أرسل الله سيدنا جبريل لمساعدة سيدنا عيسى وقوته ومقدرته معروفة، وبالرغم من ذلك لم يستطيع أن ينجو بسيدنا عيسى من قبضة اليهود، وهل تقتضي الضرورة أن يتشبه سيدنا عيسى بهيئة رجل آخر بريء وينجو هو بهذه الطريقة.

نقل الإمام الرازي كل هذه الاعتراضات بتصرف وإضافات في التفسير الكبير ورد عليهم، والرد على الاعتراض الأول هو أن كل إنسان يسلم بأن قدرة القادر المختار تقتضي أن تجعل هيئة زيد وعمر متشابهة تمامًا، إلى جانب هذا لا يتطرق الشك إلى أي شخص آخر فيما يتعلق بزيد وعمر أن شكليهما قد تغير، وبهذه الطريقة لا تثار الشكوك حول الشكل الحالي، وجوابه على الاعتراض الثاني والثالث هو أنه لو أنقذ الله سيدنا عيسى بطريقة أخرى لوصلت بالتأكيد إلى حد

المعجزة ويكون الإيمان بها بعد ذلك حتمي، ولكن لا يقصد بالمعجزة أن الناس مُجْبَرون على تصديقها، كان هذا رد الإمام الرازي والذي توافق مع رأي الأشاعرة.

ولكن الباحثين الآخرين قدحوا زناد فكرهم حول معنى نفس الآية وقرروا أن معنى الآية ذُكر خطأ، وبسبب ذلك قامت الاعتراضات عليه، وقد دحضها المحدث ابن حزم بقوة في كتاب الملل والنحل وقال: "ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذي حاسة مسلمة لبطلت النبوات كلها إذا لعلها شبهت على الحواس السليمة".(١)

وفسر ابن حزم معنى هذه الآية بقوله إن سيدنا عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، لكن المعارضون أشاعوا صلبه فشك الناس في الحقيقة الأصلية وساورتهم الظنون وتساء لواعن أصل الواقعة.

مثال (٢): مذكور في القرآن الكريم أن حضرة موسى عليه السلام عندما أخذ السامري على اتخاذه العجل قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ كتب المفسرون في معناها العام أن السامري رأى جبريل عليه السلام يمتطي صهوة حصان فأخذ في ذلك الوقت قبضة من تراب تحت أظلاف حصانه ووضعها في بطن العجل فسرت فيه الروح بتأثير التراب، وبدأ ذلك العجل الطيني الكلام، وقد وردت هذه الواقعة في هذه الآية، وأجمع المفسرون على هذا المعنى في تفسير تلك الآية، وقالوا إنه من الممكن أن يكون في التراب مثل هذا التأثير لكن أبو مسلم الأصفهاني لم يقر معنى هذه الآية، ويقول إن هذه إحدى التعبيرات الشائعة عند العرب: الرجل يقف إثر فلان ويقبض أثره. وهذه الألفاظ يستعملها العرب في موقع الاتباع والتقليد، والمراد بالرسول هنا سيدنا موسى عليه السلام نفسه، ومعنى هذه الآية أن السامري قال إنني قلدت سيدنا موسى واعتبرت أن دينه هو دين الحق، لكن الآن يبدو أنه كان باطلاً ولهذا تركته أي ارتديت عنه، يبقى فقط الشك في هل

(١) الملل والنحل. طبعة مصر. ص ٦٩.

كان يخاطب السامري سيدنا موسى نفسه لأنه من حيث أسلوب الكلام كان يجب أن يقول له كنت قد قلدتك، ولا يقول أنني قلدت الرسول ولكن يجري الكلام هكذا عند مخاطبة الأمراء والرؤساء، ففي بلاط الدولة العباسية كانوا يخاطبونهم بكلمة أمير المؤمنين بدلاً من الخلفاء، وقول أبي مسلم الأصفهاني هذا رغم أنه مخالف لجميع المفسرين، لكن الإمام الرازي رجحه في التفسير الكبير وبين الأسباب المتعددة لهذا الترجيح الذي سطرناه.

مثال (٣): ورد في القرآن الكريم: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

في ذلك الوقت قال سيدنا إبراهيم عليه السلام لله تعالى: يا الله كيف تحيي الموتى؟ فقال له الله تعالى: أولم تؤمن يا إبراهيم؟ فقال سيدنا إبراهيم: بلى، ولكن أريد أن يطمئن قلبي، فقال له الله تعالى: خذ أربعة من الطير.. إلخ. أكثر المفسرين أخذوا هذا المعنى وأقروا أنه في الحقيقة قام سيدنا إبراهيم وقطع الطير إربا ثم عادت إليهم الحياة، ولكن أبو مسلم الأصفهاني اعترض اعتراضات عديدة على هذا التفسير، أولها أن معنى "صُرهن إليك" لا تفيد التقطيع، وأن كلمة صار يصور لو جاءت بهذا المعنى فإنها لا ترد بلفظ "صلة إلى"، ثانيها أن الضمير في كلمة "ادعُهن" مخصص لذوي الروح ولهذا سيكون معناه ادع الطير مع أنه طبقا لقول المفسرين معناه يجب أن يكون ادع الأجزاء المقطعة.

والاعتراض الأكثر قوة بين كلا الاعتراضين هو: لو كان هذا المقصود فما الحاجة إلى أربعة من الطير، ولكان تقطيع طائر واحد وإحياؤه كافيا، وفيما يتعلق بإزالة الشكوك فإن الإحياء أزالها فما دخل طائر أو اثنين أو أربعة في ذلك؟

وقد اختلف أبو مسلم الأصفهاني مع آراء جميع المفسرين وقرر أن معنى الآية هي أن الله تعالى قال لسيدنا إبراهيم على سبيل التشبيه مثلاً لو أنك أخذت أربعة من الطير وقطعتهن وتركتهن متفرقين على جبل ثم دعوتهن إليك سيأتينك، وهكذا عندما تدعوهن تدب في أجسادهن الروح وستحيى أجسادهم.

مثال (٤): جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ اعترض عليها الملاحدة، وقالوا إن الجبل ليس شيئا حيًا فكيف يستطيع التسبيح؟ يقول الأشاعرة إن الجمادية لا تتنافي مع النطق ولهذا يمكن للجبل وغيره أن يتكلم، وهكذا فقد أجاب الإمام الرازي في تفسير هذه الآية إجابة مطابقة لرأي الأشاعرة، ولكن المعتزلة عامة وبعض أهل المعاني لا يفسرون الآية بهذا التفسير بل يقولون إن تسبيح الجبال مثله كمثل ما قاله الله تعالى في موضع آخر ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾.

أي أن الألسنة تلهج بحمد الله والثناء عليه وكل شيء يسبح بحمده.

مثال (٥): ورد في القرآن الكريم: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾.

عامة المفسرين يقولون: إن وجود أولاد لسيدنا زكريا تقرر بمعرفة الله وأن يتوقف لسان سيدنا زكريا عن الكلام لمدة ثلاثة أيام، فكان لا يستطيع الحديث مطلقًا إلا بالإشارة. كان الاعتراض على هذا أولاً لأن هذه الحادثة خلافا للعقل، ثانيًا: ما علاقة هذا بالأولاد؟ يقول المفسرون إنها من قبل خرق العادة، وخرق العادة جائز. يقول أبو مسلم الأصفهاني إن توقف اللسان المراد منه الاعتكاف، لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يتحدثون في حالة الاعتكاف إلا بالإشارة والإيماءة، فقال الله تعالى لسيدنا زكريا عندما تشغل بالاعتكاف والعبادة فإنك ترزق بالأولاد، وبعد أن نقل الإمام الرازي رأي أبي مسلم هذا يقول: "وهذا القول عندي حسن معقول وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الخوض على الدقائق واللطائف".

مثال (٦): ورد في القرآن الكريم عند ذكر سيدنا سليمان: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ يقول الأشاعرة: إن حديث الطير ممكن أن سيدنا سليمان كان يستطيع فهم حديثهم وكان هذا من معجزاته. ولكن المحدث ابن حزم يقول حول هذه الآية:

لم ندفع أن يكون للحيوان أصوات عند معاناة ما تقتضيه الحياة من طلب الغذاء وعند الألم وعند المضاربة وطلب السفاد ودعاء أولادها وما أشبه ذلك، فهذا هو الذي علمه الله تعالى سليمان رسوله عليه السلام"

مثال (٧): في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ (النساء) عامة المفسرين فهموا معنى هذه الآية بأن الله تعالى خلق سيدنا آدم وخلق منه السيدة حواء، وهكذا فقد خلقت حواء من الضلع الأيسر لسيدنا آدم، ولكن أبو مسلم الأصفهاني بين معنى هذه الآية بقوله: معنى منها أي من جنسها أي أن السيدة حواء وسيدنا آدم خلقا من نفس النوع ولم يخلق أحدهم من ضلع الآخر ويشاطر الإمام الرازي أبو مسلم الأصفهاني الرأي.

الخلاصة: أن بيان أولئك الباحثين في جميع المواضع هو أن الناس فسروا معنى القرآن الكريم خطأ، ولهذا السبب يوردون هذه الاعتراضات.

كان أكبر اعتراضات الملاحدة أن ما ذكره الإسلام فيما يتعلق بأحداث ما بعد الموت هي أطماع صبيانية مثل أنهار اللبن والعسل والغلمان والحور العين، وجميع أنواع الفاكهة والقصور الشاهقة المرصعة بالجواهر.

إن عالم الآخرة وهو عالم مقدس بأسره لو هناك كذلك متاع حب الشهوات الدنيوية فما سبب ترجيحه على هذه الدنيا الذليلة؟ علاوة على هذا فإن كثيرًا من الأمور تدخل في نطاق المحالات والممنوعات مثل شهادة الأيدي والأرجل (الأعضاء) والمرور على الصراط ووزن الأعمال والبقاء في النار أحياء وغيرها.

هناك ثلاثة فرق فيما يتعلق بتلك الاعتراضات، فيسلم الأشاعرة أن كل هذه الأحداث ستقع هكذا بعينها، وليس فيها أي استحالة فشهادة الأعضاء ووزن الأعمال ودوام العذاب وغيره كلها خرق للعادات وخرق العادات جائز عمومًا. وفيما عدا الأشاعرة فإن باقي الفرق جميعًا يقولون بهذا الرأي وهو أن الحقيقة الأصلية

لأحداث ما بعد الموت شيء آخر، ولم تكن هناك أي طريقة أخرى للتعبير عنها سوى تلك الطريقة وتلك الألفاظ، ومع أن العلامة المحدث ابن تيمية ظاهري مشهور إلا أنه يذكر في رسالته "شرح حديث النزول" بعد تمهيد علمي: "ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بما وعدنا به في الدار الآخر من النعيم والعذاب وأخبرنا بما يوكل ويشرب وينكح ويفرش وغير ذلك فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا لم يفهم ما وعدنا به، ونحن نعلم مع ذلك أن تلك الحقائق ليست مثل هذه، حتى قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء".

وبعد أن شرح الإمام الغزالي عذاب القبر وعذاب الآخرة في كتابه "جواهر القرآن" يعبر عن رذيل الأخلاق من الناس بأنه ثعبان ويقول: "وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم وقوله تعالى: "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، بل سر قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ أي أن الجحيم في باطنكم فاطلبوها بعلم اليقين لترونها قبل أن تدركوها بعين اليقين، بل هو سر قوله تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ولم يقل أنها سيحيط بل قال هي محيطة وقوله: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ولم يقل يحيط بهم وهو معنى قول من قال أن الجنة والنار مخلوقتان فإن لم تفهم المعانى كذلك فليس لك نصيب من القرآن إلا في قشوره كما ليس للبهيمة نصيب من البر إلا في قشره وهو التبن، والقرآن غذاء الخلق كلهم على اختلاف أصنافهم ولكن به على قدر درجاتهم وفي كل غذاء مخ ونخالة وتبن".

وفي موضع آخر من هذا الكتاب يذكر ما يتعلق بأحداث ما بعد الموت "ويشتمل أيضا على ذكر مقدمات أحوال الفريقين وعنها يعبر بالحشر والنشر والحساب والميزان والصراط ولها ظواهر جلية يجري مجرى الغذاء لعموم الخلق ولها أسرار غامضة يجري مجرى الحياة لخصوص الخلق".

وكان من أكبر اعتراضات الملاحدة هو أن القرآن الكريم بـه الكثيـر مـن القصص والأساطير العقيمة التي كانت متداولة عند اليهود والمجوس مثل: هاروت وماروت وهما ملكان معلقان ومنكسان في بئر بابل يعلمون الناس السحر، يـأجوج ومأجوج وهما من الأقوام عجيبة الخلقة والذين أقام من أجلهـم الإسـكندر السـد السكندري، وشروق الشمس وغربها مرة ثانية من أجل سـيدنا سـليمان وطلـب الشيطان الإذن من الله تعالى ليهلك جميع آل وأولاد سيدنا أيوب وتركـه مريـضًا هناك حتى تعفن جسمه، وارتكاب سيدنا إبراهيم خطيئة الكذب عدة مرات واشتراك سيدنا آدم معه أي كان من بين أبنائه من سماه عبدالحارث، والحـارث اسـم مـن أسماء الشيطان.

وبالرغم من أن الرد على تلك الاعتراضات كان في الحقيقة جزءًا لا يتجزأ من علم الكلام ولكن كتب علم الكلام لم تراع ذلك ولم تذكره، ويرى المتكلمـون أن البحث في هذا الجزء مهمة المفسر والمحدث.

وخلاصة ما كتبه المفسرون فيما يتعلق بتلك القصص هو أن الجزء المذكور في القرآن الكريم صحيح، لكن الحواشي التي أضافها اليهود على الأحداث الأصلية غير صحيحة، وبناءً على ذلك فإن روايات بني إسـرائيل التـي أدخلهـا قـدامى المفسـرين في تفاسيرهم اعتبرها المحدثون ضعيفـة ولا قيمة لها هي والمفسـر الذي فسرها.

ومن كبار المفسرين القدامى الذين يعدون من الطبقة الأولى مجاهد، ومقاتل وابن سليمان، والكلبي، والضحاك، وسدي وقد نسب إليهم روايات قصص الأنبيـاء في التفسير الكبير وغيره من التفاسير وقد أُدخلوا تلك القصص إلى القرآن الكـريم وهي منقولة عنهم، ومع أن مجاهد من كبار الثقاة وإمام حجة إلا أن تفسيره لهـذا السبب غير موثوق به لأنه مأخوذ عن بني إسرائيل، وقد جاء في ميزان الاعتـدال للذهبي أن "رجلاً سأل الأعمش لماذا تعارض تفسير مجاهد؟ فقال بسبب أنه مأخوذ عن أهل الكتاب أي اليهود".

أما مقاتل فقد صرح المحدثون علانية أنه كاذب ومفترٍ مع أن الجريمة التي ارتكبها هي أنه كان يروي عن أهل الكتاب وكذلك استقر الرأي على أن روايات الضحاك وسدي والكلبي غير جديرة بالاعتبار عمومًا وهناك بحث مفصل في سيرة كل واحد منهم في ميزان الاعتدال للذهبي.

وقد كتب العلامة ابن خلدون بحثًا فريدًا في هذا الموضوع يقول: "وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم. ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل: كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفسيرات من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخبارًا موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل، وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك. إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارتهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يؤمئذ".(١)

---

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون. بحث علوم القرآن.

- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون. طبعة مصر. ٤٠٤ (المترجم).

ولم يكتف العلماء بهذا فحسب بل صرحوا بالأخطاء الخاصة في مضمون تلك القصص، وكذب الإمام الرازي تلك القصص بقوة في أكثر من موضع من التفسير الكبير.

علاوة على هذا فإن الباحثين بحثوا هذا الجانب وأعلنوا أن القصص المنقولة في القرآن الكريم منقولة من الناحية التاريخية أو على سبيل العبرة والنصيحة كما ذكر شاه ولي الله في كتابه "الفوز الكبير في أصول التفسير".

البحث في التأويل:

فسر المتكلمون وقدامى المفسرين ألفاظ القرآن الكريم وعباراته بطريقة تزيل اعتراضات الملاحدة بسهولة ولكن أثير بحث آخر عظيم الشأن يعني متى يجوز تأويل القرآن الكريم؟ ومتى لا يجوز ؟ وقد نشب خلاف شديد في الآراء فيما يتعلق بهذه المسألة، فمن ناحية كان إصرار المجسمة والمشبهة ألا يجوز تأويل كلمة واحدة فعندما ترد في القرآن الكريم كلمة أن الله له يد فالمقصود منها اليد ذاتها، ومن ناحية أخرى ففي رأي الباطنية أن كل كلمة في القرآن الكريم لا تخلو من التأويل حتى أن الصوم والصلاة والحج والزكاة ليس المراد منها المعنى الظاهري.

والأمر العجيب أن التأويلات التي تمت في القرآن الكريم في زماننا الحاضر كانت مثل تأويلات المفسرين لها في العهود القديمة. كتب الإمام الرازي في التفسير الكبير في تفسير سورة سبأ آية ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ﴾ إلخ. أن بعض الناس قالوا أنه مذكور في القرآن الكريم أن الريح كانت مسخرة لسيدنا سليمان عليه السلام وكان الجن والشياطين يعملون عنده ومعنى هذا أنه كان يربي الخيول السريعة وكان الجن في صورة إنسان يعملون عنده.

ومعجزة سيدنا عيسى المذكورة في القرآن أنه كان يحيى الموتى وتأويل هذا أنه يهدي القلوب الميتة ويمنحهم حياة أبدية خالدة.

وكانت جميع الفرق فيما عدا المشبهة والباطنية قد قرروا لهم قواعد وأصولا للتأويل، يعني أي المواضع يجوز فيها التأويل وأيها لا يجوز. وقد قرر الأشاعرة هذه الأصول وهي أن التأويل جائز ولازم في الموضع الذي يختارون فيه معنى لغويًا أو ظاهريًا والباقي لا يجوز التأويل فيه، مثلا ورد في القرآن. كلمة يد الله ومعناها اللغوي يد ولكن لو لله يد فمن اللازم أن يكون لله جسم مع أنه ثبت بالدلائل العقلية استحالة أن يكون لله جسم، وبناءً على هذا يأخذ الأشاعرة بالمعنى الظاهري لأحداث ما بعد الموت مثل ثعبان القبر والعقرب والميزان والجسر والصراط وغيرها، ولكن المحققين الآخرين توسعوا أكثر في هذه القاعدة، والبحث الأكثر دقة وتفصيلاً هو بحث الإمام الغزالي الذي توصل إليه في كتابه "التفرقة بين الإسلام والزندقة" ولهذا ننقل خلاصة عباراته بعينها بقدر الضرورة:

معنى التصديق هو أن ما يخبر الرسول به بوجود شيء يسلم بوجوده ولكن هناك خمس مدارج لهذا الوجود وكل فرقة تكذب الفرقة الأخرى بسبب الجهل بهذه المدارج. ولهذا فإنني أفصل القول في تلك المراتب الخمسة.

١- الوجود الذاتي أي الوجود الخارجي.

٢- الوجود الحسي يعني الموجود في الحاسة فقط، فمثلاً الأشياء التي نراها في الحلم وجودها فقط في حواسنا أو كما تتراءى صورًا خيالية للمرضى في حالة اليقظة، أو دائرة الشعلة التي هي في الحقيقة ليست بدائرة لكنها تبدو لنا دائرة.

٣- الوجود الخيالي: مثلاً رأينا زيدا ثم أغمضنا عيوننا ومات زيد وهو الآن يملأ عيوننا فهذا الوجود وجود خيالي.

٤- الوجود العقلي: أي الحقيقة الأصلية لأي شيء، فمثلاً عندما نقول إن هذا الشيء في يدنا فإن المعنى الآخر هو أنه في حدود مقدرتنا وتصرفنا، وأن قدرة اليد وسلطتها هو وجود عقلي.

٥- الوجود الشبهي: أي أن الشيء نفسه غير موجود لكن هناك شيئا متشابها له موجود.

ساق الإمام الغزالي أمثلة عديدة على كل قسم بعد بيان تلك الأقسام، فمثلاً ورد في الحديث "أن الموت سيأتي يوم القيامة على هيئة كبش وسوف يذبح ولهذا فإن وجوده حسي، أو مثلاً ورد في الحديث أن الرسول قال: رأيت يونس فقدم مثالاً خياليا لوجوده.

وبعد بيان الأمثلة التفصيلية يقول إن الأشياء التي ورد ذكرها في الشريعة إنكار وجودها مطلقا يعد كفرا، ولكن لو تطابق أي قسم من الأقسام المذكورة آنفا فإن التسليم بوجوده لا يعد كفرا لأنه تأويل، ولا مفر لأي فرقة من التأويل وكان الإمام أحمد بن حنبل أكثر من يتجنب التأويل، لكنه قام بتأويل هذه الأحاديث التالية بالتفصيل.

"الحجر الأسود يد الله" و"قلب المسلم بين أصابع الله" و"أشم رائحة الله تعالى تتضوع من اليمن". ثم يكتب ورد في الأحاديث أن الأعمال ستوزن يوم القيامة ولأن الأعمال تعرض فلا يمكن أن توزن ولهذا تأول جميعا، ويقول الأشاعرة: إن صحيفة سجل الأعمال ستوزن، ويقول المعتزلة إن المراد بالوزن هو كشف الحقيقة على كل حال كلاهما مارس التأويل. ويبقى الشخص القائل بهذا القول إن نفس الأعمال التي تعرض هي ذاتها التي ستوزن وينكشف العاقل والجاهل تماما.

بعد ذلك يخبرنا الإمام الغزالي بأصول التأويل ويذكر أن الأشياء التي ذكرت في الشريعة يجب الاعتقاد أولاً بوجودها الذاتي، ولو أن هناك دليلاً قطعيا موجودا

فليس المقصود منه الوجود الذاتي، فالوجود حسي ثم خيالي ثم عقلي ثـم شـبهي، والآن يبقى البحث في هذا الأمر وهو أن الدليل القطعي لشخص مـا لـيس كـذلك بالنسبة للآخر، ففي رأي الأشعري أن الدليل العقلي قائم على هذا الأمـر أي أن الله تعالى لا يمكن أن يختص بجهة ما، ولكن في رأي الحنبلي أنه ليس هناك أي دليـل على ذلك في حالة مثل هذه التأويلات لا يجب القول بكفر أحد بل يمكـن أن يقـال عليه على الأكثر أنه ضال أو مبتدع.

ثم يذكر أنه لو أردنا أن نكفر أحد بناء على التأويل فيجب أولاً رؤيـة تلـك الأمور، وهل هي قابلة للتأويل بالنص أم لا؟ ولو هي كذلك فهل هذا التأويل قريب أم بعيد؟ وهل النص ثابت بالتواتر أم الآحاد أم بإجماع الأمة؟ ولو هو بالتواتر هـل تتوافر فيه جميع شروط التواتر أم لا؟ ويُعرف التواتر بأنه لا يمكن الشك فيه بـأي شكل من الأشكال مثل وجود الأنبياء والمدن الشهيرة، أو القـرآن هـذه الأشـياء متواتر، وفيما عدا القرآن فإن إثبات تواتر الأشياء الأخرى غاية في الغموض لأنه من الممكن لجماعة كبيرة تتفق على أمر ما وتذكره بالتواتر مثلما يفـسر الـشيعة حديث ولاية الإمام علي كرم الله وجهه، لأنه من الصعوبة بمكان إثبات الإجمـاع، لأن معنى الإجماع أن يتفق جميع أهل الحل والعقد على أمر ما لفترة ما في الوقت وفي رأي البعض أن يظل هؤلاء الناس قائمين على هذا الاتفاق حتى نهاية العصر الأول، وعلى هذا أيضا فإن هذه المسألة يرون أنه في الوقـت الـذي ينعقـد فيـه الإجماع كان اختلاف المرء فيه جائزًا فلماذا ليس جائزا الآن؟

ثم يجب أن نرى أهو تواتر أم إجماع، لكن هل هذا الإجماع أو التواتر علمًا يقينيًا أم ل؟ بالنسبة للمؤولين؟ وإن كان ليس كذلك فلعله مُخطئ وغير مكذب.

ومن ثم يجب أن نلاحظ الدليل الذي بسببه يقوم ذلك الشخص بالتأويل، وهل تلك الشروط دليل على موافقة البرهان أم لا؟ ونحتاج إلى مجلدات لتفصيل برهـان الشروط ونبين هنا نموذجا مختصرا له، ولكن أكثر فقهاء العصر عـاجزون عـن

فيمها. والآن لو هذا دليل قطعي لتم إجازة التأويل، ولو غير قطعي فيمكن إجازة التأويل القريب وليس البعيد.

ثم يجب مراعاة أن المسألة قيد البحث تمت لأصل من أصول الدين أم لا ؟ وإن كان الجواب بالنفي فلن يكون هناك موارية، فالشيعة مثلاً يؤمنون بأن الإمام المهدي مختف في السرداب، وهذا وهم من الأوهام، لكن لم يعتر الدين أي خلل من هذا الاعتقاد.

والآن عندما يتضح لكم أن جميع الشروط المذكورة آنفًا من الضروري مراعاتها عند التفكير، ستدركون لماذا قال الأشعري: إن القول بتكفير الشخص المخالف يعد جهلاً، وكيف يفصل الفقيه في القضايا المذكورة آنفا اعتماذا على علم الفقه فقط، ولهذا عندما ترون فقيها ثروته العلمية الفقه فقط ويضلل أو يكفر أحدًا فلا تعيروه أي اهتمام.

ثم يذكر في أحد المواضع أن الأشياء التي لا ترتبط بأصول العقائد يجب التأويل فيها لا التكفير، مثلاً يقول بعض الصوفية: إن سيدنا إبراهيم لم يقل إن الشمس والقمر رب، لأن القول بأن لله جسمًا بعيد عن شأنه وعظمته ، وكان يراها ظواهر فلكية توارتية وكان يظن أنها الله، فإن مثل هذا التأويل يجب ألا يعد تكفيرًا أو تبديعًا.

إثبات العقائد:

علم الكلام في الحقيقة اسم للعلم الذي يهتم بإثبات العقائد، وهي في تاريخ علم الكلام بمثابة روح الكلام، لكن للأسف فإن مؤلفات القدماء فيما يتعلق به نادرة، وبالرغم من أن المتأخرين يوجد لديهم مؤلفات غزيرة ولا نهاية لها، لكنها جميعًا مصداقًا لهذا المصرع:

أصبحت أحلامي مضطر به من كثرة تعبيرها.

ومن أكبر زلات المتأخرين أنهم أضافوا إلى العقائد الإسلامية مئات الروايات التي لم يكن لها علاقة بالدين الإسلامي نفيًا أو إثباتًا، وكرسوا النصيب الأكبر من علم الكلام في الاستدلال وإثباتها، ولو اخترت مسائل العقائد في شرح المقاصد وشرح المواقف فسوف تصل إلى آلاف المسائل مع أن ما يمكن أن نطلق عليه اسم عقائد لا يتعدى عشرات المسائل، وأذكر فيما يلي بعض المسائل على سبيل المثال: صفات الباري ليست عين الباري، وقيام الحادث غير ممكن مع الله، والبقاء صفة وجودية زائدة عن أصل الوجود، السمع والبصر وهما من صفات الله يمكن أن يتعلقوا بجميع الحواس، كلام الباري ليس بالكثرة بل هو واحد محض، كلام الله يمكن أن يكون نفسيًا مسموعًا، الاستطاعة تكون قبل الفعل، المعدوم ليس بشيء، الجسم ليس شرطًا للحياة، والحاجة إلى العلة حدوث وليس إمكان.

والخطأ الثاني هو بقدر ما صرح الشارع بكثير من العقائد فإنه أضاف إليها، وهذه الإضافات أقرت جزءًا من العقيدة، أكثر هذه الاجتهادات كانت غير ذي فائدة، ولهذا كرسوا جميع أنواع الجبر والقهر لإثباتها وقد ذهبت جميعها هباء منثورًا، فمثلاً كان قد ورد في النصوص والروايات أن الموتى سيبعثون يوم القيامة ولم يكن هناك أي نص على أنه هو نفسه الجسم الأول أو أي جسم آخر، وقد أضاف الأشاعرة المتأخرون من جانبهم هذا القدر بأنه هو نفسه الجسم الأول، ولأن إعادة المعدوم أمر حتمي لهذا أقروها أيضًا كإحدى مسائل علم الكلام وأقاموا الأدلة على جوازها وهكذا في كثير من المسائل غير الضرورية أضافوها إلى العقائد، والطريف أن هذه العقائد تقررت معيارًا لأهل السنة والجماعة، وفي القرن الأخير فكر شاه ولي الله في هذا الخطأ ولهذا يقول في كتابه حجة الله البالغة: [١]

---

(١) شاه ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة. ص ٨و ٩.

"إن المسائل التي تختلف عليها الفرق الإسلامية تنقسم إلى قسمين، القسم الأول يوجد في أقوال الشارع ما يتعلق به، والثاني ما لم يذكر في القرآن الكريم والحديث الشريف ولم يتحدث بشأنه الصحابة، مثلا ما ليس فيه لزوم عقلي بين الأسباب والمسببات، وإعادة المعدوم جائز، والسمع والبصر صفاتان منفصلتان من صفات الله، الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء وغيره، هذه المسائل ليست معيارًا لأهل السنة والجماعة".

والكلمات الأصلية لشاه ولي الله هي: "وهذا القسم لست استصح ترفع أحد الفريقين على صاحبتها بأنها على السنة".

بعد ذلك يقول شاه ولي الله: "كون هذه المسائل سنية يمكن أن تكون معيارًا لأنه لو المراد اتباع السنة الخالصة فيجب ألا تدرج جميع تلك المسائل في علم الكلام، ولو أن الهدف من هذه المسائل أنها نجمت عن إثبات مقدمات الموقوف عليه، وتفصيل وتوضيح وتفسير مسائل القرآن والحديث لهذا يجب إدراجها أيضا ضمن المسائل المنصوص عليها فهذا غير صحيح أيضًا لأن الذي استنبطه هؤلاء العلماء من الكتاب والسنة ليس كله صحيحًا وجديرًا بالأفضلية، ولا يعتبر هؤلاء العلماء تلك الأشياء موقوفة عليهم، فالجميع في الحقيقة موقوف عليه ولم يقرر أولئك الناس الأشياء المردودة وهل هي حقًا مردودة؟ أم تفسير وتوضيح وتفصيل المسائل عند أولئك الناس أكثر صدقًا من تفسير وتوضيح الفرق الأخرى.

ويبقى الآن هذه المسائل وهي في الحقيقة من المسائل الأصلية للإسلام وما عساه أن يفعل علم الكلام في صحتها؟ والطريقة التي اختارها المتأخرون لإثباتها قائمة على ظهور الاعتراضات من الاعتراضات وتظل هذه السلسلة قائمة

باستمرار، وأذكر هنا في هذا الموضع مسألتين مهمتين لعله يتضح منهما منهج المتأخرين في الاستدلال.

إثبات وجود الله: يوجد نوعان من الأدلة البرهانية والخطابية في القرآن الكريم نفسه تتعلق بإثبات وجود الله، ولكن لم تذكرها كتب علم الكلام، والاستدلال القائم في كتب الكلام هو:

العالم حادث، والحادث يحتاج إلى علة، ولهذا فالعالم محتاج علة، وهذه العلة اسمها الله.

العالم ممكن ولأنه ممكن فهو يحتاج إلى علة.

الأعراض مثل اللون والرائحة وغيرها حادثة ولأنها حادثة فهي تحتاج إلى علة. جميع الأجسام متماثلة والأشياء المتماثلة تحتاج إلى علة للخصوصيات الخاصة.

هذه الدلائل الأربعة لا تخلو من العيوب، أولاً فإن كون العالم حادثًا أو ممكنا يتطلب بحثًا مضنيا، والقول بتماثل جميع الأجسام مجرد زعم لا برهان عليه، وعلاوة على تلك الآراء فإن هذه الدلائل مفيدة وتوجد بشكل سلسلة غير متناهية لكي تثبت الباطل، ولا أحد في الدهرية يستطيع القول أن سلسلة العلة والمعلوم تسير منذ القدم بطريقة غير متناهية، وقد أقام المتكلمون كثير من البراهين على بطلان عدم التناهي لكن تلك الدلائل يثبت منها فقط بطلان هذا الوجود غير المتناهي فقط، وتوجد كل أجزاء سلسلته مرتبة وإلا لو يُعتقد أن العلتين السابقتين تفنيان فلن يكون بطلانها بتلك الدلائل.

علاوة على كل تلك الآراء، فلو ثبت تلك الدلائل الأربعة، يثبت الوجود المحض للعلة، ولا يثبت أن العلة ذات سلطة وقادرة لأن العلة قسمان:

موجب بالذات مثل علة نور الشمس. وموجب بالإرادة مثل علـة الأفعـال الإرادية عند الإنسان، ولهذا كيف تثبت علة الله بالإرادة من إثبات العلـة المحـض مع أن هذا هو الهدف الأصلي.

النبوة: كان القدماء يستدلون على صدق النبـوة بطريقـة سـيأتي بيانهـا بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ولقد وضع المتأخرون محور صـحتها بحدوث معجـزة، والاعتراضات التـي وردت وإجابـات المتأخرين عليها أنقلـه هنا بالتفصيل.

وقد ذكر الإمام الرازي هذه الاعتراضات في كتابه " مطالب عالية"، ونقـل هذه الاعتراضات نفسها في كتابه "شرح المواقف" بشكل مجمـل ولا غـرو فقـد أضاف إليهـا بعض الإضافات، وكان الإمام الرازي قد أجاب إجماليًا على جميـع هذه الاعتراضات.

الاعتراض الأول: لو وقوع خرق العادات جائز فلن نعتد بالبديهيات وعندما يكون من الممكن بخرق العادة أن يتحول الإنسان إلى حمار وتشرق الشمس بعد أن تغرب، ويتكلم الحصى، ويخرج الموتى من القبور أحياء فماذا يبقى من مـصداقية بالنسبة لأي شي؟ والأشياء التي نعبر عنها باليقينيات كيف ستظل يقينية؟ لأنها مـن الممكن ألا تكون شيئًا عن طريق خرق العادة.

والرد على هذا الاعتراض أن خرق العادة ليس أعجب من خلق الـسماوات والأرض والجبال، وبناء على هذا لا يمكن لأي شخص إنكار إمكانية خرق العادة، ولا تثار الشبهة والشك عند أحد بأن زيدًا أصبح بكرًا أو أن الحمار صار رجـلاً، وهكذا لو أن خرق العادة شاذ ونادر الوقوع فلا يمكن أن يفرق عن الأمور اليقينية.

الاعتراض الثاني: كيف يمكن التأكد من أن الشيء الـذي يطلـق عليـه معجزة ليس سحرًا أو شعوذة؟

والجواب: لن يصدر عن السحر خرق للعادة عظيم الشأن مثلما يصدر عن المعجزة، فمثلاً انشقاق البحر، وإحياء الموتى، وبرأ الصم والبكم أجاب عنها شارح المواقف، لكن هؤلاء العلماء لم يفكروا أن المعجزات التي تصدر عن الأنبياء مختلفة ولن تكون جميعها عظيم الشأن، علاوة على هذا فإنه من المسلمات عند الأشاعرة أنه يمكن أن يتحقق جميع أنواع خرق العادة بالسحر، ولا غرو فالمعتزلة يقولون بهذا الرأي وهو لا يمكن لأحد خلق الطعم واللون والحياة والجسم إلا الله، ولكن الأشاعرة والمعتزلة لا يسلمون بهذا الرأي، وهكذا فقد كتب الإمام الرازي بحثًا مفصلاً في كتابه "التفسير الكبير" بين فيه واقعة هاروت وماروت ويذكر في موضع من هذا البحث: "أما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حمارًا والحمار إنسانًا"" أليس قلب الحمار إنسانًا أعجب من جعل الأعمى مبصرًا.

الاعتراض الثالث: تُعرف المعجزة بأنها الشيء الذي لا يستطيع أي شخص أن يأتي بمثلها، فما المقصود من هذا؟ فلو أن المقصود هو إنسان ذلك الزمان لكان قد ظهر كثير من السحرة ومدعى النبوة، وما استطاع أهل ذلك العصر أن يردوا على المشعوذين مثل زرادشت وعبدالله بن المقفع، ولو أن المراد من هذا ألا يستطيع أحد الرد عليها حتى يوم القيامة فما الدليل على هذا ؟ فالأفعال التي تصدر عن الأنبياء لا يمكن أن يكون لها مثيل حتى يوم القيامة، وقد رد الإمام الرازي على هذا الاعتراض في كتابه مطالب عالية، لكنه فيما عدا الجواب المجمل الذي سأذكره لاحقًا لم يقدم أي جواب خاص، وهذا الاعتراض غير مذكور في شرح المواقف وغيرها من الكتب.

الاعتراض الرابع: يقول الأشاعرة إن الجن والشياطين يمكن أن يحلوا في الأجسام ويتحدثوا من داخلها، وبناء على هذا يُشك في المعجزات، فمثلاً أي نبي يمكن أن يعرض هذه المعجزة بأن يجعل صوتًا يصدر من شجرة، وفي هذه الحالة

يظل هذا الاحتمال باقيا بأن الجن يتكلم بعد أن حل فيها، والإجابة على هذا الاعتراض أن كل الأفعال التي تصدر فاعلها واحد وهو الله، ولهذا فإنه ما يقوم به الجن وغيره من أفعال هي في الحقيقة أفعال الله، لكنني لم أفهم ما علاقة هذا الجواب بالسؤال؟

كانت هذه الإجابات التفصيلية، والإجابة الإجمالية على كل الاعتراضات مذكورة في "شرح المواقف" وهذه الاحتمالات عقلية واليقين بها لا يعتريه خلل، وأساس هذا الجواب قول الأشاعرة أن التأكد من معجزة النبوة لا تحتاج لزومًا عقليًّا بل تعود إلى أنها تجري مجرى العادة، فعندما تصدر المعجزة يصدقها الحضور، ولهذا فقد ذكر شارح المواقف في بحثه عن دلالة المعجزة بوضوح أن هذه الإجابة صحيحة إلى حد ما، ولكن بناءًا على هذا ما أفضلية المعجزة على السحر؟ فالساحر المتنبي عندما يظهر شعوذة وسحرًا عظيمًا يصدقه كثير من الناس، وهكذا فقد مر بنا أمثال هؤلاء المتنبين الكذابين الذين آمن بهم آلاف وآلاف من الناس.

وقد أجاب الإمام الرازي على جميع تلك الاعتراضات بشكل مجمل في كتابه مطالب عالية وهي أن الله هو خالق كل الأفعال ولهذا عندما تحدث المعجزة فإن الله يكون هو خالقها، ولأن الهدف من المعجزة تصديق النبوة، ولهذا من الضروري أن يتحقق هذا الهدف من المعجزة.

ومع أن الإمام الرازي أجاب على توجه الأشاعرة لكنه هو نفسه اعتبر هذا الجواب غير شاف، وبناءً عليه أثبت النبوة بمنهج وطريقة أخرى، قال عنها إن هذه الطريقة محفوظة من الاعتراضات والنقد، وقد ذكر الإمام الرازي هذه الطريقة بالتفصيل في كتابه "مطالب عالية" ولكن المتأخرين انتقدوه.

خلاصة القول: أن هذا أسلوب عامة المتأخرين الذين اختاروا هذه الطريقة في الاستدلال وكانت معقدة جدا ومليئة بالمعضلات في كل خطوة من خطواتها،

ولا غرو أن هذا الأمر كان من علو همتهم ومضاء عـزيمتهم بـشرط أن يجـدوا الحلول لتلك المشكلات.

والعقائد الإسلامية التي تعد أهم المسائل التي بنى عليها القدماء براهينهم هي في الحقيقة روح علم الكلام وعقله لكنني رحلتها للجزء الثاني وهذا الجزء لا يبعـد عنا كثيـرًا فـهو في الوجه الثاني لهـذه الـصفحة وعلـى القـراء أن يقلبـوا الصفحة مشكورين.

الجزء الثاني

الكلام

مقدمــة

الدين الإسلامي اسم لمجموعة من ثلاثة أركان هي: العقائد، والعبادات والأخلاق. وأصل أصول العقائد ركنان هما: وجود الباري، والنبوة. وهذا الكتاب بحث في هذين الركنين، أما باقي المباحث فسيرد ذكرها تباعا وضمنيا.

والقرآن الكريم كلام الله هو أساس العقائد؛ ولهذا فمن المفيد أن يؤلف له كتاب مستقل؛ ولذلك فإنني لم أتناوله بالبحث في هذا الجزء وأعد له كتابا مستقلاً لعله يكون الجزء الثاني لكتاب "الكلام"، وربما أسميه "علوم القرآن". وسوف أتناول في هذا الكتاب كذلك بيانا للأخلاق والعبادات، وهكذا ستكتمل سلسلة علم الكلام في ثلاثة أجزاء، أما سيرة حياة المتكلمين فستكون بمعزل عن هذه السلسلة. أدعو الله أن يُهَيِّئ لي الأسباب لإنجاز هذه الأعمال.

علم الكلام الجديد

لا يمكن الوصول إلى الحقيقة بالحوار لكن.

من الممكن تزيين الخرافة بالجوهر النـــادر.

على الرغم من أن المادة العلمية الأولى لعلم الكلام الجديد كما ذكرنا في مقدمة الجزء الأول هي نفسها علم الكلام القديم فإنه يمكن القول كذلك أنه جيد من حيث التدوين والترتيب، وتفصيل هذا الإجمال على النحو التالي:

لقد قرأتم أن علم الكلام له طرق مختلفة وفروع متعددة من بينها علم الكلام عند القدماء والتي يستحق أن نطلق عليه علم الكلام الحقيقي، ولكن لا يوجد الآن مؤلف واحد من مؤلفات علم الكلام عند القدماء، وإن كان يذكر نتف متفرقة من أقوال القدماء في التفسير الكبير والكتب الكلامية والملل والنحل، ويجب جمع كل هذه الأقوال وفحصها ودراستها لأنه يرد فيها أهم مسائل علم الكلام.

كان من بين المتأخرين أناس من أهل الحقيقة سلكوا هذا المسلك فكانوا يؤلفون الكتب الدراسية وفقًا للذوق العام، وكانوا يظهرون معتقداتهم وأفكارهم الأصلية في كتب أخرى وكانوا يؤكدون على عدم إظهارها للعوام، فعلى سبيل المثال هناك مؤلفات عديدة للإمام الغزالي منها: قواعد العقائد والاقتصاد وتهافت الفلاسفة وغيرها لكنه هو نفسه صرح في مواضع عديدة من مؤلفاته أن هذه المسائل المذكورة في تلك المؤلفات لا تحمل الحقائق الأصلية، بل هي من أجل الحفاظ على عقائد العوام. ويذكر في بيان العلوم القرآنية في كتابه (جواهر القرآن):

"الثاني في محاجة الكفار ومجادلتهم ومنه ينشعب علم الكلام المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات ويتكفل به المتكلمون، وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين سمينا الطبقة القريبة منها الرسالة القدسية والطبقة التي فوقها الاقتصاد في الاعتقاد ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ولا يكون هذا العلم مليًا بكشف الحقائق وبجنسه يتعلق الكتاب الذي صنفناه في تهافة الفلاسفة والذي أوردنا في الرد على الباطنية في الكتاب الملقب بالمستظهري وفي كتاب حجة الحق وقاصم الباطنية وكتاب المفصل للخلاف في أصول الدين".

وبصرف النظر عن تلك الآراء فإن مؤلفات الإمام الغزالي نفسها تستشهد بهذا الأمر وهي نفس العقائد التي تؤكد عليها الكتب الكلامية بقوة، ويؤكد في مؤلفاته الأخرى أن الحقائق الأصلية لتلك العقائد شيء آخر.

أما المؤلفات التي بين فيها الإمام الغزالي العقائد الأصلية للإسلام وحقائقها فقد حرص على إخفائها بعناية فائقة، ولهذا السبب لم تلق رواجًا بالرغم من أنها سهلة ومختصرة، وقد كتب عن العقائد المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله والقيامة بإسهاب في كتابه "إحياء العلوم" لكنه يذكر في كتابه "جواهر القرآن"[1]:

"وهذه العلوم الأربعة أعني علم الذات والصفات والأفعال وعلم المعاد أودعنا من أوائله ومجامعة القدر الذي رزقنا منه مع قصور العمر وكثرة الشواغل والآفات وقلة الأعوان والرفقاء بعض التصانيف، لكنا لم نظهره فإنه يكل عنه أكثر الأفهام ويستضيء به الضعفاء وهم أكثر المتوسمين بالعلم، بل لا يصح إظهاره إلا

(١) لدىّ نسخة كاملة من "جواهر القرآن" طبعت بعض أجزائه في بومباي وفيه هذه العبارة.

على من أنفق علم الظاهر وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس طرق المجاهدة حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل فلم يبق له حظ في الدنيا ولم يبق له طلب إلا الحق ورزق مع ذلك فطنة وقادة وقريحة منقادة وذكاءً بليغًا وفهما صافيا، وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع فيه هذه الصفـــات" وقد أمعن الإمام الغزالي النظر جيدًا في تلك الكلمـــات يقول: "لو أنني كشفت الحقائق الأصلية أمام الناس فإن أفهامهم لن تستوعبها وتلحق بهم الأضرار وربما يعتقد المرء أن هذه هي حالة العوام، فهلا أمكنا إظهار الحقائق أمام العلماء وعندئذ يصبح علماء العصر الحاضر صنوًا للعوام.

ويتجلي من هذا بوضوح أن إظهار الحقائق الأصلية تغضب الجمهور ولهذا فإن هذه المرتبة يستحقها من لا يعير العوام أي اهتمام.

ولقد قرأتم في سيرة الإمام الرازي كيف أنه يظهر أفكاره الأصلية بأساليب غير تقليدية، وكتب ابن رشد في مؤلفاته بوضوح أنه ينبغي عدم إظهار الحقائق الأصلية أمام الجمهور.

طريقة تدوين علم الكلام الجديد:

والآن فإن مهمة الذين يؤلفون علم الكلام الجديد أن يوقفوا على العامة ما تزخر به خزائن أولئك العلماء.

لقد كان علم الكلام القديم منصبًا فقط على بحث العقائد الإسلامية لأن المخالفين للإسلام في ذلك العهد كانت اعتراضاتهم تتعلق بالعقائد ولكن في الوقت الحاضر يبحث في الجوانب التاريخية والحضارية والأخلاقية للدين. إن عقائد أي دين عند الأوربيين لا تكون جديرة بالاعتراض إلى هذا الحد ما لم تكن هذه المسائل قانونية وأخلاقية، وفي رأيهم أن إباحة تعدد الزوجات والطلاق والرق

والجهاد في أي دين لهو أكبر دليل على بطلان هذا الدين، بناء على هذا سيتم بحث هـذا النـوع من المسائـل في علم الكلام، وهذا الجـزء بالكامـل عن علم الكلام الجديد.

أهم الأشياء الضرورية في هذا الصدد أن تقدم مثل هذه الدلائل والبراهين بأسلوب بسيط وواضح تستوعبه الأفهام بسرعة ويستقر في القلب، فقد كان يستخدم في المنهج القديم مقدمات معقدة ومتشابكة، ومصطلحات منطقية وأفكار دقيقة وحساسة جدًا فكان المخالف يصمت بعد أن يصاب بالرهبة، ولكن لا يوقر في قلبه حالة من الوجدان والإيمان.

المهم أنه يجب مراعاة تلك الأمور المذكورة عند تأليف علم الكلام الجديد وفي النهاية من الضروري أن نذكر أسماء أولئك العلماء بشكل خاص والذين أخذنا عنهم علم الكلام وهم: أبو مسلم الأصفهاني والقفال وابن حزم والإمام الغزالي وراغب الأصفهاني وابن رشد والإمام الرازي وشاه ولي الله الدهلوي.

الدين والعلوم الحديثة

أثيرت ضجة عارمة في العالم بأسره مفادها أن العلوم الحديثة والفلسفة الحديثة تزلزل أركان الدين، وقد ظل هذا النوع من الأصوات يرتفع دائما في معركة الدين والفلسفة، من هذه الناحية لم تكن هناك أي أحداث جديدة ولكن الزعم في الوقت الحاضر أن الفلسفة القديمة كانت مبنية على قياسات وظنيات ولهذا لم تستطع استئصال الدين، على العكس من ذلك فإن الفلسفة الحديثة قائمة على التجربة والمشاهدة ولهذا لا يمكن أن يبرأ الدين إزاءها بأي طريقة.

كان هذا الصوت العام الذي انبعث من أوربا ودوي صداه في الدنيا بأسرها، ولكن يجب علينا أن نمعن فيه النظر لنرى أي قدر من المغالطة في هذه الحقيقة.

والفلسفة عند اليونان كانت اسما لمجموعة من الطبيعيات والعناصر والفلك والإلهيات وما بعد الطبيعة ولكن الأوربيين قسموا الأصول الصحيحة قسمين، القسم الأول هو المسائل الثابتة واليقينية بناء على المشاهدة والتجربة ومنحوه لقب العلم. والقسم الثاني المسائل التي لا تستوعب التجربة والمشاهدة وسموها الفلسفة.

وهناك فكرة عامة منتشرة بالنسبة للموضوعات الجديدة وهي قطعية ويقينية، وأولى أخطائها هي أن الأشياء القطعية واليقينية تعد مسائل قاصرة على العلم ولهذا السبب فإن العلماء في أوربا ليس بينهم أي نوع من الاختلاف حولها، بينما لا توجد هذه الحالة في الفلسفة، وفي أوربا الآن عشرات المدارس في الفلسفة المعاصرة وبينها اختلافات شديدة ولو سلمنا جدلاً بصحتها فسوف نؤمن أن الشيء الواحد يمكن أن يكون أبيض وأسود في نفس الوقت.

والآن يجب أن نعلم: ما علاقة الدين بالعلم؟ فالعلم هو أشياء يمكن إثباتها ونفيها ولا علاقة للدين بها قط، مثل: ما مقدار العناصر؟ وما الأشياء التي يتركب منها الماء؟ ما وزن الهواء؟ ما سرعة الضوء؟ ما عدد طبقات الأرض؟ فهذه المسائل وغيرها من هذه النوع من المسائل تعد من موضوعات العلم ولا علاقة لها بالدين. أما الدين فيبحث في الأشياء التالية: هل الله موجود أم لا؟ هل هناك أي نوع من الحياة بعد الموت أم لا؟ هل يوجد خير وشر وجمال وقبح أم لا؟ هل هناك ثواب وعقاب أم لا؟ أي شيء منها يستطيع أن يمسه العلم؟ فأساتذة العلم عندما يتحدثون يقولون: إن هذه الأمور بالنسبة لنا ليست علما، لأن هذه الأشياء خارجة عن نطاق التجربة والمشاهدة أو أننا لا نؤمن بهذه المسائل وأننا نعتقد بتلك الأمور التي يمكن أن تثبت بالتجربة والمشاهدة، وقصار النظر يدركون علم العدم من عدم العلم ويقول العلماء: إننا لا نعلم بهذه الأشياء، وقصار النظر يفهمون هذا المعنى بأن هذه الأشياء غير معلومة لنا مع أنهم في كلا الرأيين بينهما فرق السماء والأرض.

ويعمل الأوربيون طبقا لأصول تقسيم العمل أي أن جميع أهل الفن يقسمون العمل فيما بينهم، وكل فرقة منهمكة في عملها ليس لها أي علاقة بالأشياء الأخرى قط، ولديهم فرقة الماديين وموضوع بحثها المادة، وهذه الفرقة تستكشف أسرارًا عجيبة تتعلق بالمادة، وهذه هي الفرقة التي ينسب إليها أن مذهبهم ينكر وجود الله لكنهم في الحقيقة لا ينكرون هذه الأشياء بل يقولون إن إثبات هذه الأشياء خارج عن نطاق أبحاثنا. ويذكر البروفيسير ليتريه (Lettre) أكبر علماء هذه الفرقة: "لأننا غير واقفين على بداية الكائنات ونهايتها لهذا ليس من وظيفتنا ولا من سلطتنا أن ننكر وجود شيء أزلي أو أبدي كما أنه ليس من عملنا أن نثبته، والمذهب المادي نفسه بعيد عن البحث في وجود العقل الأول لأنه لا يوجد أي نوع من العلم يتعلق به، ونحن لا ننكر الحكمة الإلهية ولا نثبتها ويظل عملنا بعيدًا كل البعد عن النفي والإثبات.

وذات مرة نشر هذا الموضوع في مجلة طبية فرنسية: "ينشأ الإدراك والفكر من هذا الفسفور الذي في الدماغ وأن الفضائل البشرية مثل الشجاعة والإخلاص وشرف النفس وغيرها عبارة عن موجات كهربائية". وقد كتب العالم الفرنسي الشهير كيميل فلامر يان (Camille Flamm arian) وهو من كبار علماء الطبيعة مقالاً خاطب فيه كاتب المقال هكذا: "ما هذا الذي قلته؟ ربما ظن الناس أن أساتذتك علموك إياها، لكن هذا الاعتقاد خاطئ، أنا لا أعلم هل هذا الزعم الأخرق أكثر جدارة بالتعجب؟ أم جرأت مدعي العلم؟ كان كبلر (Kepler) يقول: افرض أن تلك الأشياء على العكس من هذا، أنت تقول: "نحن نؤكد" نحن على باطل فهذا موجود وهذا معدوم. العلم هو من يقرر العلم وهو الذي يؤكد لكم تلك المزاعم وليس عندكم بريق الدلائل العلمية وأنت بحماقتك تشجعت وأثقلت على العلم إلى هذا الحد، والكلام الذي تقوله لو سقط في منجم العلم لأصيب، ولأنك ابن العلم سوف تضحك على حماقتك، أنت تقول: إن العلم مثبت ومنفي وآمر وناه، وبعد أن قال هذه

الآراء يرى أنها ستترك كلمات ثقيلة على شفاة غريب العلم وسيتملك قلبه الغرور فيل العلم يا عزيزي بعد هذا في جميع المسائل لا يثبت شيئا ولا ينفيه؟

كان هذا رأي كبار خبراء الماديين لكن بعضهم تجاوز الحد بإغرائه لشباب وطننا الهند؛ ولهذا يجب أن نرى هذا بمزيد من التفكير والإمعان وما الدلائل التي أقاموها على مزاعميم، وننقل هنا على سبيل المثال أقوالهم في مسألة من أهم المسائل تتعلق بوجود الروح.

يقول الدكتور شيفر (sheffer): إن "الروح اسم لقوة المادة تنشأ من الأعصاب"، ويقول دير شوكا: إن "الروح نوع من الحركة الميكانيكية"، ويرى بوشنر (Buchner) أن "الإنسان أحد نتائج المادة فقط". ويقول دو بوا ريموند (Du Bois – Reymond) "يوجد تموج كيربائي في جميع الأعصاب يسمى الفكر وهو اسم لحركة المادة. ويري دوتروشيه Dutrochet وهو من كبار علماء العلوم الفيزيائية: "قطرة الحياة ليس ليا أي قاعدة أصلية ولكنها أحد استثناءات الصدفة والتي تخالف الأصول العامة للمادة، وكانت إحدى أشهر مجلات فرنسا قد ذكرت في مقالة لها أن "الفوسفور الذي يوجد في الدماغ يعد من أسباب التفكير وأحد نتائجه والأشياء التي تسمى فضيلة وشجاعة وإخلاص هي موجات كهربائية لأعضاء الجسم".

هل يمكن أن تعد هذه الآراء من الأمور القطعية، وهل يمكننا أن نزعم بناءً عليها أن نؤكد أن الروح باطلة، الحقيقة أن حدود الدين والعلم منفصلة تمامًا، فالموضوع الذي تناوله العلم لا علاقة للدين به، والأشياء التي يبحثها الدين لا مصلحة للعلم فيها، وفي بعض الموضوعات تصطدم الفلسفة وتتعارض مع الدين لكنها لا تعد من الأمور اليقينية والقطعية؛ ولهذا السبب ليا مدارس مختلفة، وهذه المدارس تختلف مع بعضها البعض اختلافًا شديدًا، بعضها ينكر وجود الله وأكثرها يقر بوجوده سبحانه وتعالى، ووجود الروح لها مقرون ومنكرون، والأصول الأخلاقية عند فرقة شيء وعند الأخرى شيء آخر، وفي هذه الحالة يظل الدين في

مأمن من هذه الناحية. لقد ظهر في ذلك الوقت اختلاف وتباين في البحث، فعندما يتجاوز كل من الدين والعلم حده يتراجع حدود الآخر وكان هذا التباين في البحث هو الذي منح القوة لأفكار الملاحدة والمنكرين للذين، بل إن هذا التباين في البحث هو الذي أشاع أفكار الزندقة والإلحاد في الحقيقة. لقد انتشر الدين في أوربا في بداية الأمر ولم تنجح أي مسألة علمية من أي نوع من تدخل الدين، وهكذا فإن الغرض من هذا الهدف جعلهم يقيموا محاكم التفتيش في إسبانيا وكان مهمتها التحقيق مع الناس الذين يجاهرون بشيء ضد الدين ويتهمونهم بالكفر والردة وهكذا في غضون ثمانية عشر سنة أي من سنة ١٤٨١إلى سنة ١٤٩٩م قاموا بحرق ١٢٢١ شخصًا أحياء بتهمة الردة، وقد أقر هذا المجلس منذ تأسيسه وحتى إغلاقه بتكفير ٣٤٠ ألف رجل أحرق منهم مائة ألف ونيف.

وهذا النوع من الحديث عن التهمة بالكفر يمكن تقديره من الأحداث التالية: لقد أنكر كوبر نيكوس نظرية بطليموس وأثبت أن الأرض والقمر وغيرهما يدوران حول الشمس وبناءً عليه أصدرت محكمة التفتيش فتوى بأن هذا الرأي مخالف للكتاب المقدس وعليه عُد كوبر نيكوس مرتدًا وكافرًا.

كتب جاليليو مخترع المنظار كتابًا دافع فيه عن كوبر نيكوس، وأثبت فيه أن الأرض تدور حول الشمس فأصدرت محكمة التفتيش حكمًا بأنه يستوجب العقاب فأوقفوه على ركبتيه وأمروه أن ينكر هذه المسألة وعندما ظل ثابتًا على رأيه اقتيد إلى السجن وقبع فيه عشر سنين.

وعندما أراد كولومبس السفر أملاً في اكتشاف جزيرة جديدة أفتت الكنيسة بأن هذا النوع من الرغبات مخالف للدين. وفي بداية الأمر عندما ظهرت فكرة دوران الأرض عارضها القساوسة معارضة شديدة وقالوا: إن هذا الاعتقاد مخالف للكتاب المقدس.

المهم أن القساوسة اتهموا جميع أنواع الاكتشافات والاختراعات العلمية بالكفر والردة، ورغم هذا فقد ذهبت جهودهم أدراج الرياح عندما ترعرعت الاكتشافات العلمية وأزهرت العلوم والفنون وأثمرت في ظل التفكير.

وبالرغم من أن أوهام القساوسة وخرافاتهم قد تمكنت من تحجيم العلم، ونتيجة لهذا اعتبرت جماعة العلماء أن أوهام القساوسة وأفكارهم جزءًا من الدين، وبناءً على هذا استقر الرأي لديهم بقوة أن الدين تعريف لشيء مخالف للحقيقة والعلم، وهذه هي الفكرة الأولية التي مازال رجع صداها يتردد في أرجاء أوربا حتى اليوم.

لا شك أن الدين إذا كان تعريفه هكذا فلن يستطع بأي طريقة أن يثبت في مواجهة العلم، فالإسلام أعلن منذ أول يوم "أنتم أعلم بأمور دنياكم" ومن الطبيعي أن العلم وجميع العلوم الحديثة في هذه الدنيا لا علاقة لها بالآخرة والمعاد.

وهذه الفكرة جديرة بالتمعن هنا في هذا المكان، لقد نشأت مئات الفرق في الإسلام وظل بينها هذا القدر من الخلاف، فكانت إحداها تكفر الأخرى، وهذا التكفير لا ينحصر في المسائل الكبرى فحسب بل في الأمور الصغيرة كذلك وكانت الفرقة منها تخرج الفرقة الأخرى من دائرة الإسلام ومع كل هذا لم يكفر أي عالم بناءً على أبحاثه واكتشافاته العلمية.

وكان قدامى المفسرين يعتقدون أن الماء يأتي من السماء وأن في السماء نهرًا يأخذ السحاب منه الماء وينزله مطرًا، وأن الشمس تغرب في عين ماء، وأن الأرض مسطحة وليست كروية، والنجوم التي تتحطم ما هي إلا الشعلات النارية للشياطين، وكان المفسرون يعتبرون جميع هذه الأفكار ثابتة بنصوص القرآن، وهكذا فقد نقل الإمام الرازي جميع هذه الأقوال في "التفسير الكبير" عن قدامى المفسرين.

لكن عندما جاء العصر العلمي للعباسيين وطوروا الفلسفة، والعلوم الطبيعية خالف الناس تلك الأفكار وبالرغم من هذا لم يقل أحد من جماعة المفسرين أنفسهم إن أولئك الناس كفارٌ ومنكرون للقرآن، وبناءً على هذا يكفر المحدثون المعتزلة لقولهم إن القرآن مخلوق، لكن طبقا لهذا لم يقل أحد بكفرهم لإنكارهم حقيقة السحر. عمومًا من الثابت أن المسلمين لم يعتبروا الدين عدوًا منافسًا للأبحاث والاختراعات العلمية، وصرح الباحثون بوضوح أن أسباب الكائنات ومسائل الهيئة وغيرها منفصلة تمامًا عن حدود النبوة، وليس للأنبياء أي مصلحة أو غرض من شيء سوى تهذيب الأخلاق. يذكر شاه ولي الله في كتابه "حجة الله البالغة":

> "ومن سيرتهم ألاّ يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة كبيان حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة وعجائب النبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان وفحواها اللهم إلا كلمات يسيرة ألفها أسماعهم وقبلها عقولهم يؤتى بها في التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله على سبيل الاستطراد بكلام إجمالي يسامح في مثله بإيراد الاستعارات والمجازات ولهذا الأصل لما سألوا النبي عن علة نقصان القمر وزيادته، أعرض الله تعالى عن ذلك على بيان فوائد الشهور، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾

بعد أن أخبرنا شاه ولي الله بأصول تعليم الأنبياء من ذا الذي يستطيع القول أن الديـن الإسلامـي يحتمل أن تلحق به أي نوع من المخاطر بسبب العلم والعلوم الجديدة.

الدين يدخل في فطرة الإنسان

قارنوا بين الإنسان[١] والحيوان، إن احتياجات الحيوان تنشأ مصاحبة له، فملابسه معه تتغير وتتبدل باختلاف الفصول وتنشأ معه أسلحته من مخالب ولدغ وأظافر لمواجهة الأعداء، وهي مخلوقة معه ليحصل بها على غذاءه وهو محور حياته وعليه يجد كل شيء مهيأ له في كل مكان في الغابات أو الجبال، في البر أو البحر، في الخراب أو العمران.

أما في حالة الإنسان فإنه عندما يولد فإنه يولد وليس عنده أي نوع من المتاع، فجلده رقيق، وأيديه وأرجله ضعيفة وليس على جسمه أي رداء وليس لديه مخالب أو قرون لتحميه من الأعداء ومعه أشياء عديدة من عالم الفطرة متفاوتة وكلها تناصبه العداء فحرارة الشمس وبروده الشتاء وكل شيء يريد أن يحطمه ويقضي عليه.

ولم تمنحه الطبيعة أي سلاح جسماني لمواجهة تلك المشاكل والمصائب ولم يكن يستطيع أن يكتفي بأي آله جسمانية لمواجهة أعدائه الأقوياء الذين لا يحصون عددًا وقد منحته الطبيعة قوة عامة بدلاً من تلك الأسلحة، والتي عن طريقها هيأت له أدوات منفصلة لمواجهة كل أنواع الأعداء، وأعدت له جميع أشكال الملابس والمنازل لتقية البرد وحرارة الشمس، كما وفرت له السيف والخنجر لمبارزة

---

(١) من الضروري في هذا المكان وفي هذا الجزء أن أنقل أقوال علماء أوربا وفلاسفتها من أن لآخر لكنني لم أتحمل مشقة الاطلاع على مؤلفاتهم الأصلية واعتمدت على مؤلفات كاتب مصري فاضل اسمه فريد وجدي بك وله مؤلفان في هذا البحث هما: تطبيق الديانة الإسلامية والحديقة الفكرية ويجب أن أذكر هنا أن أكثر علماء أوربا الذين أنقل أقوالهم هنا ألمان وفرنسيون والمثقفون لدينا لا يعرفون إلا اللغة الإنجليزية ويجب ألا أخطئ في نقل أسمائهم.

الحيوانات وسخـــرت له الجســـور على البحور ونحت الجبـــال وصهـــر الحديد والكهرباء وتصريف الرياح، المهم أنه بعد فترة وجيزة رأينا أن جميع الكائنات صارت في نطاق سيطرته.

العقلي الكلي:

هذه القـــوة العامة تسمى العقل الكلي أو العقل الإنسانـــي، لكن لأن الطبيعة قبلت التطورات البشرية بعد أن وصلت إلى أعلى نقطة من السمو والرفعة لهذا فإنهـــا (أي الطبيعة) لم تمنح الإنسان لحظة واحدة من الراحة فكانت تمد أعداءه بأسلحة جديدة للهجوم على الإنسان بأساليب وطرق جديدة، وعندما يعلم المرضى العلاج تظهر أمراض جديدة، وهي تخبره بمناطق معمورة ومأهولة من جغرافية العالم علاوة على المناطق المعروفة وهناك تعترضه احتياجات جديدة عندئذ تهيأ له سبل الراحة والطمأنينة وبعد أن تتزايد أسباب الراحة تتوقف عن العمل فيضطر الإنسان إلى أن يتخـــذ ترتيبات جديدة لمنافســـة أعدائه الجدد ويتجاوز الرقي الذي وصل إلى مداه.

هذا الصراع المتبـــادل بين الإنسان والكون هو نفسه أصل أصـــول رقي الإنسان وعن طريقه ظهر اليوم سلسلة من مئات الآلاف من المخترعات الجديدة وتتضاعف يومًا بعد يوم ولكن هناك جماعة أخرى من الأعداء أشد خطرًا وأكثر شراسة من الأعداء الخارجيين وتوجد داخل الإنسان نفسه وتظل دائما تتصارع معه صراعا شرسا ويحفزه الطمع على الاستيلاء على جميع أموال وثروات القريب والبعيد والعدو والصديق والأجنبي والمقرب، وتقتضي متطلبات الحقد أن يمحو اسم أعدائه من صفحة الوجود، ويقول له الجاه لا تسترح مادام جميع هامات العالم لم تنح لك، وتجبره شهوة الهوى على ألا يجعل أحدا في الدنيا بأسرها يحتفظ

بعصمتـــه، ويعمل العقــل إلى حــد ما لإنقاذه من أولئك الأعداء ويخبره قائـــلاً: لو لم تعمد إلى شرف أحد وعزته فسيعمد هو كذلك، ولو لم ترد تحطيم أحد فسيحطمك هو، ولو لم تنل من عزة الآخرين فإنهم ينالون منك، ولكن هذا النوع من الرؤية المتقدمة للعقل هي أولاً خاصة بالأشخاص المتعلمين، علاوة على هذا فإنهم سيواجهون الكثير من الفرص حيث لا يخافون على الإطلاق من هذا النوع من الانتقام مثل: الخوف من الحكومة والهلع من الجاسوسية واحتمال الفضيحة وسوء السمعة وخطــر الانتقــام. وفــي مثل هذه المناسبات لا يستطيع العقل أن يجابه المخالفين الأقوياء بل بقوة أخرى تستقر في الصدور وتحمي الإنسان من هجوم الأعداء واسم هذه القوة نور الإيمان وهي حاسة أخلاقية وهذه القوة نفسها هي أساس الدين.

نور الإيمان:

هذه القوة تدخل في نطاق الفطرة الأصلية للإنسان والجميع لهم منها أنصبة متساوية وشركاء فيها العالم والجاهل، الشريف والرذيل، الملك والفقير، متعلمو أوربا ومتوحشو أفريقيا، وقد وردت هذه الآية من القرآن بهذا المعنى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

كتب الفيلسوف الألماني جسلر: "الدين شيء أبدي لأنه لا يمكن أن تنعدم حاسة الدين في أي عصر من العصور"، ويكتب الفيلسوف الفرنسي الشهير رينان والذي لم يعتنق أي دين في كتابه "تاريخ الأديان": "من الممكن للأشياء التي نحبها ومتع الحياة المحسوبة علينا أن تزول غدا، لكن من المستحيل أن ينقرض الدين أو تأفل نجم هذه القوة وسيتأكد هذا الأمر دائما على الملأ أن المذهب المادي خطأ تماما لأنه يريد للقوة العقلية للإنسان أن تظل محدودة بالحياة الترابية الحقيرة.

ويكتب البروفيسر سبتيه في كتابه "فلسفة الدين" لماذا ألتزم بالدين؟ لأنني لا أستطيع أن أعارضه ولأن الالتزام بالدين من خصوصياتي، سيقول الناس أنه من أثر الوراثة أو التربية أو المزاج، أنا نفسي أعترض على هذا لكنني رأيت هذا السؤال يعن لي، وليس له حل، فهل الدين ضروري من أجل حياتي الخاصة؟ وأكثر من هذا من أجل المجتمع عامة، فأغصان الدين وأوراقه تقطع وتشذب آلاف المرات ولكن الجذور تظل دائما ثابتة وتورق وتثمر ثمارا جديدة، وبناء على هذا فالدين شيء أبدي لا يمكن أن يزول فقط، بل يتسع نبع الدين يوما بعد يوم، وتجارب الحياة المؤلمة والفكر الفلسفي يمنحانه العمق فالحياة البشرية قائمة على الدين وتستمد منه القوة.

إن الإدارة والتنسيق الأخلاقي في العالم تتحكم فيه الحاسة الدينية ولو يعول علينا في التعليم والتحضر لرجحت الكفة الأخلاقية لأوربا على الدنيا بأسرها بقدر ما سمت منزلتهم في التعليم والحضارة(١).

وللناس في الدنيا خصائص يختصون بها منها اللغة والقومية والوطن والهيئة واللون فلو استبعدتموها سيبقى أشياء بقدر مشترك الدين إحداها وهو أكبر دليل على هذا الكلام وهو أن الدين شيء فطري وأن تلك الأشياء التي نعتقد أنها من فطرة الإنسان مثل حب الأولاد والرغبة في الانتقام وتقدير الكمال وغيرها يقرون بفطريتها لأنها مشتركة بين الناس في الدنيا بأسرها، وبناء على هذا عندما نرى أن كل قوم وكل جنس وكل طبقة تعتنق دينا ما يتأكد بوضوح أن الدين أمر فطري وإذا تجاوزنا هذا سنجد أن الأصول المفضلة في الدين تتساوى في جميع المذاهب على حد سواء، فمثلا نحن نعد وجود الله وفكرة السؤال عنه، والحياة بعد الموت وأعمال الجزاء والعقاب، والرحمة والمواساة والعفة والكذب والغدر والزنا والسرقة من الكبائر وهي كذلك أصل من أصول جميع أديان العالم.

---

(١) هذان الرأيان مذكوران في كتاب "الديانة الإسلامية" ص ٢٤ – ٢٥.

لقد وضعت الطبيعة فروقا لا نهاية لها بين البشر فهي من ناحية كريمة جدا لا يدانيها أحد في كرمها عند منح الثروة والمال، والجاه والسلطان، والفضل والكمال، والعقل والذكاء، ومن نماذج كرمها الإسكندر وتيمور وأرسطو وأفلاطون وهومر والفردوسي، ومن ناحية أخرى بخيلة، فظل فرقا ضئيلا للغاية بين الإنسان والقرد لدرجة أنه لم تصل إليه أنظار دارون، ومع كل هذا فإن الأمور التي هي مناط الحياة وشرط من شروطها منحتها لجميع أفراد البشر على حد سواء، فالإفريقي المتوحش الجاهل أيضا يأكل ويشرب بنفس الطريقة، ويمشي ويتجول وينام ويصحو ويتحدث ويمارس تلك الواجبات مثله كمثل أعظم فلاسفة اليونان.

ويتجلي من هذا بوضوح أن هذا القدر من الدين مشترك بين جميع الأقوام في الدنيا بأسرها وكان من لوازم البشرية ولهذا السبب منحته الطبيعة لجميع القوميات بقدر متساوٍ، وقد توصل أرسطو وغيره بعد كثير من الأدلة إلى نتيجة هي: أن الصدق والتدين والعفة والحلم قيم فاضلة ولكن الأفريقي الجاهل المتوحش يعرف تلك القيم جيدا ويفهمها بشكل جيد تلقائيا بدون أي دليل.

الدين الإسلامي:

لعله قد ثبت أن الدين أمر فطري، أي: أنه كما تتوفر في الإنسان مشاعر طبيعية كالمواساة والحب والحماس والانتقام فإن عاطفة الدين فطرية وطبيعية، وهكذا فإن المشاعر الفطرية تقل عند شخص وتزداد عند آخر وتضعف عند ثالث، وتشتد عند رابع، ولا توجد كليا بين الأفراد الشاذة والغريبة وهذا بعينه حالة الدين.

ولكن كما ذكرنا آنفا فإنها تمنح للإنسان بناء على الحاسة الدينية والتي بدونها لم يكن من الممكن بقاء النوع البشري، لهذا فإن الدين مشترك بالتساوي بين جميع الناس وهو غير كامل ومجمل وغاية في البساطة، وكان يجب أن يكون كذلك،

ومثله الصريح والواضح أنه من الضروري أن يحتاط الإنسان من البرد والحر والطعام والشراب للبقاء حيا، ولهذا فقد هيأت الطبيعة للإنسان الحد الأدنى من تلك الضروريات والاحتياجات، ولم يكن من الضروري أن تكون هذه الاحتياجات على أعلى درجة، وقد أدت الطبيعة واجبها وهيأت له أوراق الشجر للباسه، وكوخا من القش ولبقائه ما يسد رمقه من الطعام ولم يكن من الضروري للجميع أن تتوفر لهم جميع ألوان النعم من قصور شاهقة وملابس ثمينة (فضلنا بعضهم على بعض).

وهذا هو حال الدين فقد كان الاعتراف بوجود الله والرغبة في العبادة، وفكرة المعاد والتيقن من الجزاء والعقاب والاعتراف بالنبوة من اللوازم البشرية ولهذا ظلت مشتركة بين الفرق ولم تكن قاصرة على قوم أو أي فرقة دون الأخرى، ولكن هذه الأمور مثل: ما أوصاف الله؟ وأي نوع من العبادة فرضي؟ وما حقيقة المعاد؟ وما الهدف من الجزاء والعقاب؟ وما معنى النبوة؟

الجواب على هذه الأسئلة لا يمكن أن تجده متساويا بين جميع الأديان

ففيه فروق في المراتب والدين والذي يجيب إجابات صحيحة على هذه الأسئلة يصبح هذا الدين أكثر كمالا وصحة.

لقد ظهر في أوربا جماعة من المنكرين للدين ويزدادون يوما بعد يوم وسبب إنكارهم للدين أنهم لا يجدون الجواب الكامل والناجع على الأسئلة المذكورة آنفا.

لماذا تخالف أوربا الدين:

كتب البروفيسير لاروس **Larousse** عن المنكرين للدين يقول: "لوقلنا إنه يجب الاعتقاد بتلك الأمور التي توافق العقل، فإننا نقول لا مطلقا ويحتقر العقل الذي يميز بين الخبيث والطيب، وعندما تعمى عيون العقل إلى هذا الحد

يصبح خرق العادة من الأمور العادية فيصبح الأبيض أسود، والقبيح جميلاً، ويأتي الدين ويقول: اطرحوا الأعناق أمام من؟ هل أمام العقل؟ لا[١] أمام الفرائض الفطرية؟ لا، أمام المشاعر الداخلية؟ لا، أمام أصول الفطرة؟ لا. وألف العالم الفرنسي الشهير بنيامين كانستان **benjamin constant** كتابا عن حقيقة الدين وتطوره ونشأته يقول بعد أن بين نقائص الدين بالتفصيل (الأسس التي يقوم عليها الدين مخالفة للعلم وهذا قطعا يخرب ويفسد جميع الأديان) يقول برتلو: **Bartolo** (العلم الآن نال كامل حريته ولا مجال للخوف من أن يستلبه الدين)

الدين الفطري:

يتضح من هذه الآراء والأقوال أن المنكرين للدين يرون استحالة صحة المبادئ الدينية المعارضة للأبحاث العلمية وإلا لو أن أي دين وافق جميع أصول العقل فإن المنكرين للدين يسلمون به ولا ينكرونه، بناء على هذا فإن كبار الباحثين في أوربا يرون أن الدين يرسم صورة خيالية أطلقوا عليها اسم (الدين الفطري)، ويقولون إن الأديان الموجودة باطلة ولكن لو اخترع دينا جديدا تتوافق مبادئه مع المبادئ التي أقروها فإنهم بلا شك ربما يقبلون به وسيتوافق مع البحوث العلمية.

وقد رسم جول سيمان صورة تفصيلية لهذا الدين العقلي حسب ما يلي: ثواب الآخرة يعنى أن الإنسان يلزم بالقانون ولكن ما هذا القانون؟ إنه المحافظة على نفسه وسمو تلك الخصائص المضمرة في فطرة الإنسان مثل حب بني البشر وخدمتهم ، وعبادة الله، ولكن ما معنى عبادة الله؟ هي أداء الفرائض والعمل[٢] الصالح وحب الوطن والعمل والإخلاص وهذا هو الدين الفطري وهذه العبادة

---

(١) نقلا عن التطبيق صفحة ٢٤.

(٢) مأخوذ عن التطبيق صفحة ٢٣.

الفطرية "هذه هي الأعمال الفطرية للدين، والعقائد هي الإيمان بالقادر المطلق القادر على كل شيء ولا يمكن أن يتغير شيء، وجميع أعماله مبنية على الترتيب والأصول"(١).

يقول لاروس(٢): "لو أن تعريف الديـــن هو أنه اسم لتلك المجموعـــة من الأفكار المعقولة الهدف منها أن ينخرط جميع البشر في رابطة واحدة وهكذا ينعمون بالفوائد الجسمانية مثل القوة العقلية، يمكنكم القول إن الدين أمر ضروري ولا بد منه لبني البشر".

خلاصة القول: أن الأمور الضرورية لدين أبدي وكامل وصحيح سواء من حيث الحقيقة أو بناء على تلك الأقوال هي:

١- مناط صحة الدين هو ما يقرره العقل لا التقليد.

٢- أي عقيدة دينية لا تكون مخالفة للعقل.

٣- لا يقر هذا المعنى بالنسبة للعبادات وأنها هي المقصودة بالذات وأن الله تعالى يسعد بتكبدنا العناء والمشقة، بل المقصود من العبادات فائدة الجنس البشري ذاته وهي لا تتجاوز الاعتدال.

٤- إن إقامة الفرائض الدينية والدنيوية بهذه الاعتدال لا تلحق إحداهما الضرر بالأخرى، بل تعتمد الواحدة على الأخرى.

٥- يتطور الدين ويرقى إلى أعلى الدرجات مع الحضارة بل هو نفسه يريها الطريق ونود أن نبحث في هذا الكتاب أولا معيار تلك الأصول من منظور الإسلام.

---

(١) نقلا عن التطبيق صفحة ٣٠

(٢) انظر التطبيق ص ٢٥ و٢٦

العقل والدين:

بادئ ذي بدء يجب ملاحظة ما المنزلة التي منحت للعقل في جميع الأديان، وما منزلة العقل في الإسلام، وبقدر ما في العالم اليوم من أديان موجودة فإنها جميعا تبدأ بتلقين هذا الأمر "لا تقحموا العقل في الدين". وهذا الحكم مستبد وعن طريقه يقنع الدين ويطمئن في جميع أنواع الاجتهادات والأبحاث ولا يمكن لأي شيء فيه التحكم والاستبداد، ومن أثر ذلك أنها تتيح للفرد أن يخترع مئات الاختراعات العجيبة والغريبة في الرياضيات والفلسفة والمنطق ولكن عندما يرد ذكر هذه المسألة أمامه أن "الواحد يكون ثلاثة والثلاثة تكون واحدا" يصبح نقده واعتراضه غير جاد ولا طائل وراءه، وتأثرا بهذا فإن سقراط وهو فيلسوف كبير أوصي وهو يسلم الروح وقال: تحققت الضراعة وقمت بالتضحية على الصنم الفلاني ونتيجة لهذا ظهر آلاف الفلاسفة والعلماء في جميع الأديان، ولكن العبث في الدين لم يتطرق إليه الشك بالنسبة للعقيدة، ولم يعتر العقل أي نقص من هذا التعطل، واللغو الذي أصاب العقيدة مرة واحدة يظل قائما على حاله بل إن الأوهام والبدع تزداد يوما بعد يوم، وبعد عدة أيام تختفي العقائد الرئيسية للدين في غمار تلك الأوهام ويصبح الدين بأسره مجموعة من العجائب والمستحيلات.

هذا الأمر نفسه هو الذي جعل المتحررين والإباحيين في أوربا ينفرون من الدين، وبناء على القول السابق للبروفيسير لاروس فإن التكهنات والنبوات تخرب جميع الأديان، وبناء على هذا فإن الدين يدمر العقل ولهذا من الضروري أن يخرب هو نفسه، هذا الأستاذ نفسه يكتب في أحد المواضع: لو أدركنا هذا الأمر بدون توهم ولا حب للذات لعرفنا كم مقدار التطورات الأخلاقية والعقلية والمادية التي حدثت في الوقت الحاضر؟ وما السبب الأصلي لها؟ لكان الجواب الوحيد هو أن العقل قد نجا من براثن الجبر.

انظروا الآن ماذا يلقنه الإسلام؟

لقد دعا القــرآن الكريم اليهود والنصارى وعبــدة الأصنام والملحدين إلى عقائد الإسلام بطرق مختلفة في مئات المواضع، ولكنه لم يقل لهم في موضع واحد آمنوا بتلك العقائد تقليدا بل أراد أن يلزمهم بطريقة الاجتهاد والتفكير في كل موقع وفي كل مكان ويسفه حب التقليد وينقده وكانت هذه أعظم تهمة لأعداء الإسلام.

- ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ **(يوسف).**

- ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ **(سورة الأعراف قبل الركوع الأخير).**

- ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ **(الجزء-٢٥).**

- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ ﴾.

- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

- ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

كل هذه الآيات القرآنية تتعلق باستخدام العقل بشكل كامل وأن تعاليم الإسلام قائمة على أســاس العقل فيما يتعلق بجميع أصول الدين وفروعه، وبينت أدمــة الدين هكذا:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾.

وتخبرنا الآيات بأمر الدعوه إلى الإسلام بهذه الطريقة:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

وحيثما تبين العقائد الإسلاميـــة الخاصة تبين مع كل عقيدة دليلها العقلي والدلائل على وجود الله مذكورة بكثرة ومن الصعب حصرها في هذا الكتاب وتؤكد الآيات الوحدانية هكذا:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾.

وبينت هذا الدليل على علم الله:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾.

وقد أزالت الآيات تعجب المخالفين ودهشتهم لنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

وأكدت على إمكانية المعاد بقوله تعالى:

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾.

وأكدت أهمية المعاد هكذا:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾.

المهم سواء الدين ذاته أو سواء الدين الإسلامي خاصة، أو العقائد الإسلامية الخاصة، فالشيء الذي أرادت الآيات أن تؤكد عليه بينته بالدليل ولم تقل في موضع واحد أقبلوا بلك العقائد بلا دليل.

هذا الأمر جدير بالذكر في هذا المكان بشكل خاص فبسبب ذوق العصر الحاضر فإن أهل الأديان يـدعون أن مذهبنـــا ثابت بالعقل ولكننا رأينا أن دعواهم نفسها أو دينهم قد زعم هذا.

ولا يوجد دين آخر في العالم - عدا الإسلام - لم يدع أنه ثابت بالعقل ويجب الاعتقاد بالدين بناء على العقل وهذا هو الفرق الكبير الذي يتميز به الإسلام علانية على باقي الأديان.

وجود الباري:

كانت طريقة استدلال القدماء على إثبات وجود الله هي أن العالم حـــادث، وأن الشيء الذي يكون حادثا ليس بأزلي وهو محتاج لأي علة، وهذه العلة هي الله تعالى، والمقدمة الثانية لهذا الاستدلال بديهية ويستدل عليها بالمقدمة الأولى فالعالم يتغير باستمرار والشيء الذي يقبل التغير هو حادث، كان هذا الاستدلال واضح ولا لبس فيه في الظاهر ولهذا ليس في حاجة إلى المزيد من البحث والتحقيق لكنه في الواقع ليس صحيحا فجميع الأشياء الموجودة في العالم مجموعة لشيئين: المادة والصورة الخاصة والتي تتغير باستمرار وتقبل التغير هي الصورة فقط وتظل المادة الأصلية قائمة باستمرار وأي شيء عندما يفنى تفنى صورته فقط ويظل أصل المادة موجودة دائما بأي شكل من الأشكال، إحرق الورقة ستصبح رمادا بعد أن تحترق، والآن فنيت الورقة ولكن الرماد موجود وهو صورة ثانية للمادة الأصلية ثم بعثر التراب فسيظل قائما في صورة ما، المهم أن الشيء الحادث هو صورة فقط، ولا يمكن أن تقدم أي تجربة على حدوث أصل المادة ولا يمكن أن ينشأ أي استدلال.

استدلال أرسطو:

وبناء على هذا فالقول بأن العالم حادث صحيح من حيث الصورة ولكنه ليس صحيحا من حيث المادة، وعندما لا يثبت حدوث العالم فإن الاستدلال لا يكون

صحيحا، وقد اختار أرسطو طريقة أخرى للاستدلال على هذا الاعتراض أي أن العالم توجد في جميع أجزائه نوع من الحركة بشكل من الأشكال لأن جميع الأجسام إما أن تزيد أو تنقص، وأن الزيادة أو النقصان نوع من الحركة، والأشياء التي نراها قائمة على حالتها أجزاؤها تتغير أي أن الأجزاء القديمة تفنى ويحل محلها أجزاء جديدة وتظل الأجزاء تتغير وتتبدل وهي أيضا نوع من الحركة، ولهذا فالعالم بأسره متحرك والشيء الذي يتحرك من الضروري أن يكون له محرك ما، والآن صورتان إما أن هذه السلسلة ستظل قائمة إلى حد ما أي أنها في النهاية تصبح شيئا مؤكدا محركا لجميع الأشياء بذاتها أو بالواسطة ولا يتحرك بنفسها ألا وهو الله، أو أن هذه السلسلة لا تتوقف في مكان ما، ويلزم في هذه الحالة وجودا غير مُتَناهٍ وهذا محال.

ورأي أرسطو الأصلي أن العالم قديم ونشأ من تلقاء نفسه ولكن حركته حادثة وأن الله خالق هذه الحركة، وبناء على هذا فإن أرسطو يستدل بالحركة في إثبات وجود الله وهذا مذهب ابن رشد من بين فلاسفة الإسلام، وأبو علي سينا قال بقدم العالم ولكنه بتأثير الإسلام لم يستطع القول أن الله لم يخلق العالم ولهذا اختار هذا الرأي وهو أن العالم قديم أيضا والله مخلوق أيضا، وكان يرد عليه هذا الاعتراض وهو عندما يكون الله تعالى والعالم كلاهما قديم وأزلي كيف يمكننا القول أن الأولى علة والثانية معلول، لأنه من الضروري التقديم والتأخير في زمن العلة والمعلول، قد أجاب ابن سينا على هذا بأن التقدم بالذات فقط كافٍ للعلة والتفضيل غير ضروري من حيث الزمن، مثلا حركة المفتاح علة لفتح القفل لكن البرهة واللحظة في فتح القفل وحركة المفتاح ليست متناوبة الواحدة تلو الأخرى.

استدلال المتكلمين:

يرى المتكلمون أن قدم أي شيء سوى الله يخل بوحدانيته ولهذا فإنهم يدعون حدوث العالم وأن الحدوث نفسه يقيم الدليل على وجود الله والاستدلال الذي طرحه المتكلمون على حداثة العالم يجب أولا أن نرسخ في الذهن المقدمات التالية لفهمه.

١- يوجد قسمان لشيئين في العالم، الأول هو العرض أي الأشياء التي لا تقوم بذاتها بل عندما توجد في شيء آخر مثل: الرائحة واللون والطعم والألم والسعادة والحماس، والثاني: هو الأشياء التي تقوم بذاتها مثل الحجر والماء والطين.

٢- لا يمكن لأي جوهر أن يخلو من عرض لأنه بقدر وجود الجواهر في الصورة والهيئة فإن الصورة والهيئة عرض، وجميع الجواهر مهما كانت يوجد بها نوع من الحركة والحركة عرض، المهم بقدر أفراد الجوهر فمن الضروري أن يوجد فيها عرض بأي شكل من الأشكال، وبناء على هذا لا يمكن أن يخلو جوهر من عرض.

٣- العرض حادث أي: أنه يخلق ويفني.

٤- الشيء الذي لا يمكن أن يخلو من عرض قط من الضروري أن يكون حادث لأنه لو كان قديما فسيلزم أن يكون العرض أيضا قديمًا لأن الشيئين المتلازمين إذا كان شيء منهما قديمًا فمن الضروري أن يكون الشيء الثاني قديما أيضا وإلا سيلزم فصل زماني بين اللازم والملزوم وهذا محال.

والآن يمكن الاستدلال على حدوث العالم، فالعالم لا يخلو من الصورتين، الجوهر أو العرض وكلاهما الجوهر والعرض حادث، وحدوث العرض ظاهر، فالجوهر لهذا أي جوهر لا يمحن أن يخلو من عرض وهذا مؤكد أن الشيء الذي لا يمكن أن يخلو من عرض هو حادث.

وعندما يتأكد أن العالم حادث فمن الضروري أن يكون له علة. والآن لو أن العلة حادثة فوجود أي علة لها مفيد وفي هذه الحالة لو أن هذه السلسلة انتهت في مكان ما يكون الله تعالى، ولو لم تنته فسيلزم لها الدوران والتسلسل والدوران والتسلسل محال.

واستدلال المتكلمين هذا مأخوذ عن فرفوريوس (بارفريس) كما ذكرنا في تاريخ علم الكلام، لكن هذا الاستدلال يمكن أن يكونه صحيحا آنذاك عندما نسلم بأن الزمن لا يمكن أن يكون متناهيا وإلا فإن هذا الاستدلال محض خداع.

صحيح أن الجوهر لا يمكن أن يخلو من عرض ولكن ليس ضروريا أن يكون أي عرض خاص بل يجب وجود أي عرض في كل وقت، وعندما يكون الزمن غير متناهٍ أوجب عليه قدم العالم ويظل يتصف مع أي عرض على سبيل التبادل وهذه متناهية وقديمة، وكانوا يستدلون على حدوث العالم بالقول أنه لو العالم قديم فسيقتضي أن تكون الأعراض قديمة، ونحن نقول: لا يلزم قدم الأعراض عند كل فرد، بل يلزم قدم الأعراض على سبيل التبادل، وعندما يكون الزمن غير متناهٍ فمن الممكن قدم السلسلة.

لقد أقام المتكلمون الكثير من الدلائل لكن صحتها جميعا متوقفة علي هذا الأمر وهو من المستحيل إثبات أن السلسلة غير متناهية، وقد أقام الفلاسفة والمتكلمين الكثير من الدلائل على عدم نهايتها، ولكنهم في هذه الحالة يصدرون جميع الدلائل عندما يعتقدون أن هذه السلسلة مرتبة وموجودة، ولكن المنكرين لله يسلمون بسلسلة العلل هكذا، علة بعد أن تفنى يحل محلها علة أخرى، وقد ادعى المحقق دواني في شرح رسالة الزوراء أنه ممكن أن يقيم البرهان والحجة في هذه الحالة لأنه مع أن العلل تفنى لكن فرض عليه جمعها وترتيبها لأن اجتماع العلل غير محال عقليا، والشيء الذي لا يكون محالا يمكن أن يكون فرضا، ولكن قول المحقق المذكور ليس صحيحا، ومع أن اجتماع العلل ليس محالاً بالذات لكن يمكن أن يكون محالا بالغير ولو فرضنا أن المحال بالغير يأتي محالا فربما يكون المحال بالغير محالا.

هناك نقص فادح يصور هذه الدلائل فلو ثبت منها وجود الله فإنه لا يثبت تفويض فاعله، ومن تلك الدلائل يثبت فقط علة العلل، ولكن ليس ضروريا أن

يصدر منها المعلول بإرادة واختيار، فالشمس علة الضوء ولكن الشمس لا علم لها ولا إرادة بل أن النور يصدر عنها تلقائيا دون علم أو إرادة، وبناء على هذا فإن كثيرًا من الفلاسفة يرى أن الله خلق العالم بلا قصد والعجيب أن الشيخ أبا علي سينا أيضا ينحى نحوهم.

لعله اتضح لكم من جميع تلك التقارير أن أفلاطون وأرسطو لم يستطيعا حل هذه المسألة، ولأن المتكلمين كانوا يسيرون على خطاهما لهذا فشلوا هم أيضا، والآن انظروا كيف حل القرآن الكريم هذه العقيدة؟

منهج استدلال القرآن الكريم على وجود الباري:

الحقيقة هي: أن الاعتراف بالله جزء لا يتجزأ من أصل الإنسان وفطرته، وقد بحث علماء علم الإنسان هذه المسألة أي أنه عندما كان الإنسان يعيش في حالة فطرية تماما أي لم يكن هناك وجود للعلوم والفنون والحضارة والتمدن ففي ذلك الوقت هل كان يعبد الأصنام في بداية أمره أم يعبد الله؟ أجمع المحققون فيما عدا الماديين أن الإنسان اختار عبادة الله منذ البداية، ويذكر المحقق الشهير ماكس مولر في كتابه: (كان أجدادنا حتى ذلك الحين يطأطنون رؤوسهم ويحنون هاماتهم أمام الله في حين أنهم لم يدركوا اسم الله، وبعد هذه الحالة ظهرت الألوهية الجسمانية، وتوارت الفطرة الأصلية خلف حجب الصورة المثالية).

ولهذا السبب فإن تاريخ العالم معروف منذ ذلك العصر، وكان الاعتقاد بالله موجودا في كل أنحاء الدنيا، فالآشوري والمصري والكلداني واليهودي جميعا يؤمنون بالله تعالى، يقــول بلوتـــارك: (لو أنكم تلقون النظر على الدنيا فستجدون العديد من الأماكن ليس فيها سياسة ولا علم ولا صناعة ولا حرفة ولا ثروة، ولكن لن تجد مكانا حيث لا يكون الله).

كان فوليتر العالم الفرنسي الشهير منكرا للوحي والإلهام يقول:

"كان زرادشت وماني وسولن وسقراط جميعهم يعبدون قائدا ومنصفا وأبا"[١] وهذه هي الفطرة التي وصفها القرآن الكريم بهذه الكلمات:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[٢].

ولكن لأن الأسباب الخارجية غلب عليها الإحساس الفطري أكثر لهذا فإن الله نبه على هذه الفطرة من موضع لآخر ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويخضع له هذا القدر من الإحساس الفطري في بعض الأوقات بسبب الأسباب الخارجية ولا يكفى فيه مجرد الإشارة والتنبيه؛ ولهذا لا يكتفى بذلك بل يستدل عليها عن طريق التجربة والمقدمات الحسية.

كان الإنسان في بداية التعقل يعلم المقدمات الحسية والبديهية وكان يؤمن بأي شيء مرتب ومنسق ومنظم فيها، وأي عالم يمكنه ترتيب تلك الأشياء ولو أننا تركنا عدة أشياء في موضع ما لرأينا هذه الأشياء قد اجتمعت من تلقاء نفسها ولكن عندما تنتقى بهذا الترتيب والسليقة فإن العاقل الصانع ينتقيه بصعوبة فلا يمكن أن تنشأ فكرة الترتيب هذه من تلقاء نفسها، ويمكنكم إدراك ذلك من هذا المثال الواضح: خذوا أي بيت شعر لخواجه حافظ أو لنظامي واقلب وأعكس كلماته ثم أعطها لشخص عادي وقل له رتب الكلمات بالتناوب الواحدة إثر الأخرى فسوف يقلبها مئات المرات ولكنها لن تتفق أبدا وتصل إلى شعر حافظ ونظامي مع أنها

---

(١) انظر كتاب الفلسفة لما نسيوبوتهيير. الترجمة العربية، طبعة بيروت ص. ١٧٥ وكان هذا المؤلف أستاذا في جامعة فرنسا.

(٢) فسر المفسرون والمحققون معنى هذه الآية بأن الله خلق الإنسان على هذه الفطرة وأنه معترف بألوهية الله شاء أم أبى، انظر التفسير الكبير.

هي نفس الكلمات ونفس الحروف ونفس الجمل ويدور الأمر حول ترتيب طفيف، ومن ثم هل من الممكن أن يقوم نظام العالم بهذا القدر من التنسيق والترتيب والاتزان تلقائيا، يستدل القرآن الكريم على وجود الله بقوله: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾، ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

وصفت تلك الآيات العالم بأوصاف ثلاثة وهي أنه كامل لا يعتريه النقص، وموزون ومرتب، وقد تقيدت بهذه الأصول والضوابط التي لا يمكن أنه تتحطم قط وهذه هي الدلائل الصغرى، والدلائل الكبرى تظهر بنفسها أي أن الشيء الكامل المرتب المستمر في نظامه لم ينشأ من تلقاء نفسه بل خلقه صاحب قدرة وصاحب سلطة.

وعندما انتهت الأبحاث والتحقيقات في الوقت الحاضر وانكشفت أسرار مئات الكائنات وكشفت حقائق الأشياء عن وجهها الحجاب أثبت كبار الفلاسفة والعلماء وجود الله بعد إمعان التفكير واستطاعوا تقديم نفس الاستدلال الذي بينه القرآن الكريم بطريقة واضحة وبأسلوب مفهوم قبل ثلاثة عشر قرنا.

يقول نيوتن: "بالرغم من وجود آلاف التغيرات الزمانية والمكانية في أجزاء الكائنات من ترتيب وتناسب فلا يمكن لها أن تخلق بدون أي ذات هي الأولى صاحبة العلم والسلطة".

شهادة فلاسفة أوربا:

يقول هربرت اسبنسر أكبر فلاسفة هذا العصر: "بقدر ما نمعن النظر أكثر في كيفية جميع تلك الأسرار فإنها بالقدر نفسه تزداد غموضا، ويتأكد منها بشكل قاطع أنه يوجد فوق الإنسان قوة أبدية وأزلية يصدر عنها جميع الأشياء".

يقول المفكر الفرنسي كميل فلامريان Camille Felammarian: "إن جميع العلماء عاجزون عن تفسير هذا الأمر وهو كيف ظهر الوجود؟ وكيف يسير باستمـــرار، وبناء على هـــذا لابد من خـــالق أبدعه وأن تأثيره مستمر وقائم في كل وقت".

ويكتب البروفيسير ليني Linne: (إن الله قـــادر وعالم ويتجلى هكذا أمام الصناع المهرة وتظل عيناي مفتوحتين، وأصبح مجنونا تماما فلكل شيء مهما كان صغيرا فيه عجيب إبداعه وعجيب حكمته وعجيب قدرته).

يذكر فونتل في دائرة المعارف:

> **"ليس الهدف من العلوم الطبيعية أن نطفئ ظمأ العقل فقط بل إن هدفها الأكبر أن نعي بعقولنا ونتجه ناحية خالق الكائنات وأن نفتتن بجلاله وعظمته".**

اعتراضات الملاحدة أي المنكرين لله:

بادئ ذي بدء فإن هذا الأمر جدير بالتذكير هنا وهو أن فكرة وجود الله ليست فكرة جديدة، ففي كل عصر كانت توجد جماعة من الملاحده ينكرون وجود الله بصورة قطعية أو على الأقل مترددون ومتشككون ولم يلق كل من العلم والفلسفة المعاصرة أي ضوء جديد على هذه المسألة ولم يستطيعوا أن يقدموا دليلا جديدا يتعلق بإنكار وجود الله، بل إن الفرق بين الملاحدة السابقين والحاليين هو أن الدلائل التي قدمها الملاحدة السابقون كانت أكثر قوة ودقة وعلى العكس من هذا فإن دلائل الملاحدة الجدد لا يمكن أن نقول عليها دلائل، ونتيجة لجميع تلك الأبحاث فإنهم لم يجدوا أي إثبات على وجود الله، ولا يوجد أي شيء في العالم سوى المادة، ويمكن أن تقوم سلسلة نظام العالم بدون الاعتراف بالله.

وقد نقل متكلمو الإسلام دلائل الملاحدة السابقين بتفصيل وإسهاب، وقد بدأ ابن حـــزم في كتابـــه (الملل والنحل) باعتراضات الملاحدة ثم رد عليهـــم، وهذه الاعتراضات قويـــة وذات حجة وننقل هنـــا على سبيـــل التفكـــه تقريـــرا عن أحد الاعتراضات.

لو سلمنا بوجود الله فإننا نسأل هل الواقعة التي تحدث الآن علتها قديمة أم حادثة، فلو هي قديمة فسيلزم أن تكون هذه الواقعة أيضا قديمة وأزلية لأنه يلزم وجود المعلول مع العلة، ولو هي حادثة تكون علتها حادثة أيضا ومن ثم يكون لها علة مفيدة، والآن لو مثل هذه العلة انتهت وهي قديمة وأزلية فسيقتضي ذلك قدم جميع هذه السلسلة درجة بدرجة لأنه عندما يكون علة العلل قديمة يكون المعلول الأول قديمًا وعندما يكون المعلول الأول قديمًا وفإن معلوله يصبح قديمًا أيضا وهلم جرا، ومع أن هذه السلسلة لا تنتهي بأي علة قديمة أو أزلية لكنها تسير بلا نهاية، فأين يستقر الله؟

وللملاحدة الأوائل الكثير من الاعتراضات القوية، لكن ليس من الضروري إيقاظ الفتن النائمة، لكننا نكتفي هنا باعتراضات ملاحدة أوربا على وجود الله في العصر الحاضر والتي بسببها انتشرت في بلادنا شكوك تجاه الدين ونحن هنا ننقل تلك الاعتراضات ونجيب عليها.

الماديون: الماديون هم الناس الذين يطلق عليهم منكرين لله، ولكن في الحقيقة إن هؤلاء الناس لا يزعمون أن الله غير موجود بل هؤلاء الناس يقولون إن هذا الموضوع خارج دائرة أبحاثنا، لأن مجال علمهم محدود بالمادة فقط ومن الطبيعي أن الله غير مادي وقد نقلنا آنفا قول البروفيسير لتيريبه: (المذهب المادي منفصل تماما عن البحث في العقل الأول لأنه لا يتعلق به أي نوع من العلم، فنحن لا نثبت الحكمة الإلهية ولا ننفيها، عملنا مختلف عن النفي والإثبات كليهما).

وقد طور بعض أعضاء هذه الفرقة أفكارهم فيقولون: إن الإقرار بالله والتنكر له فيه جانب الإنكار أقوى من كلا الجانبين، ويقــولون: يجب أن نقر أولا ما الأصول والقواعد الأولية لإثبات أي شيء أو نفيه، وإقراره أو إنكاره؟ ولقد ثبت من الأبحاث العلمية في الفلسفة المعاصرة أن أصل الأصول هو أنه مادام لا يوجد دليل قاطع على وجود أي شيء فيجب ألا نسلم بوجوده، وقد أقر كل من كانت وبيكن هذه المسألة كحجر الزاوية في فلسفتهما، وعن طريق تلك المسألة أسس أرسطو دعائم فلسفته على الأمور القطعية واليقينية بعد أن زلزل جميع أركان الفلسفة الظنية، ونحن ملتزمون بهذه الأصول في تجربة الحياة اليومية، افرض أن شيئا مالا توجد شهادة لوجوده ولا لعدم وجوده فأي قسم يكون علمنا بالنسبة له؟ نحن لا نقول إننا لا نعرف شيئا يتعلق بهذا الشيء بل نقول على حد علمنا هذا الشيء غير موجود فمن الممكن مثلا أن يكون مثل هذا الشخص موجود في أي مكان في الدنيا، ممكن أن يكون له رأسان، وأن يوجد حيوان على هيئة إنسان، ومن الممكن أن توجد بحار يعيش فيها البشر بدلا من الأسماك، لكن لماذا نتأكد من نفي تلك الأشياء؟ لأنه لا توجد أي شهادة على وجودها، ونتيجة لهذه الأصول فإنه لو لم يوجــد أي دليل على إثبات وجــود الله وعدم إثباته فإننا نميل إلى اليقين بأن الله غير موجود.

بناء على هذا فلسنا في حاجة لإثبات أي دليل على عدم وجود الله بل فقط نرى هل دلائل الإثبات التي تقدم صحيحة أم لا؟ وهناك قدر مشترك في الجميع بقدر ثبوت الدلائل، فلو لم يكن هناك وجود لله فسيقتضي وجود سلسلة غير متناهية، ولكن لا يوجد أي دليل على استحالة اللامتناهي (وقد سبق ذكر هذا البحث بالتفصيل)، وربما يقال إن فكرة اللامتناهي أسمى من عقل الإنسان وهذا دليل على استحالتها، ولكن الاعتقاد بأن الله قديم وأزلي هو أيضا صورة أخرى من

اللامتناهي، فالله الواحد موجود منذ الأزل وهو لا انتهاء له، فهل من العجيب التسليم بسلسلة غير متناهية؟

وقد قدمت بهذه المقدمة البهية الأنيقة في إثبات وجود الله ونحن نرى بداهة أن الشيء الذي يخلق تكون له علة ما.

ولكن هذه المسألة التي يخلق فيها المخلوق وتتطلب علة ما تحتاج إلى شرح وتوضيح ولا غرو أنه صحيح وأننا نرى تلك المخلوقات تولد، ولا نراها بدون علة ولكن السؤال هو أي شيء رأيناه يولد؟ هل رأينا أصل المادة تخلق؟ إن المخلوقات التي رأيناها تخلق هي صور المادة وليس أصل المادة ولهذا نخلص إلى هذه النتيجة ومفادها أننا نحتاج إلى العلة لخلق الصور، وما ندعيه أكثر من هذا ليس أساسه التجربة.

والمشاهدة، بل التخيل فقط، وبناءً على هذا فإن الزعم بأن أي علة ضرورية للعالم ليس صحيحا لأن العالم اسم للمادة ولم يثبت خلق المادة وحدوثها، ولهذا لا يمكن أن تثبت علتها.

وربما يقال أنه مع أن المادة قديمة ومخلوقة لكن المادة لا يمكن أن تخلو من الصورة، ولهذا فإن تلك الصور تحتاج إلى علة ما وهي الله تعالى، ولكن هذا الاستدلال غير صحيح أيضا؛ لأن المادة قديمة، وتخلق هذه الصور على سبيل التبادل وتظل تفنى وبناء على هذا ليس لها علة قديمة، بل تحتاج إلى آلاف العلل الحادثة.

والأصل هو على أي أساس قامت سلسلة نظام العالم من حيث أهمية وجود الله؟ يجب ملاحظة هل نستطيع أن نفترض وجود العالم ونظام العالم بدون وجود الله أم لا؟ لو استطعنا ذلك فليس هناك أي ضرورة للتسليم بوجود الله.

الأمر القطعي أن الشيء لا يمكن أن يظهر إلى حيز الوجود من العدم المحض، وبناء على هذا فإن مادة العالم قديمة ويثبت من الأبحاث الحديثة أنه قبل الصورة التركيبية للعالم كانت أجزاء صغيرة جدا منتشرة في الفضاء غير المتناهي ويطلقون على تلك الأجزاء مصطلح" ديمقراطيسي" حيث يخلق العالم تدريجيا من تلاحم هذه الأجزاء فيما بينها وتركيبها.

وهناك اعتراض على هذا الاقتراح وهو كيف التقت هذه الأجزاء تلقائيا؟ وكيف تكونت هذه المركبات المختلفة تلقائيا؟ والإجابة على هذا الجواب هي كما أن المادة قديمة فالحركة والقوة قديمة أيضا، وللحركة خاصية فطرية لتلك الأجزاء الديمقراطيسية، فالأجسام التي تبدو لنا ساكنة لها أجزاء ديمقراطيسية أيضا تظل تتحرك كل وقت ولو أنها تسكن أحيانا بسبب تعارض الجاذبية بين متقابلين على كل حال فإن الحركة مع المادة قديمة ولا يمكن للمادة أن تخلو من الحركة قط، وبناء على هذا فإن التقاء الأجزاء الديمقراطيسية معا ليس أمرا مستبعدا.

والآن تبقى هذه الشبهة كيف تخلق مثل هذه المخلوقات العجيبة والغريبة المملوءة بالصنعة والحكمة؟ لقد أجاب الدين على هذا السؤال بألفاظ مؤثرة للغاية، وأفهمنا أن وجود الله هو نتيجة حتمية لهذا السؤال.

يقول راسين: "يا أيتها السماء أخبريني، ويا بحار قولي لي، ويا أرض أجيبيني، يا أيتها النجوم التي لانهايـــة لك، تكلمي، أي يد أمسكت بك في الأفـــق؟ ويا أيها الليل البهيم من ذا الذي صور ظلامك الجميل؟ ما أعظم شأنك! وما أعظم قدرك! أخبرني بنفســك عن صانعك الذي صورك بلا نصب ولا مشقة! وسقفك المرصع بقباب النـــور وكذلك هو الذي فرش الأرض ببساط من تراب وملأه بالغبار وبشر بالسحر وجعل النجوم مضيئة دائما والشمس مشرقة! أيتها الشمس

المتلألئة أخبرني بصـــدق: لمن تؤدين الطاعة؟ وتلقين على العالم بأشعة ضوئك بكرم وسخاء"؟

أيها البحر المخيف يا من تريد أن تبتلع الأرض بعد أن تغضب، من الذي أبقى عليك محبوسا مثل الأسد الهائج مقيدا في عرينه، تحاول الخروج بلا طائل من هذا السجن وقوة موجك تجاوزت حدا معينا لا يمكن أن تتعداه!

وقبل الإجابة على هذه الأسئلة يجب ملاحظة الأصول التي أقرها أهل الدين أنفسهم حول خلق الكائنات وبقائها واستمرارها، وقد انقسم أهل الدين في هذا الصدد قسمين، القسم الأول يرى أنه ما من مخلوق خلق في العالم إلا وخلقه الله نفسه بالذات وليس بالواسطة ولا توجد أي شيء من الوسائط تتوسط بين الأسباب والعلل، فالماء الذي يهطل لا يهطل حتى يصعد البخار ويتبخر من البحر ويتحول البخار إلى ماء بفعل البرودة ويمطر بعد أن يتحول إلى سحب، بل إن الله بالذات ينزل المطر.

والقسم الثاني يقول إن الله أودع التأثير والخواص في الأشياء وتظل تخلق سلسلة الكائنات بسبب تلك الخواص وذلك التأثير، مثلا لقد خص الله الماء بهذه الخاصية وهو أنه يتبدل في صورة بخار بعد أن ترتفع درجة حرارته، وهذه الخاصية في البخار تجعله يتحول إلى ماء بعد أن يصل إلى البرودة، والآن بعد أن تتوافر تلك الخواص فإن الله تعالى لا يتدخل مرارا وبشكل دائم بل إنه بناء على تلك الخواص يتكون البخار تلقائيا في أوقات معينة ثم يصعد فيتحول إلى ماء ثم ينهمر مطرا وهكذا يقرر الله قوانين وأصول الخلقة القائمة وفقا لنظام العالم وتستمر سلسلة الحوادث الجديدة وهذا عموما مذهب المحققين من أهل الدين وهذا رأي جميع الفرق الباقية ما عدا الأشاعرة.

وعندما يسلم بأن العالم قائم على عدد قوانين الطبيعة عندئذ يظل البحث في هل وجدت قوانين الطبيعة هذه تلقائيا أم أن الله أوجدها؟ فلو افترضنا الاحتمال الأول لن تظل الضرورة المطلقة لله.

من الثابت بالنسبة للمادة أنها قديمة وقد تأكد من العلوم الحديثة أن الحركة قديمة قدم المادة أي أنه عندما تكون الأجزاء محض ديمقراطيسيـــة فإن هذه الأجزاء تتحرك.

دائما، وعلى الرغم من أن تركيب تلك الأجزاء يتكون من أجسام مختلفة فإن هذه الأجزاء تظل في حركة تلقائية في كل وقت ولو أننا لا نراها، وبعد التسليم بتلك الأمور لن تبقى أي ضرورة لهذه الفكرة وهي أن يسلم بأن هناك خالقا واحدا لقوانين الطبيعة ألا وهو الله، وعندما يوجد امتزاج فيما بين الأجزاء الديمقراطيسية تخلق الصور المختلفة وتودع في كل صورة خاصية واحدة وأثرا واحدا وهذه الخاصية وذلك الأثر نفسه نتيجة هذا التركيب والامتزاج، ولا تظهر هذه الخواص في تلك الصور لشخص ما من الخارج.

ولقد قرروا هذه المسألة في الفلسفة القديمة نفسها لفهم ذلك الموضوع، وهو أن الذاتيات واللوازم ليست مجهولة، مثلا خلق الله أنواعا مختلفة من الشجر وتختلف معرفة كل نوع في اللون والطعم والثمار والزهور والأغصان، ولكن هذه الأشياء لم يخلقهـــا الله بالـــذات بل خلق هذا النـــوع فقط، هذه الأشيـــاء تخلق بنفسها بسبب مقوماتها.

ويذكر شاه ولي الله في كتابه "حجة الله البالغة" "فإنه جعل لكل نوع أوراقا بشكل خاص وأزهارا بلون خاص وثمارا مختصة بطعم وبتلك الأمور يعرف أن هذا الفرد من نوع كذا وكذا هذه كلها تابعة للصورة النوعية ملتوية".

ويذكر بعد ذلك: (وليس لك أن تقول لم كانت ثمرة النخل على هذه الصفة فإنه سؤال باطل لأن وجود لوازم المهيات معها لا يطالب بلم).

وبعد التسليم بهذا الأمر فإن نتيجة الصورة النوعية للأشياء ذاتها جزء كبير من مظاهر الطبيعة، أي أن الله لم يخلقها بالذات بل كانت نتيجة حتمية لتلك الصور النوعيـــة والتي تخلق معها تلقائيـــا، يبقى البحث فيمن خلق الصور النوعيـــة؟ من المسلم به عند الفلاسفة القدامى أن الصور النوعية قديمة وأزلية فقد ورد في كتاب "نشر الطوالع" (وزعم أرسطو طاليس وأبو نصر الفارابي وأبو على بن سينا أن الأفلاك قديمة بموادها ومقاديرها وأشكالها سوى حركاتها والعناصر بموادها وصورها الجسمية بنوعها وصورها النوعية بجنسها).

وعندما يسلم أهل المذهب أنفسهم بقدم الصور النوعية فيبقى البحث في هذه المسألة وهي هل تخلق الصور النوعية تلقائيا أم يخلقها الله تعالى؟ وأهل الدين لا يستطيعون تقديم أي دليل على هذا الأمر أي أن الله خلق الصور النوعية، بل هذا الاحتمال أكثر قربا للقياس فنشأت تلقائيا لأنها عندما تكون قديمة وأزلية فالقول بالمعلول مخالف للعقل تماما بدون أي دليل قوى، والخلاصة هي أن الأجزاء الديمقراطيسية قديمة والحركة قديمة معها كذلك، وبتولد الامتزاج بالحركة، ويخلق الامتزاج صورًا نوعية مختلفة، ونتائج تلك الصور النوعية حتمية لجميع مظاهر الكائنات الباقية مثلما يسلم به أهل الدين أنفسهم.

ويذكـــر روبرت أنجـــر ســـال - الملحد الأمـــريكي الشهيـــر - في كتابه (إنكار وجود الله): "افـــرض أنه لا توجد قوة أسمى من الطبيعة، والمادة والقوة موجودتان منذ الأزل، فتخيل الآن امتزاج ذرتين معا فما النتيجة المترتبة على ذلك؟ حسنـــا افـــرض لو أن جهتين متعارضتين يتساويان في القوة فسوف توقفهما وتعطليما والنتيجة هي لو حدث هذا تكون المادة والقوة والنتيجة بل أي قوة أسمى

من الطبيعة، وافرض أن ذرتين امتزجتا هكذا، ألم تكن هناك نتيجة بعينها؟ نعم تكون نفس نوع الحالة، ونفس نوع النتيجة ومعناها القانون والترتيب والآن فإن المادة والقوة والقانون والترتيب بلا أي قوة أسمى من الطبيعة".

وربما يقال أنه كما تفرض هذه السلسلة يمكن فرض هذا أيضا وأن المادة والأجزاء الديمقراطيسية قديمة، ولكن الله خلقها ومن ثم ينشأ العالم من اختلاطها وامتزاجها وعندما تفترض أن هذه السلسلة ليس فيها أي استحالة فإن ترجيحها يكون حقا لأن كلا الاحتمالين يتساويان في الجواز ويزداد ترجيح الاحتمال الثاني، ويعتقد حتي اليوم أن الدنيا هي الجزء الأكبر لهذا الاحتمال.

ولكن هذه الفكرة غير صحيحة أيضـــا لأنهما يتماثلان من حيث الواقـــع، وأن المعيار الأصلي لواقعية جميع المعلومات والمدركات هو العلم المبنى أكثر على المحسوسات يقترب أكثر من المحسوسات وتقل درجة اليقين فيه بنفس القدر، وبعد إجراء التحليل لن تصل المحسوسات إلى نهايتها وهذا مجرد علم وهمـــي؛ لأن هذا الأمر مؤكـــد، فالإنسان روح لتلك الأشياء التي إما تكون محسوســـة أو مأخوذة من المحسوسات.

بناء على هذا فالاحتمال الأول أي مبدأ الكائنات هو الحركة والمادة المجردة أقرب إلى اليقين، والشيء الذي يحس في العالم هو المادة والحركة والقوة وهذه المسألة تدخل أيضا في نطاق المحسوسات، ولا يمكن أن يفنى أي شيء فناء مطلقا، ولا يمكن أن ينشأ من العدم المحض، ويثبت من هذا تلقائيا أن المادة قديمة وقدم المادة يدخل في المحسوسات، ويدخل في المحسوسات أيضا بعض قوانين الطبيعة التي تقوم سلسلة الكائنات مطابقة لها مثل جاذبية الأجسام ومسألة الارتقاء والاختيار الطبيعي وغيرها.

والاحتمال الثاني أي وجود الله ليس في المحسوسات نفسها ولا مأخوذ من المحسوسات، ولاشك أنه محسوس إلى هذا الحد، فكل حادث يحتاج إلى علة ولكن

المادة ليست حادثة، ولأن الحركة والقوة من اللوازم الطبيعية للمادة نفسها لهذا فهي ليست حادثة أيضا، ولأن المادة والقوة والحركة قديمة وجميع أنواع الكائنات نتيجة لتلك الأشياء فهل يمكن القول أن وجود الله مأخوذ من المحسوسات، يقول البرفيسير ليتريه: "إن الأسباب التي خلقت الكائنات فيما يبدو هي نفسها موجودة في الكائنات، ولا تفصل عنها، وتلك الأسباب هي التي نعبر عنها بقوانين الفطرة"، يقول بروفيسير آخر مشهور: "بين الله وقوانين الطبيعة ضرورة واحدة فقط".

دلائل المنكرين لله:

تلك هي أفكار الملاحدة: التي لم نجد في بيانها أي دليل على وجود الله، ولو استخدمنا الاحتمال فقط فإن احتمال عدم وجود الله أكثر قوة من وجوه، ولكن هناك جماعة من الملاحدة ادعوا هذا الرأي علانية وهو أن وجود الله كما بينا هو غير موجود.

يقول هؤلاء الملاحدة: لو أن معنى الله هو علة العلل فقط فلن نقوم بأي بحث، لكن لو يدعون أنه قادر مطلق، حكيم، صاحب إرادة، عادل ورحيم أيضا فلن يثبتوه، بل على العكس من ذلك توجد كثير من الدلائل وتفصيلها فيما يلي:

١- ثبت من نظرية الارتقاء عند دارون أن جميع المخلوقات تتطور وترقى من أدنى الدرجات لتصل إلى الحالة الراهنة، والإنسان نفسه الذي يطلق عليه أشرف المخلوقات كان أدنى درجات الحيوان وأخذ يتطور ويرقى حتى وصل إلى حد درجة القرد وبعد فترة أصبح إنسانا، ألا يمكن القياس بناء على هذا أن خالق العالم قادر مطلق وحكيم، يذكر روبرت انجرسال في كتابه (انكار وجود الله): "افرض أن رجلا عاش في إحدى الجزر مليون سنة وكان يوجد عنده سيارة قوية وجميلة ويزعم أن هذه السيارة نتيجة العمل الشاق لمدة آلاف السنين وقد استغرقت في اختراع

كل جزء منها خمسين سنة فهل سنخرج بنتيجة من هذا أن ذلك الشخص كان ماهرا منذ البداية في فن جر الثقيل".

"ألا يظهر من هذا الأمر تطور المخلوق وأن الخالق أيضا تطور. فهل عندما يريد الله القادر المطلق والعاقل الطيب أن يخلق الإنسان يخلقه هكذا أولا في حالة بسيطة بدائية وفي أدنى درجات الخلق؟ ثم يتطور تدريجيا حتى يصبح إنسانا، وهكذا يكرس سنوات لا حصر لها في تكوين شكله وهيئته.

يوجد في الدنيا كثير من الظلـم والبغي وسفك الدمـاء والقتل والمصائب والآلام؛ لهذا ألا يمكننا القياس أن خـالق الدنيا رحيم وعادل؟ يقول انجرسـال: "الدنيا مليئة بالحيوانات المخيفة والكريهة الواحد منها يقضي حياته في إيذاء وإيلام الآخرين فهل يوجد في هذا علامة على التعقل والبصيرة؟ فمن ذا الذي يستطيع أن يقدر رحمة خالق هذه الدنيا عندما يأكل كل حيوان الحيوانات الأخرى عندئذ يصبح كل فم مذبح وكل بطن قبر فمن المستحيل وجود الحب والبصيرة غير المحدودة في هذا المناخ العام والمستمر من سفك الدماء".

ومن خلال سنوات طويلة من الظلم الذي أصاب البشر بالمكاره وهي لا يمكن أن تقاس، وقد تحمل الضعاف والطيبون والمعصومون من الناس النصيب الأكبر من هذه المكاره، وتعاملوا مع النساء كأنها حيوانات مفترسة سامة وداسوا بأقدامهم الأطفال الأبرياء مثل حشرات الأرض، الشعوب والأقوام تئن تحت نير العبودية لقرون من الزمان وساد الظلم العالم كله فلا يستطيع القلم واللسان التعبير عنه.

ولو قال أحد ما: إن أولئك المنكوبين سيجدون جزاء معاناتهم في عالم المستقبل مع ذلك لا يوجد جواب على هذا الاعتراض فهل نحصل على الحق في الأمل في هذا الأمر؟ وأن الواحد الكامل العاقل الطيب الحكيم ذا القدرة سيسلك معنا سلوكا أفضل في المستقبل مقارنة بالوضع الراهن وهل سيزداد الله قوة أكثـر؟ وهل سيصبح أكثر رحمة؟ وهل رحمته ستتطور أكثر مع مخلوقاته العاجزة؟

٢- من الطبيعي أن آلاف البشر يميلون إلى الشهوات وسيئو الطوية قساة القلب، وأكثر ظلما بل الجزء الأكبر من الخلق أناس شريرون، فهل يمكن القياس على هذه الصورة؟ أحد الحكماء يجيز خلق هذا النوع من الاشخاص ولا يستطيع حل عقدة الجزاء والعقاب يوم القيامة لأن السؤال الأصلي هو: ما الغاية من خلق أولئك الأشخاص؟ وما الفائدة من عقابهم يوم القيامة؟ ولو أن الله قادر مطلق كان يجب أن يخلق الخير والصدق والعمل الصالح فقط، وما الغاية من وجود الظلم والانتقام والعداوة والبغض والحسد والفجور والفسق والكذب والخداع؟ ويتضح من جميع تلك الآراء أنه لا يوجد رب مختار وصاحب إرادة بل قانون الطبيعة فقط والذي قامت سلسلة الكائنات وفقا له بغير أي هدف أو غاية وليكن ما يكون.

يقول ملحد مشهور: "بقدر ما هو معلوم لدينا فإن الطبيعة تكون أشكالا مختلفة دائما بلا إرادة وبلا حب وتغيرها ولا تحزن عليها ولا تفرح لها وأن الألم والسعادة، والحياة والموت، والابتسامة والدموع جميعا بالنسبة لها على حد سواء، فلا هي رحيمة ولا هي تسعد بالتضرع ولا تتأثر بزرف الدموع".

الرد على اعتراضات الملاحدة:

لا ننكر أن العالم مبني من الأجزاء الديمقراطيسية ونسلم أيضا بأن العالم قديم مثلما ترى فرقة المعتزلة وهي إحدى الفرق الكبرى عند المسلمين وكذلك فلاسفة الإسلام أي الفارابي وابن سينا وابن رشد بل كما ذكر ابن رشد في كتابه "تلخيص المقال" ورد في آيات القرآن الكريم نفسها: ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾، ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾،

ونسلـــم كذلك بأن أجزاء المادة متحركة والحركة تدخل في نطاق خصائص المادة وتتركب من قوانين الطبيعة المختلفة التي تتوافق معها وتمتزج أجزاؤها مع بعضها البعض ثم تنشــأ فيهــا قــوى وخواص خاصـــة ولكن عقدة الكائنـــات لا تحل بتلك الآراء وتفصيلها كما يلي:

ليس هناك شك في أن جميـــع أنظمة العالم قائمة على قوانين الطبيعـــة، ولكن هذه القوانين منفصلـــة ومستقلة بذاتها وليست بمعـــزل عن بعضها البعض بل إنها جميعا الواحد وفقا للآخر وبينهم هذا القدر من التناسب والترابط، بحيث يستعمل كل قوانين الطبيعة مجتمعة في خلق شيء صغير، فالعشبة الضعيفة تنمو في ذلك الوقت عندما يجتمع الماء والهواء والتراب، وكذلك تنشأ الأجرام الفلكية الكبيرة مثل الشمس والقمر وغيرهما وتظهر أفعالهما وخواصهما ويتطلب الأمر المشاركة والتوافق ومثلها تماما كمثل مئات الأعضاء والجوارح والاعصاب في جسم الإنسان، هذه الأعضاء والجوارح منفصلة وعمل كل واحد منها منفصل ولكن أي عضو لا يستطيع العمل في ذلك الوقت مادام جميع الأعضاء الأخرى لا تشاركه العمل بالذات أو بالواسطة، أو على الأقل لا يعتري عمله خلل، ويستدل من ذلك على هذا الأمر أن تلك الأعضاء ليس لها حيثية القوى المستقلة بل إن الإنسان بداخله قوة عامة أخرى أسمى من القوى المنفصلة لجميع تلك الأعضاء وهي خاضعة لها وتعمل كلها بالاتفاق، ويعبر عن تلك القوة العامة بالمزاج أو النفس أو الروح.

وهذه حالة قوانين الطبيعة أيضا، فالعالم فيه مئات وآلاف قوانين الطبيعة ولكن لو أن أحدها تزحزح أو انحرف قليلا عن مركز التوافق لاختل نظام العالم كله والدليل على هذا الكلام أي قوة أخرى أسمى محكومة بجميع قوانين الطبيعة وتخلق نوعا من الاتحاد والترابط والتناسب والتوافق فيما بينها وبين جميع تلك القوانين ويمكن أن نطلق عليها اسم مادة، فالمادة تنشأ تلقائيا، والحركة تنشأ مع المادة، والحركة تخلق الامتزاج ومن ثم تنشأ كثير من قوانين الطبيعة تدريجيـــا،

ولكن بسبب هذا الأمر لا يمكن القول من أين جاء الاتحاد والتناسب والتوافق في مئات الآلاف من قوانين الطبيعة، ونشأة التوافق والاتحاد في تلك القوانين نفسها ليست خاصية ذاتية، ولو أحد ما زعم هذا لكان مجرد احتمال فرضي لا يمكن أن يحدث له مثيل وهذه قوة عظمى حاكمة لجميع قوانين الطبيعة والتي تقيم الترابط والاتحاد بين جميع تلك القوانين، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في هذه الآية من القرآن الكريم: ﴿أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وبناء على هذا أقر كبار فلاسفة أوربا بوجود الله.

يقول ميلن إدوارد **milne edward**: (كان الإنسان متحيرًا أشد الحيرة في ذلك الوقت عندما يرى أنه يوجد مثل هؤلاء الناس الذين يقولون إن تلك المشاهدات الناطقة والمكررة جميعا نتيجة الصدفة والحظ فقط، أو بعبارة أخرى من نتائج الخواص العامة للمادة، وهذه احتمالات فرضية وغواية عقلية منحها الناس لقب عالم المحسوسات وقد أبطلها العلم الحقيقي بحذافيرها ولم يسلم بها المتخصصون في العلوم الفيزيائية فقط).

يقول هربرت اسبنسر: (إن الأسرار التي تزداد دقة يوما بعد يوم عندما نبحث فيها أكثر فمن الضروري أن نعتقد أن فوق الإنسان قوة أبدية وأزلية تظهر منها جميع الأشياء إلى حيز الوجود).

يقول البروفيسرلينيه: (إنه الله الأكبر الأزلي العالم بجميع الأشياء القادر على كل شيء ونتيجة أعماله العجيبة والغريبة أمامي فأبهت وأندهش).

والآن نتيجة تلك الاعتراضات التي تنسب إلى الله القادر المطلق والرحيم العادل، هذا الاعتراض لو أن الله قادر مطلق فلماذا يخلق الدنيا بالتدريج فهذا لغو وغير جدير بالاهتمام فالقطرة التي تنشأ في الرحم وتنمو وتكبر وكساء العظام لحما

وخلق الأعضاء المختلفة، وبث فيها الروح والحصول على الغذاء من الدم ثم رؤية النور والحياة أكثر إعجازا ودليلا على كمال القدرة أم يخلق الإنسان مرة واحدة؟

ولا غرو فإن هذا الاعتراض جديد بالاهتمام، وهو: لماذا خلق الله الشر في الدنيا مع الخير؟ أجاب أبو علي سينا على هذا الاعتراض في كتابه الشفا بقوله: يمكن أن نفرض ثلاثة حالات للدنيا هي:

أولا: الخير المحض ويسدي الخير، ثانيا: الشر المحض، ثالثا: يكون الخير أكثر بقدر ما من الشر.

والآن افرض أن الحالات الثلاثة ثم تقديمها أمام الطبيعة، فماذا ينبغي أن تفعل؟ بالنسبة للحالة الأولى لا يمكن الاختلاف عليها وهي جديرة بالاختيار، والحالة الثانية غير جديرة بالبحث لأنها جديرة بالاختيار في رأي كل شخص، والطبيعة فعلت هكذا أيضا فلم تخلق مثل هذه الدنيا التي يوجد فيها الشر من أجل الشر، يبقى فقط الحالة الثالثة وهي جديرة بالبحث، أي هل يجب على الطبيعة خلق مثل هذا العالم أم لا فيكون فيه الحسنات والخير أكثر والسيئات والشر أقل، فلو لم يخلق هكذا تكون هذه فائدة بلا شك لأن بعض الشرور لم يتثن لها أن تظهر إلى حيز الوجود في العالم، ولكن إلى جانب هذا هناك كثير من الخيرات أيضا لم تظهر إلى الوجود ونتيجة لهذا يظل الآلاف في الدنيا محرومين من الخيرات من أجل بضعة مساوئ.

وقد أجاب ابن رشد على هذا الاعتراض إجابة أخرى، يقول: إن الشر الموجود في العالم هو ليس شرا في حد ذاته بل هو تابع ولازم لأي خير، وهذا الشيء محزن ولكنه نتيجة لهذه الحاسة التي عن طريقها يحكم حكما مطلقا بالحفاظ على الإنسان، وهذه الحاسة لا تواجه الإنسان القاتل ولا تحاول إنقاذ روحه، فالفسق والفجور شيئان ذميمان لكنهما يتعلقان بتلك القوة التي ينحصر فيها بقاء الجنس البشرى، فمثلا يشعلون النار في المنازل وتدمر وتخرب المدن جراء ذلك ولكن لو لم توجد النار لكان من المستحيل على الإنسان أن يعيش حياته.

والآن تبقى هذه الشبهة وهي ألم يكن ممكنا في الشيء الذي يخلق أن يكون فيه الخير المحض ولا يوجد فيه شر مطلق.

يقول ابن رشد: نعم لم يكن هذا ممكنا فلو لم تخلق النار ما استطعنا طهي الطعام ولكن لو نرغب في إحراق مسجد فلن يحترق.

يبقى هذا الاعتراض وهو أن أكثر الصالحين من الناس يتكبدون العناء في الدنيا والفاسدون يعيشـــون في لهـــو ولعب، والجواب على هذا أن حياة الإنســـان لا تنتهي بهذه الحياة الفانية ولهذا كيف نستطيع الفصل في هذا فنحن نرى الذين يعيشون في لهو ولعب وهذه صورة مجملة لحياتهم وأما منا جزء صغير جدا من هذه السلسلة.

وبناء على هذا أنى لنا أن نبدي الرأي للسلسلة كاملة، وبعد أن نتجه للأمام سيثبت أن الجزاء والعقاب نتائج حتمية للأفعال الإنسانية التي لا يمكن بأي حال من الأحوال الانسلاخ عنها كما أن شرب الماء نتيجة حتمية للارتواء وتناول السم سببا في الموت، بناء على هذا فإن هذه مقولة ليست صحيحة وهي أن كثيرا من الناس يفعلون الصالحات أو السيئات ولم يعترضوا على نتائجهم.

لقد تراءت لنا العيوب والمساوئ في نظام العالم فمن ذا الذي يستطيع القول أنها عيوب واقعية؟ أو لهذا السبب لا تبدو أمام أعيننا سلسلة كاملة لنظام العالم، وفي هذه الحالة كيف يمكن إنكار كمال الله وعزته وجلاله بناء على هذا الأمر فقط؟ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

التوحيـــــــد:

يوجد اعتراف إجمالي بذات الله في جميع المذاهب والأديان، وبناء على هذا لم يهتم الإسلام بهذه المسألة الاهتمام الكافي، فالشيء الذي يختص به الإسلام هو

التوحيد لأنه في الأديان الأخرى ليس هناك توحيد في البداية أو لم يكن كاملا، وبناء على هذا فإن الله تعالى قال مرارا في القرآن الكريم: إن الكفار لم ينكروا الله بل كان الكفار ينكرو التوحيد: ﴿ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ ﴾، ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

والحقيقة أن الأسباب التي تؤكد لنا وجود الله هي بعينها الأسباب التي تشهد على وحدانية الله ويتضح من ثبر الغور في نظام العالم أنه بالرغم من أنه ظاهري كثير الأجزاء أو كثير الأفراد، ولكن الجميع يلتقي في واحد، أي أن هذا الكل متصل أجزاؤه بالأجزاء الأخرى إلى هذا القدر بحيث يستطيع الشخص نفسه أن يقوده وهو موجد جميع الأجزاء وهو المحافظ على التناسب فيما بينها وقد ذكر القرآن الكريم هذا الدليل هكذا:

﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ إذا بينا هذا الاستدلال بأسلوب منطقي فيجب أن أرسخ في الذهن أولا المقدمات التالية:

١- مع أن ملايين الأشياء تبدو لنا في العالم ولو في الظاهر، لكن العالم شيء واحد وجميع هذه الأشياء أجزاؤه وخواصه، مثلما يوجد في الإنسان اليد والرجل والأذن والعين والأنف وكثير من الأعضاء ورغم هذا فالإنسان شيء واحد.

٢- لا يمكن أن يكون للشيء الواحد علتان تامتان لأن العلة التامة تعني أن يظهر إلى حيز الوجود معلول بلا انتظار أي شيء آخر مع وجودة، ولهذا لو هناك معلول واحد لعلتين تامتين تكون علة منهما عديمة النفع تماما.

٣- الله هو العلة التامة للعالم.

الاستدلال على التوحيد:

والآن مقدمات الاستدلال هي: العالم شيء واحد والشيء الواحد لا يمكن أن يكون له علتان تامتان ولهذا لا يمكن أن يكون للعالم علتان تامتان، الله هو العلة التامة للعالـــم ولا يمكن للعلة التامـــة أن تتعدد ولهـــذا لا يمكن أن يتعـــدد الله، وهذه الفكرة جديرة بالتفكير بشكل خاص فالتوحيد في الحقيقة في جميع الأديان وأن الله تعالى عند الشعوب التي يقال لهم مشركون يعتقدون أيضا أن الله قادر مطلق وذات واحد ولا غرو فإنهم يقولون بتعدد صفاته ومظاهرها والتي يظن بها الشرك، فالنصارى يؤمنون بثلاثة آلهة لكن مع هذا يقولون أيضا أن الثلاثة واحد، كم هذا التفسير خاطئ لكن يثبت بالضرورة من هذا أنهم لا يستسيغون التعدد الحقيقي ومن هذه الناحية فإن التوحيد المطلق لا يعد أمرا جديدا والخصوصية التي تميز بها الإسلام في هذا الباب هو التوحيد الكامل أي المنزه عن كل أنواع شوائب الشرك وبسبب هذا لم تبق هناك حاجة لأي دين آخر بعد الإسلام لأنه لا توجد أي درجة بعد الكمال، وكما أن التوحيد الكامل يعنى ألا نشرك بذات الله كذلك لا نشرك بصفاته أيضا، فالخلق والبعث والموت وعالم الغيب والبعد والقرب وما يتعلق بهم على حد سواء كلها صفات خاصة بذات الله.

التوحيد في الصفات والعبادات:

وفيما عدا الإسلام كان أهل الأديان الأخرى ومنهم الأنبياء والرسل يؤمنون بهذه الأوصاف أيضا، ويعتقدون أن هذا هو التوحيد الناقص مع أنه للأســـف أن كثيرًا من المسلمين الآن أسدلوا الستار على هذا المصطلح وبدأ الآخرون يؤمنون بتلك الأوصاف وقد أقر الإسلام بضرورة التوحيد في العبادات والتوحيد في الصفات والتوحيد في الذات من أجل كمال التوحيد حتى أن سجدة التعظيم التي كانت جائزة للآخرين ما عدا الله في جميع الأديان الأخرى حرمها الإسلام.

والحقيقة أن الأثر الأخلاقي الذي يتركه الاعتراف والإقرار بوجود الله على القلب لا يمكن أن ينشأ بدون التوحيد الكامل، ويمكن في ذلك الوقت أن يطرأ على القلب حالة من الإخلاص والتوكل والاستقلال والخشوع والانقياد والطاعة، وعندما تتحقق هذه الفكرة يكون هناك مركز واحد لجميع رغباتنا واحتياجاتنا، واهتماماتنا وآمالنا وأهدافنا، ولا يمكن أن تتوفر أوصاف الغنى والشجاعة والحرية والاستقلال في الإنسان بدون التوحيد الكامل، والشخص الذي يسمع الدعاء من أكثر من واحد يظل مستعدا لطأطأة رأسه على كل الأعتاب.

النبـــوة

مـــا حقيقـــة النبـــوة؟ وما شروطها؟ ما الحد الفاصل بين المتنبـــي وغير المتنبي؟ في العصر الحاضر أجابت جميع الفرق الإسلامية عموما على تلك الأسئلة وهي أن النبوة هبة من الله ومنصب يمنحه الله لمن يريده، والمعجزة شرط للنبوة وهي التميز والفصل للنبوة، كان بداية هذا الجواب من الأشاعرة الظاهريين ثم انتشر هذا الاعتقاد وساد بين جميع الفرق الإسلامية.

ولم يكن من الممكن أن يبدأ البحث العلمي والاصطلاحي في هذه المسألة في عصر الرسول والصحابة ولكن عندما خطت الفلاسفة خطوات في محيط الدين في بداية الدولة العباسية ظهر هذا البحث واحتدم بقوة، وبقدر ما هو معلوم لدينا فقد كان الجاحظ أول من تناول هذه المسألة وكتب فيها كتابا مستقلا ويمكن قياس ذلك من خلال منزلة الجاحظ في العلوم العقلية والنقلية ومعرفة ماذا كتب؟ ولكن جميع مؤلفات القدماء دمرت وخربت هكذا بحيث لا يوجد اليوم كتاب واحد من هذا التراث الضخم في علم الكلام، وقد ورد ذكر هذا الكتاب مرة واحدة فقط في مؤلف "إيثار الحق" وهو مجتهد يمنى من القرن التاسع وقد طبع في مصر في هذه الأيام.

والطرق الأربعة التي وردت في كتاب (شرح المواقف)، أشار فيها المؤلف في الطريقة الثانية: بقوله: (هذا هو مذهب الجاحظ وقد أثنى عليه الإمام الغزالي أيضا).

ومع أن اعتقاد الأشاعرة ذاع في جميع أنحاء العالم لكن الأمر العجيب أن الاعتراضات المستمرة عليه في الوقت الراهن كان أكثرها من عصر الأشاعرة أنفسهم، وبناء على هذا فإن الإمام الغزالي والرازي وابن رشد والراغب الأصفهاني وشاه ولي الله وغيرهم من أساطين الكلام تركوا منهج الأشاعرة

واختاروا طريقا آخر، ولكن مذهب الأشاعرة كان موافقا لطبائع العوام، وما قاله الإمام الغزالي وغيره موافقا لرأي الأشاعرة هو اليوم على قلب ولسان كل طفل، وآراؤهم الخاصة ألقوها على مسامع الناس في ضجة وصخب فاضطر هؤلاء العلماء أن ينفصلوا عن العامة ويختاروا دائرة خاصة بهم وما قالوه خاطبوا به هذا الجمع الخاص).

وأشكر الله أن أحاديثهم الخاصة والسرية لم تنتشر، ولكنها لم تنعدم تماما، وسأكتب هذا البحث باستيعاب كامل والهدف منه الأمور التالية:

١- توضيح ما الأبحاث والأفكار الخاصة بالمجتهدين وأئمة هذا الفن والمتعلقة بمسألة النبوة.

٢- الاعتراضات التي صدرت على النبوة ليست جديدة بل كانت من قبل مع إضافة طفيفة.

٣- هذه الاعتراضات كانت في الأغلب خاصة بجماعة أهل الظاهر وقد حفظ الباحثون الدين من الهجوم عليه.

٤- لقد ألفت الكتب الدراسية والمتداولة في علم الكلام وفقا لذوق العامة ولم يذكر فيها أبحاث العلماء وأئمة علم الكلام وإن ذكرت يتم تناولها بأسلوب ضعيف لا يمكن أن يرغب فيه أو يميل إليه أحد، ونتجه الآن ناحية البحث الأصلي:

مسألة خرق العادة

الاعتراضات على النبوة

حقيقة النبوة عند الأشاعرة:

تعريف النبوة كما عرفها الأشاعرة ونسبوها إلى جميع أهل الحق وردت في المواقف: (من قال له الله أرسلتك أو بلغهم عنى ونحوه من الألفاظ ولا يشترط فيه شرط ولا استعداد بل الله يختص برحمته من يشاء من عباده).

ولكن بناء على هذا النوع من التعريف فإن أي شخص يمكنه القول بالنبوة ويعمل عمل النبي فما طريقة اطلاع عوام الناس عليه؟ وأن الله يوحي إلى الشخص الفلاني ويقول له كذا كذا، وبناء على هذا فإن الأشاعرة أقروا دليل المعجزة لتعريف النبوة، أي أن من تصدر عنه معجزة سوف يتيقن منه أن الله يخاطبه وبناء على هذا فإن الأمور التالية تحتاج إلى توضيح:

ما تعريف المعجزة، وما شروطها؟.

هل يمكن الاستدلال بها على النبوة؟

تعريف المعجزة:

عرف الأشاعرة المعجزة بطرق يتضح منها المقصود بتصديق النبوة، ووضعوا لها سبعة شروط هي:

فعل الله، وخارقة للعادة، من المستحيل تعويضها، وتظهر من مدعي النبوة، وأن تتوافق مع الدعوى، وألا تكذب بالبحث، فما المراد من شرط خرق العادة؟ فلو المقصود منه ما يخالف سلسلة أسباب وقواعد الطبيعة، يكون السؤال: هل يمكن أن تكون المعجزة حقيقية؟ وبقدر ما يكتسب الإنسان من معارف فإنها تنحصر في نوعين هما: البديهيات والنظريات، البديهيات هي الأمور التي يكتسبها الإنسان بدون تفكير أي يكتسبها يقينا بدون حجة واستدلال تلقائيا، كمثل الشمس تضيء والنار تحرق، والكل أكبر من الجزء، لا يمكن الجمع بين متناقضين في مكان واحد.

أما النظريات فهي تلك الأمور التي تتحصل بالتمعن والفكر مثل: العالم حادث، والله موجود، والروح قديمة، ومع أن النظريات في ذاتها ليست بديهية ولكن من الضروري أن تصل نهايتها إلى حد البديهيات.

والبديهيات أقسام كثيرة، فالأشياء التي تقع دائما ونفس المعدل في نظام الطبيعة ينشأ العلم الكلي ويتكون من استقرائها هي أيضا نوع من البديهيات ومن بين تلك البديهيات تجري سلسلة الأسباب والعلل في العالم أي أن الشيء الذي يوجد في حيز الوجود له أسبابه وعلله، وعندما توجد الأسباب والعلل لأي شيء فمن الضروري أن يكون لهذا الشيء وجود، الآن لو أن هذا هو تعريف المعجزة فإنها تحدث خلافا لسلسلة العلة والمعلول بداهة وعندما تكون المعجزة خلافا لهذه السلسلة تكون مخالفة للبداهة. يذكر الإمام الرازي في كتابه "مطالب عالية"(١) عند بحث هذا الاعتراض "العلم قسمان: بديهي ونظري، والنظري يتفرع من البديهي، ولهذا لو أن أي نظري أبطل البديهي فسيكون معنى هذا أن الفرع ضد الأصل وهذا مستحيل: "ويتضح من هذا أن العلوم النظرية لا يمكن أن تصيب البديهيات بالخلل".

"والآن عندما نمعن النظر في: ما الشيء البديهي؟ نعلم أنه العلم الذي يكتسبه الإنسان تلقائيا على نحو يقيني، ولا يمكن أن يتطرق إليه الشك بأي حال من الأحوال وهو بديهي........".

"وعندما نتأكد من هذه المقدمة نقول: عندما نُري إنسانًا ما أنك متأكد جزما أن هذا الشخص كان في الرحم أولا ثم خرج طفلا من الرحم ثم صار شابا بعد ما كان طفلا، والآن لو قال شخص ما لا بل ولد مرة واحدة وأصبح شابا فإننا سوف نتأكد قطعا أن هذا الشخص يغالط الحقيقة وأن قوله محض باطل وافتراء".

"يثبت من هذا أن الزعم بخرق العادة من لغو الحديث وعندما يثبت هذا كليا فإننا نوعيهم من خلال ضرب عدة أمثلة:

---

(١) هذه ترجمة حرفية لعبارات الإمام الرازي.

١- لو أن شخصا ما قال: من الممكن أن يتحول البحر وعيون الماء إلى ذهب، أو أن الجبل صار ذهبا خالصا فسيقول كل شخص أنه مجنون".

٢- لو أن شخصا ما قال: من الممكن أن يصبح بيتي المبني من الحجر فيلسوفا ماهرا في دقائق المنطق والفلسفة، ومن الممكن للعديد من الدور في المنزل أن يتحولوا إلى علماء ومفكرين، ومن الممكن عندما أعود إلي البيت أجد حماري وقد تحول إلى بطليموس ويتلو كتب الطب، والديدان التي في البيت انقلبت إلى بشر يتباحثون في المنطق وإلهيات والهندسة سيقول كل شخص: إن هذا الرجل وصل إلى أعلى درجات الجنون.

٣- لو أن شخصا ما قال بعد أن رأى أحد الميادين: من الممكن بدون أي مهندس أن أبني قصرا وإيوانا عظيما وأُجري من تحتهما الأنهار فسيقول كل شخص هذا رجل مجنون.

يثبت من هذا أن العقل يقرر هذا الأمر يحكم فيه بالبداهة بقدر ما تحدث من حوادث طبقا للعادات المستمرة والنظام المعتاد ويظهر هذا الاحتمال "من الممكن القدح في البديهيات خلافا له".(١)

على كل حال فإن القول بمعجزة خرق العادات في حد ذاته إنكار لوجود المعجزة وبناء على هذا فإن بعض كبار الأشاعرة يخرجون شرط خرق العادة من تعريف المعجزة وقد جاء في (شرح المواقف): "والمعجزة عندنا ما نقصد به تصديق مدعى الرسالة وإن لم يكن خارق للعادة".

والآن أفرض أن خرق العادة ممكن والمعجزة هي اسم لخرق العادة، يعنى أن شيئا ما ظهر إلى حيز الوجود بدون الأسباب والعلل أو لا يوجد معلول بالرغم

---

(١) إلى هنا كانت الترجمة الحرفية لعبارات الإمام الرازي الأصلية.

من وجود العلة، مثلا النار لن تحرق أي رسول معنى هذا أن علة الحرق أي النار كانت موجودة ولا تستطيع الحرق، أو مثلا أي رسول أو نبي يضرب بعصاه الحجر فينفجر منها عين الماء فمعنى هذا لم يكن هناك أي علة لتفجير عين الماء وبالرغم من هذا تفجرت العين.

في هذه الحالة يطفو هذا البحث وهو أنى لنا أن نطمئن على هذا الأمر، ففي الواقع لم يكن يوجد أي سبب لهذه الواقعة وخصوصا فإن هذا الاحتمال يقوى طبقا لرأي الأشاعرة، يقول الأشاعرة: إن الجن والشياطين قادرون على جميع أنواع خرق العادة، إلى جانب هذا يقولون أيضا: إن الجن والشياطين يستطيعون الحلول في جسم الإنسان وفي ذلك الوقت يستطيع أن تصدر جميع الأفعال العجيبة والغريبة عن ذلك الإنسان، والتي يمكن للجن والشياطين أن يصدروها بأنفسهم افرض الآن أن أحدا ما ادعى النبوة ليظهر خرقا للعادة فكيف يمكن الاطمئنان لذلك وألا يكون هذا الخرق من أفعال الجن خفية.

ويرى الأشاعرة أنه يمكن أن يصدر جميع أنواع خرق العادات بالسحر حتى أن الرجل يصير حمارا والحمار يصير رجلا، وفي هذه الحالة كيف لنا أن نصدق أن خرق العادة هذه معجزة وليس سحرا، وقد أجاب صاحب شرح المواقف على هذا الاعتراض بأنه لا يبدو خرقا للعادة عظيم الشأن من خلال السحر عندما يعرض الساحر خرقًا للعادة عظيم الشأن فإنه لا يستطيع أن يدعي النبوة، ولو ادعى ذلك فسيمنع الله خرقه للعادات.

لكن هذا الجواب غير كافٍ تماما، فالأشاعرة يقولون بأن الإنسان يستطيع بالسحر أن يطير في الهواء وقلب الإنسان حمارا والحمار إنسانا.(١) ويستطيع أن

---

(١) يذكر الإمام الرازي في تفسير قصة هارون وماروت في (التفسير الكبير) (أما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حمارا والحمار إنسانا).

يفجر العيون من الأرض ويبث الحركة في الجمادات أليس في هذا حرق عظيم للعادات؟ علاوة على هذا ألم يأت الأنبياء بجميع المعجزات عظيمة الشأن، يبقى هذا الأمر وهو أن الساحر لا يستطيع أن يدعي النبوة مع خرق العادات، يمكن أن تبدر عن الساحر في حد ذاته فمن ذا الذي يسلم بذلك في حالة إدعائه النبوة وأن قدرته هذه سوف تذهب هباء، ولقد أتى زردشت وعبد الله بن المقفع بعظيم خرق العادات وادعي كل منهما النبوة.

وعلاوة على تلك الأمور تصدر عنهم أمور عجيبة ومريبة كالشعوذة وقراءة الطالع وعلم التنويم، ولهذا يمكن أن صدق ذلك الشيء الذي يطلق عليه اسم معجزة، ولم يكن يشوب تلك الأشياء شائبة.

المهم أن هذا الاحتمال المتعلق بالمعجزة موجود في كل وقت وظهوره بسبب دوافع خفية؛ ولهذا فإن الإعجاز في المعجزة صعب للغاية.

بصرف النظر عن تلك الاعتراضات كيف نثبت شرط عدم المعارضة يعني كيف يمكن أن نثبت أن هذه المعجزة ليس لها مثيل ولو أن المقصود من عدم الاستطاعة الإتيان بمثلها وقت إظهار المعجزة فلن يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، وسوف يعتقد أن عبد الله بن المقفع وزردشت وغيرهما من الأنبياء لأن الأمور الخارقة للعادة صدرت عنهما، ولم يستطع أي شخص في ذلك العصر أن يأتي بمثلها، ولو أن المراد من هذا أنه لا يمكن لأي شخص معارضتها إلى يوم القيامة فكيف نستطيع النبوءة أو التكهن ألا يكون لها مثيل يوم القيامة، وفي عصر سيدنا موسى لم يكن هناك مثيل لمعجزته، ولكن كيف يمكن أن نتأكد أنه لن يأتي مثيل لها حتى يوم القيامة؟

سيبقى هذا البحث بعد التسليم بتلك الأمور جميعا وهو أن المعجزة قاصرة على أولئك الناس الذين يمكنهم تقديم الحجة والبرهان والتي كانت موجودة آنذاك،

ويمكن للأجيال القادمة أن يعرفوها فقط عن طريق الرواية، لكن كيف يمكن لنا أن نتأكد أن هذا النوع من الروايات قطعي ويقيني؟ التواتر هو أعظم درجات الرواية أي أن الخبر المتواتر يطلق عليه يقيني ولكن هل كل المتواترات يقينية؟ يروى اليهود بالتواتر أن التوراة ليس فيها أي نوع من التحريف، واليهود والنصارى كلاهما متفق ويروون بالتواتر أن سيدنا عيسى مصلوب، ويروى المجوس بالتواتر معجزات زرادشت، المهم أن كل فرقة تروى بالتواتر كثيرًا من الأحداث المتعلقة بدينها ولكن هل نعتبر تلك الأحداث يقينية؟ ربما يقال أن الإسلام شرط لصحة الرواية ومعنى هذا أن التواتر مفيد ويقيني للمسلمين فقط، ولكن كيف يمكن أن نسلم بمخالفة هذا الحكم من طرف واحد؟

الاستدلال على النبوة من خلال المعجزة:

كانت جميـــع هذه البحـــوث تتعلق بوقـــوع المعجزة وإمكان وقوعهـــا، والآن افرض أن المعجزة ممكنة وتكون واقعا ويمكن إثباتها بالتواتر، ولكن تبقى الآن هذه المرحلة وهي كيف يمكن أن نستدل على النبوة من خلال المعجـــزة؟ مثلا يقول شخص ما: أنا مهندس ويقدم حجته وهي أنني أستطيع أن أظل جائعا لمدة عشرين يوما متصلة فمع أنه ظل جائعا لمدة عشرين يوما ومع أن هذه الواقعة خارقة للعادة ولكن كيف نثبت منها علمه بالهندسة؟ وكذلك يقول أحد الأشخاص أنني نبي ومعنى هذا أنه الهادي على السعادة في الدارين ويقدم حجته هذه فيقلب العصا ثعبانا، فلو أنه يفعل ذلك وكم هذا الأمر عجيبا لكن كيف تثبت نبوته من هذا؟ وما الرابط بين الدعوى والدليل؟

كان تقرير هذا الاعتراض يتطابق مع تقرير الإمام الرازي ولكن ابن رشد بين هذا الاعتراض بتوضيح وتفصيل من خلال المعجزة يكون هذا الدليل على

المقدمات، وتصدر المعجزة عن النبي ومن تصدر عنه معجزة فهو نبي، وتأكيد تلك المقدمات رهن بإثبات الأمور التالية:

١- المعجزة ممكنة الوقوع وتقع.

٢- المعجزة صادرة عن مدعى النبوة.

٣- وجود النبوة والرسالة.

٤- من تصدر عنه المعجزة يكون نبيا.

بادئ ذي بدء يجب تحديد حقيقة النبوة وما جنسها وفصلها، ومن الطبيعي أن ماهية النبوة لا تدخل في المعجزة، بل إن الناس الذين يقولون بالمعجزة هم أيضا يقرون بعلامة النبوة في المعجزة ومن الطبيعي ألا تكون العلامة عين الحقيقة، وقد بين الأشاعرة وغيرهم حقيقة النبي وهو الشخص المرسل من الله فهو رسول.

والآن يجب التأكيد على أن وجود الرسالة يعنى أن الله يرسل الرسل للتعريف بأحكامه لأن جماعة كبيرة من الناس منكرة لرسالة.

بعد إثبات هذه الفكرة ينبغي إثبات أن من تصدر عنه المعجزة يكون نبيا، وقد استدل الأشاعرة على هذا الأمر هكذا، فعلى سبيل المثال لو أن أي ملك أرسل مبعوثه لشخص ما وعنده سمات الملك وعلاماته فسوف يتأكد قطعا أنه مبعوث الملك، وهكذا فإن المعجزة علامة الله ولهذا فالذي يملك هذه العلامة فإنه رسول الله ويصبح نبيا.

لكن ينبغي أن نمعن النظر أولا وأنى لنا أن نعرف هذا الأمر وهو أن الشيء الفلاني هو علامة الشخص الفلاني: ويكون هذا منهج ذلك الشخص يظهره بنفسه في أي مناسبة، وعندما أرسل رسولا ستكون معه علامة أو حجة أو يكون الاعتماد على وصف الرسول نفسه، أو يثبت من تكرار التجربة أنه عندما يأتي الرسول من

عند ذلك الشخص فمن المهم أن يكون لديه هذا النوع من العلامات، إذن الاحتمال الأول ضريح البطلان لأن الله جل جلاله لم يقل في أي موقع لجميع الناس أن الشخص الفلاني رسول، والحالة الثانية مستحيلة لأن الرسول نفسه مبحوث فيه، يبقى الآن الاحتمال الثالث فقط وهو مع أنه مفيد فإنه يفيد الأنبياء المتأخرين فقط، بادئ ذي بدء كيف تكون حجة الرسول الذي يبعث للناس على هذه المعجـــزة؟ كانت جميع هذه الاعتراضـــات بناء على طريقة تعريف النبـــوة وكانت قد أقـــرت بوجود المعجزة، وبصرف النظر عن هذا الجانب سوف تأتـــي الاعتراضات العامـــة على النبوة.

اعتراضات عامة:

١- القصد من النبوة تبليغ المعتقدات وإصلاح المعاش والمعاد، ولكن تلك الأمور يكفيها هداية العقل نفسه، وبعث أي رسول من قبل الله ليس له أهمية فكثير من الفلاسفة الذين لم يبعثوا ولم يلهموا بينوا تلك المسائل بطريقة رائعة لا يستطيع الأنبياء بيانها أكثر منهم لهذا ما الحاجة إلى الرسول والنبي؟

٢- الأنبياء ينسخون الشرائع أي أن أحد الأنبياء ينسخ شريعة النبي الآخر، والآن السؤال هو: هل الأحكام المنسوخة كانت من الأمور المهمة والأهداف الأصلية أم كانت أمورًا فرعية وزائدة؟ الاحتمال الأول غير ممكن لأن مهمات الأمور تشترك فيها جميع الأديان وفي نسخها إبطال للدين نفسه ولهذا يبقى الاحتمال الثاني ولكن عندما يبعث رسولا يصر على قبول شريعته بهذا القدر من الاهتمام بحيث لو لم يؤمن به الناس فهم من الضالين والمرتدين وتكون لهم جهنم مستقرا ومقاما عندئذ تنشب

الحروب وتصل إلى مرحلة المجازر الرهيبة وسفك الدماء، فكيف يمكن القياس على هذا وأن الرسول المبعوث من الله سيباح له المظالم وهذا النوع من الشقاق من أجل أمور فرعية؟

مثلا الهدف الأصلي للصلاة هو الخشوع والتضرع إلى الله فقط، هذا الهدف يمكن أن يتحقق عن طريقة الصلاة عند جميع الأديان كالمسيحية واليهودية والمجوسية ولا يختص دين بطريقة ما ويخطأ باقي جميع الطرق وبناء على هذا يجيز القتل وسفك الدماء وهذه الحالة نفسها في جميع الأعمال الدينية أيضا لأنهم جميعا يشتركون في الهدف الأصلي وغير المشترك ليس هدفا أصليا لهم.

٣- الهدف الأصلي للدين هو الاعتقاد في الله، والالتزام بالأعمال الخيرة والحسنة، وتجنب الأعمال القبيحة، والشخص الذي يتوفر فيه هذه الشروط من الضروري أنه يستحق النجاة ولكن الأنبياء يؤكدون بنوتهم بجانب هذه الشروط ويقرون أنها جزء من الإيمان يقولون إن الشخص الذي لا يسلم ولا يعترف بالرسول ربما لا ينجو بالرغم من وجود التوحيد والأعمال الحسنة، وهذا الأمر الصريح خلاف للعقل.

٤- بقدر ما هو موجود من أديان في الدنيا فإنه يوجد بها جميعا أمور جديرة بالاعتراض فاليهود يؤمنون بتجسيد الله ويؤكدون على جميع تلك الأوصاف، التي توجد في البشر العاديين، ويقول النصارى بالاتحاد والحلول وأبوة الله، والمجوس يؤمنون بإلهين اثنين، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بالقدر والجبر متعارضة.

تنبيه: وصف الإمام الرازي هذا الاعتراض في كتابه (مطالب عالية) بهذه الكلمات:

"إن القرآن مملوء من الجبر والقدر والآيات الواردة فيها أكثر من عدد الرمال والحصى ولا شك أنها متناقضة وأن التوفيق لا يحصل إلا بقدر شديد وهذا يدل على أن صاحب هذا الكتاب كان مضطرب الرأي وفي الجبر والقدر غير جازم بأحد الطرفين".

الفقرة الأخيرة قاسية جدا ولهذا السبب لم أتجرأ على ترجمة تلك العبارة الهدف من نشر هذا النص هو أن كبار السلف كانوا يستمعون إلى اعتراض جميع الفرق المعترضة بلا تعصب ويذكرون تلك الاعتراضات في مؤلفاتهم ويجيبون عليها على عكس ما يحدث في الحاضر من تلقين علمائنا هذه المقولة: "بعد أن ترى العدو يأتي يجب إغماض عينيك".

الحقيقة الأصلية للنبوة وخرق العادة:

قدم الإمام الرازي في كتابه مطالب عالية إجابة إجمالية على تلك الاعتراضات المذكورة آنفا بينما أجاب القاضي عضد إجابة تفصيلية عليها في كتابه (المواقف) ولكن مثل هذه الإجابات على الاعتراضات رسخها أكثر ولأننا قد تناولناها في تاريخ علم الكلام فليس هناك أهمية تذكر لتكرارها هنا.

والآن سننتطرق إلى تلك المباحث وفقا لرأي أئمة هذا الفن وسنرفع تلقائيا اعتراضات المعترضين، وستظهر الحقيقة الأصلية لتلك المسائل.

وهذا البحث في الحقيقة مبني على المسائل التالية:

١- هل خرق العادة ممكن وممكن الوقوع؟

٢- هل خرق العادة يندرج في حقيقة النبوة؟

٣- هل يمكن الاستدلال بها على النبوة؟

٤- ما الحقيقة الأصلية للنبوة؟

هل خرق العادة ممكنا؟

المسألة الأولى: الحقيقة هي أنه بقدر ما يجهل الإنسان حقائق الأشياء فإن سلسلة الأسباب والعلل تقل في نظرة بنفس النسبة وأن كل شيء ينسب مباشره إلى الله تعالى، فعندما يرى ابن الفلاح السحب تتراكم في موسم المطر يقول: "جاء الله تعالى"، معنى ذلك أن مجيء السحب في حد ذاته هو قدوم لله تعالى وفي هذه الحالة عندما يرقى ويسمو يقول: "يمطر المطر بأمر من الله تعالى"، وهو الآن جعل السحب تتوسط بين الله وبين الماء، وبعد هذه الخطوة ينشأ هذا التساؤل: هل خلقت السحب بأمر مباشر من الله تعالى أم خلقت بذريعة علة أخرى؟ الشخص قوى الإيمان يحكم بأنه لا توجد بين الله والسحاب علة، الله يصدر الحكم فتخلق السحب من تلقاء نفسها، ويهطل المطر، أو أن هناك بحرًا كبيرًا في السماء يسقط منه المطر ويصير على شكل سحاب مثلما كان يقول قدامى المفسرين، ولقد نقلنا آراء الإمام الرازي في تفسير ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ولكن المفكر يخطو خطوه للأمام. ويقول: "يصعد البخار من البحر أو الأرض وبعد أن يصعد إلى أعلى يتحول إلى قطرات ماء بسبب البرودة" المهم أنه يتضاعف وتتسع سلسلة الأسباب والعلل إلى أن يصبح هذا الأمر يقينيا في النهاية وأن ما يوجد في العالم لا يمكن أن يوجد بدون سلسلة العلة والمعلول، والسبب والمسبب، والشرط والمشروط، والمؤثر والمؤثر، ويسمى هذا النظام وتلك السلسلة الفطرة، سنـــة الله وخلق الله وقد أشار القرآن الكريـــم إلى هـــذا في الآيـــات التاليـــة: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

والأشاعرة هم الفرقة الوحيدة بين الفرق الإسلامية التي تنكر هذه السلسلة ويرون أنه ليس هناك علة لأي شيء ولا يوجد التأثير والخواص في الأشيـــاء، وقد أحصى ابن تيمية مسائل الأشاعرة في كتابه (الرد على المنطق) ومن بين المسائل التي ينفردون بها هذه المسألة.

فيما عدا الأشاعرة تتفق جميع الفرق بل كل الدنيا على هذه السلسلة وكان من نتيجة ذلك - أنهم عدا الأشاعرة - يعترفون باستحالة خرق العادة لكن على الرغم من هذا فإن الخلاف يبدو ظاهريا، يذكر الإمام الرازي في التفسير الكبير عن عند ذكر معجزة عصا سيدنا موسى في سورة الأعراف (اعلم أن القول بتجويز انقلاب العادات عن مجريها صعب مشكل والعقلاء اضطربوا فيه)، بعد ذلك نقل الإمام الرازي ثلاثة آراء تتعلق بهذه المسألة هي:

١- يرى الأشاعرة أن كل أنواع خرق العادة عموما ممكن حتى إنه من الممكن كذلك للجزء الذي لا يتجزأ أن يصبح عالما وعاقلا مرة واحدة فيستطيع الأعمى الجالس في الأندلس أن يرى أي قرية في الصين.

٢- هذا الأمر غير ممكن تماما عند الفلاسفة الطبيعيين.

٣- هذا مستحيل عند المعتزلة ما عدا بعض الصور الخاصة.

الحقيقة هي أن الاختلافات المتعلقة بهذه المسألة هي في الأصل نزاع لفظي، ولم يقل أحد بإمكانية وجود المعلول بدون علة إلا الأشاعرة، وأن الشخص الذي لا يقول بهذا لا يمكن أن يقول بخرق العادة وهكذا ينشأ الاختلاف عندما تقع أي واقعة خلافا للعادة الجـــارية، فإن عامة الناس يعبرون عنها بخـــرق العادة ويقولون إن خرق العادة ممكن وإلا لماذا تقع؟ مع أن هذه الواقعة تقع بسبب مسببات وأن تلك الأسباب غير عادية، فقد أثبت الإمام الرازي في كتابه "مطالب عالية" إمكانية خرق العادة هكذا بأنه من الممكن أن تنشـــأ حركة غيـــر عادية ويترتب عليها وقوع

أمـــر غير عادي، ولكن الإمام الرازي لم يفكر في أن ذلك الأمر في هذه الحالة لا يعد خرقا للعادة لأن علته وهي حركة الفلك موجودة، ويؤكد الإمام الرازي من هذا الاستدلال أن ذلك الشيء الذي يقع خلافا للعادة يطلق عليه خرق العادة مع أنه يوجد له علة غير عادية.

وقد اختلف الأشاعرة في الرأي فيما يتعلق بهذه المسألة فكان عامة الأشاعرة يسلمون بجميع أنواع خرق العادة، ويسلمون بصدورها عن كل شخص وفي رأيهم أن هذا النوع من العادة الذي يصدر عن الرسول هذا النوع بعينه يمكن أن يصدر عن الأولياء بل عن الكافر والزنديق والساحر وغيرهم ويكمن الفرق فقط في أن أسماءهم تتبدل أي أن ما يصدر عن الكافر وغيره يطلقون عليه اسم السحر والشعوذة وما يصدر عن الأنبياء يسمى إعجازا وتقل هذه السعة بقدر التفكير في استخدامها: يقول العلامة أبو إسحاق الإسفراييني: (وكان من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان وينتمي إلى الطريقة الأشعرية: (إن الكرامة لا تبلغ مبلغ خرق العادة)، وكان أبو القاسم القشيري وهو من كبار الصوفية الذين ينتمون إلى الأشاعرة يقول إن: (كثيرًا من الأشياء مع أنها ممكنة من حيث المقدورات الإلهية ولكن من المعلوم قطعا أنها لا يمكن أن تصدر عن أي ولي)(١).

رأى أبو علي سينا:

عقد أبو علي سينا بابا في نهاية الإشارات بحث فيه موضوع خرق العادة كتب فيه: "لو قلت لكم إن شخصا ما صوفيًا لم يأكل منذ فترة أو أنه قام بعمل ما يزيد عن قوته وطاقته أو أنه تنبأ بنبوءة أو أن شخصا ما خسفت به الأرض بسبب

(١) نقل كلا الرأيين عن طبقات ابن السبكي الجزء الأول، وكتب ابن السبكي موضوعا مفصلا عن جواز العادة)..

الدعاء عليه أو أنه أحدث زلزالا وسخر الجوارح من الحيوانات وغيرها فإنك لن تنكر هذه الأعمال لأن أسبابها جميعا يمكن أن تكون طبيعية وتظهر عن طريقها، وقد بين ابن سينا أيضا تلك الأسباب بالتفصيل فكتب مثلا بالنسبة لإمساك الطعام أنه عندما تنشغل المعدة في هضم الطعام فيقل عمل الغذاء الصحيح وتكون نتيجته أن الإنسان لا يشعر بالجوع عدة أيام لأنه ليس في حاجة إلى بدل ما يتحلل وبناء على هذا من الممكن لأي صوفي أن يستغرق في تصوره لله تعالي ولا تميل طبيعته إلى هضم الطعام ويظل في هذه الحالة على نفس الطعام لفترة من الوقت ولن يحتاج إلى بديل لما تحلل، وفي حالة الخوف يزول عنه الشعور بالجوع".

ورغم أن ابن سينا قد بين أسباب وعلل جميع أعمال خرق العادة مع هذا سماها خرق العادة ويبدو منها أن الشيء الذي يكون خلافا للعادة العامة يعبر عنه بخرق العادة مع أن هذه الأصول في الواقع ليست معارضة للطبيعة وقد أدلى شاه ولي الله بدلوه في هذا الأمر وكتب بوضوح في كتابه "تفهيمات الهية" (إنما المعجزات والكرامات أمور أسبابية غلب عليها الكمال فباينت سائر الأسبابيات).

خلاصة القول في هذه المسألة أنه فيما عدا الأشاعرة فقد اتفقت باقي جميع الفرق الإسلامية على أن أي شيء يتعارض مع أصول الطبيعة لا يمكن أن يظهر على حيز الوجود، ولهذا فإنه عندما يقول أي شخص أو أي فرقة (عدا الأشاعرة) بخرق العادة فإن المقصود منها فقط أن تلك الواقعة أو العادة الجارية العامة وقعت خلافا للعادة وليس لأنها في الحقيقة خلافا لقواعد الطبيعة.

وما ينشأ من خلاف ينشأ فيما يتعلق بإثبات خرق العادة وفيما يتعلق بأصول التيقن من صدق الأحداث فقد اختلف فيها الناس اختلافا كبيرا، وفي رأي الباحثين أن الأصول المتعلقة بالتأكد من صدق الأحداث هي:

١- إن الواقعة التي توافق الذوق العام نتأكد أكثر من وقوعها والواقعة التي تقع خلافا للعادة وخلافا للطبيعة يتطلب التأكد من مصداقيتها السعي والجهد، افرض أن رجلا صادقا روى أن المطر يهطل في مدينة ما فسوف تصدقه على الفور لكن لو أن نفس الرجل ذكر أن الدم يهطل بدلا من الماء فمن المؤكد أن الحالة تتغير وأننا في حاجة إلى شهادة قوية لإثبات الواقعة، خلاصة القول أن حيثية الواقعة تتغير بحيثية الشهادة.

٢- إمكانية وقوع أي واقعة فقط لا يكفي للتأكد من الواقعة.

٣- إن الأحداث التي تقع من الممكن أن يحدث خلافا لها وبسبب هذا يتطرق إلينا الشك في صدق تلك الأحداث.

٤- بالنسبة للواقعة التي لم يتأكد من أي جانب من جوانب النفي والإثبات فيها فإننا لن نتخلى عنها بل إننا سنصدق من الجانبين ما هو أقرب إلى الحقيقة.

إن عوام الناس لا يراعون تلك الأصول وهذا هو سبب الاختلاف، على سبيل المثال ذكر شخصا أن ابن خلكان كتب أن أحد الصوفية دلف إلى النار ولم تترك النار أي أثر عليه فسيصدق عامة الناس هذه الواقعة فورا لأنها ممكنة الوقوع في رأيهم وأنها مذكورة نقلا عن ابن خلكان، لكن الباحث سيفكر في هذا الأمر ويقدر إمكانية وقوع هذه الواقعة وهل يمكن أن يحدث أكبر منها أو أن ابن خلكان أخطأ أو أن الراوي الأول خدعه أو حدث خطأ من الرواة فيما بينهما، أو أحد منهم كذب قصدا ولا شك أن درجة حدوث هذه الواقعة مستبعد ونادر الوقوع وبالنسبة لها لو أن هناك شهادة قوية وموثقة لإثباتها سيمكن تصديق الواقعة وستقرر نشأة تلك الأسباب التي بسببها لم يتأثر جسده بالنار.

يتضح من الحقيقة النعامية للأشاعرة المثيرة للتعجب أنهم عندما يزعمون صدق أي خرق للعادة يتأكد فقط أن هذه الواقعة ممكنة وأن هذا الإمكان يمنحها هذا القدر من الرحابة فتضم إليها كل نوع من المحظورات التي لم تتحقق قط من الأزل حتى الآن ولم تقع ولكنهم من الناحية الأخرى لا يفكرون في أن يثبتوا هذا النوع من إمكان حدوث الواقعة وممكن أن نضيف إليها أخطاء الرواة ولهذا فإن مدارها حول إمكانية حدوثها فقط فلماذا لا يختار المرء ذلك الجانب الأكثر إمكانية في الوقوع بل قريب الوقوع؟

على كل حال لم ينكر أحد خرق العادة (بمعناها العام) وإن ما تم بحثه في الأحداث ما هو مستبعد من خرق العادة ولو أن هناك شهادة قوية لإثباتها فلن يكون هناك سببا لإنكارها.

البحث الثاني:

ظلت هذه الفكرة في الدنيا دائما وفي الوقت الحاضر أيضا وتوجد لدى جميع الناس في الغالب وهي ضرورة أن يأتي الأنبياء والأولياء بأمر ما فوق العادة، ووصلت قوة هذه الفكرة لدرجة أن الأنبياء يسلمون بالعظمة الإلهية ويعتقد الهندوس أن رام وكرشنا إلهين في شكل جسماني، كما أن المسيحيين يؤمنون بأن سيدنا عيسى إله مجسم، ومع تعاقب الأزمان وتطور العقل قلت هذه المنزلة ووصلت إلى درجة خرق العادة، وهكذا عندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن رسالته قال الناس الذين يعتبرون خرق العادة من لوازم النبوة بتعجب شديد: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (يونس)، ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ (الرعد)، ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ (طه). وبعض الناس قال إنها ليست معجزة ولكن من المؤكد أنها شيء من التميز: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (الإسراء).

كان الإسلام قد جاء لينشر العقائد السليمة وفقا للأصول والقواعد الدينية وليبقى على الصالح منها على حاله وينهى عن غير الصالح ويستغنى الدين عن كل أنواع التطور والإصلاح حتى يوم القيامة وكانت مهمة الإسلام هي تكميل فكرة التوحيد بعد أن يعرض الحقيقة الأصلية للنبوة ولهذا فإنه بادئ ذي بدء أبدى هذا الأمر بوضوح وحرية وشفافية كاملة وهو أن الأشياء التي تكون أسمى من البشرية لا تصدر عن الرسول:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (الأنعام).

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف).

هذه المسألة بالرغم من أنها دقيقة وحساسة وتتعارض تماما مع معتقدات العوام لكن المشرع أولاها اهتمامه فكم يقع أي شخص في سوء الفهم فيما يتعلق بها حتى القرون الأولى وبعد ذلك صححت هذه الغلطة الأزلية، وهذا الخطأ العام القائل بتلازم المعجزة والنبوة.

وكان المنكرون الذين يستحضرون المعجزات ويعتبرون النبوة مرهونة بالمعجزات أجاب الإسلام عليهم بإجابات مختلفة وبأساليب متعدد ولكنه في كل موضع بين هذه الحقيقة وهي أن النبوة ليست رهنا بالمعجزة: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد).

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (العنكبوت).

ورد في سورة بني إسرائيل أن المنكرين لله يقولون: "لن نؤمن بك حتى تخرج لنا من الأرض عين ماء، أو تعد لنا حديقة من النخيل والعنب، أو تنزل

علينا كسفا من السماء، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو تبني لنا قصرا من الذهب، أو تصعد الي السماء، وقد قال الله تعالى ردا عليهم جميعا":

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

إن الفكرة الجوهرية الجديرة بالاهتمام في هذا الموضع هي أن المطالب التي كان الكفار يطلبونها لم تكن مستحيلة وغير ممكنة رغم ذلك فإن الله تعالى طعن في إظهارها وكان الهدف من إظهارها هو مع أن هذه الأقوال من اختيار الله لكن تقديمها كان لإثبات النبوة.

وقد ابتلى الناس بهذا الخطأ القديم وإلا فإن إنكار خرق العادات لم يكن بناء على أن الله تعالى غير قادر عليها، يقول الله جل شأنه في إحدى الآيات: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام). ويكتب الإمام الرازي في تفسير آية: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ من سورة العنكبوت (وليس من شرط الآية المعجزة)، ثم يسترسل بعدها بقليل ويقول: (ولهذا أعلم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة).

يذكر شاه ولى الله الدهلوى في كتابه "حجة الله البالغة": "فليست المعجزات ولا استجابة الدعوات ونحو ذلك إلا أمورا خارجة عن أصل النبوة لازمة لها في الأكثر وقد أفرد الإمام الغزالي عنوانا مستقلا للنبوة في كتابة" "المنقذ من الضلال" يقول فيه بعد أن كتب عن حقيقة النبوة إن تأكيد النبوة يكمن في إرشادات الرسول وتوجيهاته، ويكتب بعد ذلك:

> **"فمن ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانا وشق القمر"[1].**

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط ١- ١٩٨٧م ص ٧٤ (المترجم).

البحث الثالث:

المعجزات هي دليل النبوة فقط، ومذهب الأشاعرة هو مذهب أهل الظاهر وهم كذلك لا يزعمون أن المعجزة هي الدليل العقلي للنبوة بل إن مذهبهم هو أن وقت صدور المعجزة أيقن الناس بالعادة لا بالعقل، وقد جاء في "شرح المواقف".

(وهذه الدلالة ليست دلالة عقلية محضة، بل هي دلالة عادية كما أشار إليه بقوله وهي عندنا أي الأشاعرة إجراء الله عادته فخلق العلم بالصدق).

ولا نستطيع تحقيق هذا الزعم بشكل كلي وإلا سيلزم تكذيب البداهة، ومن الثابت علانية أن الآلاف من الناس لم يؤمنوا بمعجزات الأنبياء وقت ظهورها، بل إن عددنا غير المؤمنين بها كان المعجزة غير كافية لتأكيد النبوة.

ويكتب الإمام الغزالي في بحثه النبوة في كتابه "المنقذ من الضلال": (فمن ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانا وشق القمر).

ويكتب راغب الأصفهاني: (وذلك يطلبه أحد رجلين إما ناقص عن الفرق بين الكلام الإلهي وبين البشري، وإما ناقص وهو مع نقصه معاند)[١].

حقيقة النبوة:

المسألة الرابعة: مر بنا آنفا بيان الأشاعرة لحقيقة النبوة وأصولها وشروطها وقد شرح كل من الإمام الغزالي والإمام الرازي وغيرهما تلك المسائل في كافة مؤلفاتهما وفقا لذوق الأشاعرة وتوجهاتهم، لكنهما بينا أبحاثهما الخاصة في مؤلفات خاصة وأعلنوا كذلك أن طريقة الأشاعرة ومنهجهم غير كافٍ ومليءٌ بالمشكلات. يذكر الإمام الرازي في كتابه (مطالب عالية):

(١) كتاب الذريعة صفحة ٧٠.

(اعلم أن القائل بالنبوة فريقان أحدهما الذين يقولون إن ظهور المعجزات على يده يدل على صدقه، وهذا القول هو الطريق الأول عليه عامة أرباب الملل والنحل).

والقول الثاني أن نقول: إنا نعرف أولا أن الحق والصدق في الاعتقادات ما هو، وأن الصواب في الأعمال ما هو، فإذا عرفنا ذلك ثم رأينا إنسانا يدعو الخلق إلى الدين الحق ورأينا أن لقوله أثرا قويا في صرف الخلق من الباطل إلى الحق عرفنا أنه نبي صادق واجب الاتباع وهذا الطريق أقرب إلى العقل والشبهات فيه أقل.

بعد ذلك بين الإمام الرازي الطريقة الثانية بتفصيل أكبر ثم عقد عنوانا أثبت فيه أن القرآن الكريم أثبت هذه الطريقة بشكل أفضل ثم يكتب: (الفصل الثاني في بيان أن القرآن العظيم يدل على أن هذا الطريق هو الطريق الأكمل والأفضل في إثبات النبوة). ثم يكتب فيما يتعلق بهذه الطريقة:

(الفصل الخامس في بيان أن إثبات النبوة بهذا الطريق أقوى وأكمل من إثباتها بالمعجزات، وقد بين الطريقة الثانية باختصار شديد في التفسير الكبير عند تفسير هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱلصُّدُورِقَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِٱلصُّدُورِ ﴾. (يونس) وكتب أن هذه الطريقة هي الأشرف والأعلى والأكمل والأفضل لإثبات النبوة).

وخلافا للإمام الرازي فقد قام كل من الإمام الغزالي وابن حزم وابن رشد وشاه ولي الله بشرح وتوضيح حقيقة النبوة وماهيتها بطريقة منطقية وقد نقلنا هنا جميع تلك الآراء التي رسخت في الذهن صورة كاملة للنبوة، ويتضح من ذلك أن الذي دون في الكتب الكلامية المتداولة هو فقط من أقوال أهل الظاهر من الأشاعرة، وقد بين الإمام الرازي حقيقة النبوة بالتفصيل في "مطالب عالية" وسنذكر هنا خلاصته.

حقيقة النبوة عن الإمام الرازي:

قدم الإمام الرازي عدة مقدمات قبل أن يدلي بدلوه في حقيقة النبوة وهي:

١- إن الكمال الأصلي للإنسان هو إدراك الخير والشر وحقائق الأشياء وتفصيل هذا الإجمال هو أن الإنسان منح نوعين من القوى، همـــا: القوة النظرية والقوة العملية ومهمة القوة النظرية هي تدبر حقائق الأشياء وأن تقرر هذا الأمر وكمال هذه القوة هو العلم الصحيح لحقائق الأشياء، أن الشيء الذي يرد على الذهن تتطابق صورته تماما مع صورته الحقيقية والأصلية، والقوة العملية تعنى أي الأفعال جديرة بالعمل وأيها غير جدير، وكما لها هو أنه تولد في الإنسان ملكة يصدر عنها أفعال خيرة تلقائيا.

ينقسم الناس من حيث تلك القوتين إلى ثلاثة أقسام هي:

١- أولئك الناس الناقصون في أوصافهم.

٢- كاملون بأنفسهم لكمهم لا يستطيعون أن يكملوا النقص.

٣- كاملون بأنفسهم وقادرون على معالجة الناقصين.

٤- درجات الكمال والنقص متفاوتة للغاية، وقد بلغت درجة النقصان مبلغا ظلت فيها الصورة فقط هي الفرق بين الإنسان والحيوان، وهكذا فقد أخذت درجة الكمال تتزايد إلى أن وصلت إلى حد صار فيه الإنسان ملاكا وهناك آلاف من الدرجات تتوسط بين كلتا الدرجتين لدرجة أنه لو يوازن بين أحوال آلاف من أفراد البشر لثبت أن كل شخص يتفاوت في تلك الأوصاف شيئا ما عن الشخص الآخر.

ولأن لكل من النقصان والكمال حدودهما النهائية لهذا من الضروري أن يوجد في كل عصر شخص ما يصل إلى أعلى درجات الكمال، والآن فإن الشخص الذي تتوفر فيه أكمل درجات الكمال في هاتين القوتين ويستطيع أن يسمو بالآخرين إلى درجة الكمال هو نفسه نبي ورسول.(١)

وبعد أن أثبت فضيلة الإمام أن النبوة اسم لكمال القوة النظرية والعملية فقط ولا دخل للمعجزة وغيرها فيها يقول: (ومن جملة الآيات الدالة على صحة ما ذكرناه أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم طلبوا منه المعجزات القاهرة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ ثم أنه تعالى قـــال: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ يعنى كون الشخص إنسانا موصوفا بالرسالة معناه كونه كاملا في قوته النظرية والعملية وقادرا على معالجة الناقصين في هاتين القوتين وليس يلزم من حصول هذه الصفة كونه قادرا على الأحوال التي طلبتموها منه).

حقيقة النبوة عند شاه ولي الله:

وقد تناول شاه ولي الله في كتابه: "حجة الله البالغة" حقيقة النبوة بدقة نظر متعمقـــة وإدراكا للحقيقة ولهذا ننقل ما كتبه وأسلوبـــه ولن أضيـــف أي إضافات من جانبي.

"لفهم هذا الأمر أي تكليف الإنسان وإقامة الشرائع والأديان وكلها أمور فطرية يجب أن نمعن الفكر في سلسلة الكائنات.

---

(١) هذا خلاصة ما ورد في كتاب "مطالب عالية" وقد كتب الإمام في التفسير الكبير في تفسيره الآية "قالت لهم رسلهم إن نحن..."(إبراهيم) هذا التقرير باختصار شديد وأعلن أنه مأخوذ عن الإمام الغزالي وقد مدحه الإمام الرازي في هذا التقرير وكتب "فهذه أسرار عالية مخزونة في ألفاظ القرآن".

بادئ ذي بدء عليكم التفكير في النباتات، وانظروا إلى الأشجار إنها ملايين الأنواع والأقسام، لكن كل شجرة تختلف عن الأخرى في اللون والطعم والرائحة والأزهار والثمار والأوراق والفروع، وهذه الاختلافات لها نتائج نوعية في صورتها أي أن لكل شجرة العديد من خصائصها تنبت هي نفسها في صورتها النوعية، وبناء على هذا فإن التساؤل مثلا: لماذا خلق العنب حلو الطعم رقيق القشرة، يعد سؤالا باطلا؛ لأنك بهذا السؤال كأنك تقول: لماذا العنب عنبا؟ فطبيعة العنب نفسه تقتضي أن يكون حلوا ولطيفا ورقيق القشرة.

خذ آلاف الحيوانات فإنها مثل النباتات كل نبات له صورة وشكل ولون مختلف ولكن منها نباتات تتفوق على النباتات الأخرى في بعض المميزات الأخرى أي أن المقدرة والصلاحية والإلهامات الطبيعية لكل حيوان تجعل له خصوصية يتميز بسببها عن بني جنسه والتي ستكفل له جميع حاجيات حياته، ولأن النباتات حساسة وليست متحركة بالإرادة لهذا تثبت فيهم الجذور التي تمتص الماء والهواء وتوزعها على جميع الأغصان والأوراق، ولأن الحيوان قد جبل على الإحساس والحركة بالإرادة؛ لهذا وهب هذا النوع من الإدراك الفطري الذي يجعله يمشي ويتجول بنفسه ويستطيع أن يوفر جميع ضروريات حياته، ومن ثم فإن كل واحد يختلف عن الآخر في طرقة إقامته وشرابه وطعامه، فذوات الأربع ترعى العشب، والوحوش تأكل اللحم، والطيور تطير والسمك يسبح وكل هذه الاختلافات هي نتيجة صورة النوعية المختلفة وقد منحت نفس الصورة النوعية لكل واحد هذا النوع الخاص من الإدراكات والعلوم الخاصة والإلهامات الخاصة والتي تتناسب مع حاجياته، ولكن ذلك القدر من العوم والإدراكات التي عند الحيوانات جميعها فطري وإلهامي أي أنه يكتسبها بلا أي واسطة أو سابق معرفة، بل إن هذه العلوم والادراكات تخلق متلازمة معه وهذه أعظم خاصية تفصل الإنسان عن الحيوان، علاوة على العلوم والإدراكات الفطرية والطبيعية للإنسان (والتي يشترك فيها

بالتساوي مع جميع الحيوانات) الأخرى تمنحه نوعا آخر من الإدراك الذي يطلق عليه لفظ نظري ومكتسب، والذي يحصل عليه بالتجربة والتفكير والتدبر وترتيب المقدمات هو الإدراك أو الإلهام المكتسب والذي يحصل عن طريقة الإنسان هو التجارة والصناعة والحرفة وكل أنواع العلوم والفنون، وهذه القوة تظهر بطرق مختلفة ويتشكل منها الملك والقائــد والحكيم والصانع لكن كل هذه العلوم والإدراكات التي ترتبط بالحالات الجسمانية للإنسان تمنح نوعا آخر من الإدراك للإنسان والتي لها خاصيتها الروحانية ويعبر عنها بالروح الملكية، وبتأثير هذه القوة فإن الإنسان في حله وتر حاله يرى المخلوقات ويفكر: لماذا قامت كل هذه الدنيا، وأنا نفسي من خلقني؟ ومن ذا الذي يسر لي سبل الرزق؟ والجواب على هذه الأسئلة تقول: إنها قوة أعظم نحني أمامها هامة العجز ونؤدي لها جميعا تحية الإكرام والإجلال بخشوع وخضوع. وجميع المخلوقات من شجر وحجر وشمس وقمر ونجوم وأرض وسماء تعترف جميعا بهذا المدبر الأعظم وتطأطئ رأسها أمامه كما ورد في القرآن الكريم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾.

لكن الفرق هو أن اعتراف المخلوقات الأخرى وخضوعها يكون بلسان الحال بينما منح الإنسان لسان المقال إلى جانب لسان الحال، وحاسة الانفعال أيضا من تأثير تلك القوة الروحانية أي عندما يؤدي الإنسان أي عمل صالح أو طالح فإن أثره يظل راسخا في قلبه فلو كان العمل صالحا يطرأ على القلب حالة من الانشراح، ولو أن العمل طالحا فإنه يشعر بالانقباض، وهذه الحاسة غير موجودة في الحيوان مطلقا.

المهم أن هذا الإدراك الروحاني يقتضي أن تقوم سلسلة طويلة من الأصول والقواعد والعقائد والأعمال، ولكن لأن هذه القوة غير متساوية بين جميع الأفراد والكمال الروحاني للإنسان مرهون بها، وقد أعدت هذه المكانة الروحية قانونا

كاملا للخير والشر والحسنة والسيئة؛ ولهذا فالله تعالى يخلق شخصا في كل عصر يكون جديرا بإلقاء الوحي الإلهي ويعتني الله بهذا الشخص عناية خاصة فيتعلم ويتربى في كنفه يمنحه الشريعة ويحكم عليه جميع الناس بأنه يؤدي الأوامر والنواهي، ولكن كل الذي تم هو بمقتضي فطرة الإنسان وصورته النوعية "فإن قيل: من أين وجب على الإنسان أن يصلي؟ ومن أين وجب عليه أن ينقاد للرسول؟ ومن أين حرم عليه الزنا والسرقة فالجواب وجب عليه هذا وحرم عليه ذلك من حيث وجب على البهائم أن ترعي الحشيش وحرم عليها أكل اللحم ومن حيث وجب على النحل أن تتبع اليعسوب إلا أن الحيوان استوجب تلقى علومه إلهاما جبليا واستوجب الإنسان تلقي علومه كسبا ونظرا أو وحيا وتقليدا".(١)

رأي الإمام الغزالي في النبوة:

بين الإمام الغزالي حقيقة النبوة بإسهاب وتفصيل أكثر في كتاب معارج القدس، ولكنني سأكتفي هنا في هذا الموضع بما كتبه فضيلة الإمام الغزالي في كتابيه المنقذ من الضلال وإحياء العلوم ونذكر هنا خلاصته. يقول:

خلق الإنسان جاهلا منذ بدأ الخليقة وفي الوقت الذي خلق فيه لم يكن واقفا على أي شيء من أنواع المخلوقات فخلق لديه الإحساس باللمس أولا وعن طريقه أخذ يشعر بتلك الأشياء المرتبطة باللمس مثل الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة، وكانت هذه الحاسة لا تتعلق بالمرئيات والمسموعات وكان يمكنه معرفة الشيء بمجرد سماعه وكانت الحاسة معدومة عنده، وبعد حاسة اللمس بدأت حاسة البصر في الإنـــسان والتي عن طريقها يستطيع أن يدرك المقـــدار واللون، ثم ظهرت قوة السمع لديه ثم ملكة التذوق حتى انتهت حدود المحسوسات، ثم يبدأ

---

(١) شاه ولي الله: حجة الله البالغة:ص. ١٢٣ . (المترجم)

عهد جديد منح ملكة التميز حيث يمكنه إدراك تلك الأشياء التي تكون فيها الحواس خارج المقدرة وهذه الحقبة تبدأ في العام السابع ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الممكن والمحال والجائز ثم يسمو درجه أعلى تتجاوز حدود العقل وتتسم الحواس بعدم النفع لإدراك العقل والتميز وهكذا يكون العقل معطلاً عن المدركات في هذه المرحلة وهذه الدرجة تسمى النبوة.

بعض العقلاء ينكرون هذه الدرجة، لكن هذه النوع من الإنكار مثله كمثل الشخص الذي ينكر الأشياء العقلية وإلى الآن لم يمنح قوة العقل، يذكر في كتابه المنقذ من الضلال "بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة والعقل معزول عنها كعجز السمع عن إدراك الألوان......"(١).

وبناء على هذا، فإن الإذعان الأصلي للنبوة يمكن أن يكون لذلك الشخص الذي حصل بنفسه على مرتبة النبوة أو أولئك الناس الذين يمنحهم نفوسا قدسية أو الذين ينالون درجة المشاهدات والمكاشفات من الرياضات والمجاهدات، يقول الإمام الغزالي بعد أن ذكر حاله في المنقذ من الضلال: (وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم).

ثم يذكر بعد ذلك: (ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها).

وقد بين الإمام الغزالي حقيقة النبوة بطريقة أخرى حيث يقول: من المسلم به عموما أن الصفات البشرية لم تخلق في جميع البشر على وتيرة واحدة، وكم تختلف المراتب بين مختلف أفراد البشر في الذهن والعقل، والفهم والفراسة والذكاء، فنجد شخصًا ذكيًا، تصدر عنه تلك الأفعال التي تبدو في الظاهر خارج

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال. ص: ٣ وص: ٨٣ . (المترجم)

نطاق قدرة البشر وقد مر بنا أناس من جميع العصور تميزوا في الاختراعات والصناعة وقوة الخطابة الشعر وهم أمثلة على هذه المرتبة، وهذه درجة فطرية لا تكتسب بالتلقين والتعلم، بل إن هذه القوة تتركز في هؤلاء الناس منذ البدايـــة، ولهذا السبب فإن الأشخاص الآخرين بقدر ما يجتهدون ويحالون لا يمكن أن يعادلوهم في المنزلة وفي قواهم وملكاتهم قوة لإدراك حقائق الأشياء، هذه القوة تقل في شخص وتزيد في آخر وتتضاعف عند ثالث وتتطور وتصل لدرجة أن بعض الناس يدركون حقائق الأشياء بدون كسب وتعلم ولا يكون هناك أي شيء للعلم الخارجي، ولكن بسبب هذه القوة تتعلم تلك الأشياء تلقائيا، واسم هذه القوة ملكة النبوة ويطلق على هذا العلم الوحي والإلهام.

وقد كتب الإمام الغزالي هذا الموضوع في بحث ضمني في بداية كتاب إحياء العلوم وعنوانه: (بيان تفاوت الناس في العقل)(١)، وفيما يلي بعض فقراته:

(وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلفت الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكي يفهم أدنى رمز أو شارة وإلى كامل ينبعث من نفسه حقائق الأمور دون التعلم كما قال تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ ﴾ وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر ذلك بالإلهام وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال إن روح القدس نفث في روعي......إلخ).

ثم يقول الإمام الغزالي بعد أن أثبت إمكانية النبوة في هذا التقرير: (والآن لو يبحث في أمر أي شخص خاص هل هو نبي أم لا؟ فإن أحواله نفسها تشهد له، فلماذا نؤمن بتفقه الإمام الشافعي؟ والجواب لأن له مؤلفـــات مهمة في الفقـــه،

(١) ذكرت هذا الموضوع بأسلوب بيان الغزالي.

وهكذا عندما ننظر في القرآن الكريم ونرى أن آثار النبوة ظاهرة بوضوح في كل كلمة من كلماته فيتأكد لدينا بما لا يدع مجالا للشك أن حامل هذا القرآن لا يمكن أن يكون شخصا غير مبعوث بالرسالة).[١]

رأي المحدث ابن حزم في النبوة:

بين المحدث ابن حزم حقيقة النبوة بأنها علم يكتسب بدون تعلم وتعليم فيقول:[٢] (فصح أن النبوة في الإمكان وهي بعثة قوم قد خصهم الله تعالى بالفضيلة لا لعلة إلا أنه شاء ذلك فعلمهم الله العلم بدون تعلم ولا تنقل في مراتبه ولا طلب له ومن هذا الباب ما يراه أحدنا في الرؤيا فيخرج صحيحا وقد أثبت ابن حزم إمكانية ذلك، فبقدر ما اخترع من علم وفن وصنعة وحرفة وغيرها فإن المخترع الأول لها اخترعها بدون تعلم وتعليم من تلقاء نفسه وإلا سيلزم التسلسل ولهذا فإن الأنبياء من الممكن أن يكون علميهم مثل هذا واسمه وحي، وهكذا فقد كتب المحدث ابن حزم أسماء كثير من الصنائع والفنون: (فوجب بالضرورة أنه لا بد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله ابتداء كل هذا دون معلم لكن بوحي حققه عنده وهذه صفة النبوة)[٣].

وخلاصة كل هذه التقارير والقدر المشترك بينها أن الله منح الإنسان قوى مختلفة لا تتوفر قط في بعض الأفراد، وتوجد في البعض الآخر بدرجات متفاوتة، وهكذا منحه قوة روحانية اسمها القوة القدسية أو ملكة النبوة، وهذه القوة ترتبط بتزكية النفس وطهارة الأخلاق والشخص الذي توجد فيه هذه القوة هو كامل في

---

(١) المنقذ من الضلال: ٢٤-٢٦ (المترجم).

(٢) ابن حزم: الملل والنحل: ٧١.

(٣) الملل والنحل، طبعة مصر، ص: ٧٢.

الأخلاق ويمكن أن يصبح الناس كاملين بتأثيره، وهذا الشخص لم يتلق أي تعليم بل تتكشف عليه حقائق الأشياء بدون تعلم.

ولا يمكن لأي شخص بهذه الحقيقة أن ينكر النبوة، فعندما يبدو هذا الكلام بداهة للوهلة الأولى بأن شخصا ما غير متعلم (مثل هومر وامرئ القيس) ورغم ذلك بلغ هذه الدرجة من الفصاحة والبلاغة أو أنه شاعر أو خطيب أو صانع أو مخترع لا مثيل له في عصره، فهل من المستبعد أن يهب الله هذه النوع من القوة القدسية لبعض الأفراد وتكشف لهم حقائق أسرار الأخلاق بغير تعليم وتعلم؟

من ذا الذي يستطيع إنكار أن أكثر الأنبياء مثل سيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يتلقوا تعليما قط في العلوم والفنون؟ وبالرغم من هذا غيروا حالة الدنيا بتأثير إرشاداتهم وتعاليمهم ودرسوا مسائل فلسفة الأخلاق وأصولها والتي لم يستطع أن يصل إلى كنهها كل من أرسطو وأفلاطون.

إن تصديق النبوة، وفهم صدق أقوال النبي تقتضيه الفطرة السليمة للإنسان نفسه. فالشخص الذي يتعطش للحق، ووجدانه صحيح يمكنه أن يميز بين الصدق والكذب وفي قلبه كلام صادق ينبعث تلقائيا فإنه عندما يستمع إلى تلقين وهداية نبي ما فإنه لا يبحث في الأمر بل يؤمن به قلبه تلقائيا بأنه هو الصدق ويخرج من مركز الصدق، وقد شبه ذلك مولانا جلال الدين الرومي بأنه لو أعطى الماء لعطشان فهل سيبحث فيه أولا لكي يثبت أنه ماء، أو أن امرأة استدعيت لإرضاع طفلها لبنا فهل هناك شك في أنها أمه وأنها جاءت لإرضاعه اللبن حقا، يقول:

عندما تقول أنت لظمآن: أسرع، ففي القدح ماء، خذ الماء سريعا.

أيقول الظمآن قط هذا ادعاء أمض، ويا أيها المدعى، انصرف عنى؟

يقول: بين لي دليلا وحجة على أن هذا، من جنس الماء، وأنه ماء معين؟

أو هل تنادي الأم طفلها الرضيع قائلة: تعالى، أنا الأم وأنت الولد؟

فيقول الطفل يا أمي، هاتي الدليل، حتى أعكف أنا على لبنك؟

وقلب كل أمة يكون فيه مذاق الحق، ويعتبر فيه وجه الرسول وصوته معجزة.

وعندما يصيح الرسول من الخارج، تسجد أرواح الأمة في داخلها.

ذلك أن جنس ندائه في الدنيا، لم تسمعه الأذن من أحد قبل.

ويذكر راغب الأصفهاني أن الأنبياء جاءوا بنوعين من المعجزات، النوع الأول هم أطهار النسب والنور الذي يعلو وجوههم يؤثرون به القلوب، وأخلاقهم سخرت القلوب وخطبهم تقنع السامع ثم يقول: (وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها إلى معجزة ولا يطلبها).[١]

ويقول الإمام الغزالي عند بحثه في النبوة في كتاب "المنقذ من الضلال": إن الشخص الذي سيمعن النظر مرارا في إرشادات الرسول وهدايته سيتيقن هو نفسه من نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يكتب: (فمن ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانا وشق القمر....).

واستدل الإمام الغزالي على نبوة الرسول بطريقتين في كتابه: "المعارف في شرح الصحائف" وهو كتاب ثقة في علم الكلام، الطريقة الأولى هي نفس الطريقة القديمة أي المعجزات، وكتب هذا في الطريقة الثانية: (الوجه الثاني في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الاستدلال بأخلاقه وأفعاله وأحكامه).

ثم يكتب عن هذه الطريقة: (وهذا الوجه بالحقيقة بعين حقيقة النبوة).

---

(١) الذريعة، طبعة مصر ص، ٦٩-.

طريقة تعليم الأنبياء وإرشادهم:

هناك أخطاء جسيمة تتعلق بالدين تنشأ بسبب أن الناس لم يراعوا أصول طريقة تعاليم الأنبياء، ويتجاهلون تماما هذه الفكرة المهمة الموجودة في الكتب المتداولة لعلم الكلام ولكن هذه الأصول ذكرها بالتفصيل الإمام الرازي في كتابه "مطالب عالية" وابن رشد "في كشف الأدلة" وشاه ولي الله "في حجة الله البالغة".

ونذكر ما يستحق الذكر:

١- بالرغم من أن الأنبياء يقصدون هداية العوام لهذا يراعي اهتماما أكبر تجاه العوام في طريقة وعظهم وأسلوب تعليمهم، ولا غرو فإن مثل هذه الألفاظ توجد في كل مكان بشكل ضمني والتي تشير إلى أصل الحقيقة ويخاطبون بها الخواص.

وقد بين الإمام الرازي أقوى سبب يتعلق بورود الآيات المتشابهات يقــول: إن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه ويكون ذلك مخلوط بما يدل على الحق الصريح: التفسير الكبير، سورة آل عمران آية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ ﴾ ويذكر ابن رشد في كتابه فصل المقال: (وكان الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتنبيه الخواص).

٢- الأنبياء يخاطبون الناس على قدر عقولهم وعلمهم لأن هذا العلم وهذا العقل يتوفران في معظم أفراد البشرية، وينشأ العلم والعقل بسبب الممارسة والمراقبة والمجاهدة والاكتساب وهي ليست موضوعا لخطاب الأنبياء، يقول شاه ولي الله:

(ومن سيرتهم ألا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات ولا أن يعرفوه منزها من جميع الجهات).[١]

٣- أكثر الأمور الجديرة بالملاحظة هي أن الأنبياء فيما عدا تهذيب الأخلاق وتزكية النفس لا يتعرضون للأنواع الأخرى من الحقائق والمباحث والمسائل وعندما يبينوا هذا النوع من الأمور فإنهم يستخدمون فيها المجازات والاستعارات المطابقة لروايتهم وأفكارهم.

ويضيف شاه ولي الله الدهلوي قائلا: (من سيرتهم ألا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة وعجائب النبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها اللهم إلا كلمات يسيرة ألفها أسماعهم وقبلها عقولهم يؤتى بها في التذكير بآلاء الله وللتذكير بأيام الله على سبيل الاستطراد بكلام إجمالي يسامح في مثله بإيراد الاستعارات والمجازات ولهذا الأصل لما سألوا النبي عن كمية نقصان القمر وزيادته عوض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهود، فقال: يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وترى كثيرا من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون وغيره من الأسباب فحملوا كلام الرسل على غير محمله)[٢]

---

(١) حجة الله البالغة ص: ٨٨

(٢) حجة الله البالغة ص: ٨٨

٤- ظل جميع الأنبياء يعملون بتلك الأصول العامة في الأمم التي بعثوا فيها وألقوا نظرة على جميع أمور الحياة مثل طعامهم وشرابهم ولباسهم ومساكنهم ومتاع زينتهم وطريقة زواجهم وبيعهم وشرائهم والفصل في قضاياهم وغيرها، ومع أن هذه الأشياء كما هي وكما يجب أن تكون ومن ثم لم يعتز أي قسم منها التبديل والتغيير بل يرغبونهم في هذه القوانين والشرائع الصحيحة وواجب العمل بها والمبنية على المصالح، ولا غرو فإنها لو اعتراها نقص مثل التذرع بالمعاناة أو أن تكون سببا في الانغماس في اللذات الدنيوية أو تكون مخالفة لأصول الإحسان أو عدم الإكتراث بالمصالح الدينية والدنيوية للإنسان، فإنهم يبدلونها ولكن هذا التبدل والتغير لا يكون رأسا على عقب بل يكون مشابها لشيء ما كان موجودا في القوم من ذي قبل أو أن يكون له أمثلة في حياة الناس ويسلم بأن قومه قدوة لهم أو أن يكون له أمثلة في حياة الناس ويسلم بأن قومه قدوة لهم.

وقد أسهب شاه ولي الله في بيان هذه الأصول بالتفصيل فيقول:

"ولهذا المعنى اختلف شرائع الأنبياء والراسخ في العلم يعلم أن الشراع لم يجئ في النكاح والطلاق والمعاملات والزينة واللباس والقضاء والحدود والغنيمة لم يكن لهم به علم أو يترددون فيه إذا كلفوا نعم إنما وقع إقامة المعوج وتصحيح السقيم"(١).

٥- الشريعة التي تنزل على الأنبياء قسمان، القسم الأول: العقائد والمسائل التي تعد من الأصول الكلية للدين، وهذا القسم تتحد فيه جميع الشرائع

(١) حجة الله البالغة ص، ١٠٩-١١٠.

مثل: وجود الله والتوحيد والثواب والعقاب والعبادات وتعظيم شعائر الله والزواج والوراثة وغيرها.

القسم الثاني: الأحكام والسنن ويختص بها خواص الأنبياء وبناء على هذا يقال لها إن الشريعة الموسوية مختلف عن الشريعة العيسوية وهذا الجزء من الشريعة خاص بكل قوم أو مبنى على فوائد الممالك ومصالحها وأساسه في الغالب يقوم على تلك الأفكار والعقائد والعادات والمعاملات والرسوم وطريقة الحياة الاجتماعية وأصول التمدن الذي كان موجودا في ذلك القوم من ذي قبل، يقول شاه ولي الله:

> "فكذلك يعتبر في الشرائع علوم مخزونة في القوم واعتقادات كامنة فيهم وعادات تتجاري فيهم ولذلك نزل تحريم لحوم الإبل وألبانها على بنى إسرائيل دون نبي إسماعيل ولذلك كان الطيب والخبيث في المطاعم مفوضا إلى عادات العرب ولذلك حرمت بنات الأخت علينا دون اليهود"[1].

وقد بين شاه ولي الله كثيرا من فروع هذه الأصول ونتغاضى عنها بسبب الإسهاب، ثم يضيف في هذا البحث ويقول:

> "واعلم أن كثيرا من العادات والعلوم الكامنة يتفق فيها العرب والعجم وجميع سكان الأقاليم المعتدلة وأهل الأمر القابلة للأخلاق الفاضلة كالحزن ليتهم واستحباب الرفق به وكالفخر بالأحساب والأنساب فتلك العادات والعلوم أحق الأشياء بالاعتبار ثم بعدها عادات وعقائد تختص بالمبعوث عليهم فتعتبر تلك أيضا".

---

(١) حجة الله البالغة، ص ٩٢.

٦- هناك طريقتان لمنع أي شيء أو الحكم على أي شيء إحداهما تبين فوائد هذا الشيء وعيوبه وتخبر أن هذا الشيء غير مقصود بالذات بل أن السبب الأصلي هو الأمر والنهي وكونه مفيدا له أم مضر، والأخرى يقال فيها هل الشيء نفسه بالذات موجب للثواب أو العقاب كما في بعض الأدعية التي يعتقد فيها الناس فلو تغيرت كلماتها الأولي فلن يظل ذلك التأثير في الدعاء.

والطريقة الأولى رغم أنها ظاهريا تتفق أكثر مع الحكمة وقواعد العقل لكن هذه الطريقة لا يمكن أن تكون عامة فلو وضع الأمر والنهي أساسا لها فإن ذلك يقتضي تفهيم كل العوام بالأوامر والنواهي ودقائقهما وهذا مستحيل تماما علاوة على هذا فإن هذا الأمر يترك أثرا ما على الطبائع العامة من أجل القيام بعمل ما والله تعالى أمر بهذا العمل والله يسعد بتنفيذه ولن يترك هذا الأمر أثرا لأن هذا الشيء طيب في حد ذاته، افرض لو أنهم أصدروا كتبا أخلاقية بدلا من قانون العقوبات الهندي مكتوب فيها يجب الاحتراز من السرقة وقطع الطريق والنهب والتلفظ بكلمات نابية فهل مثل هذه الكتب الأخلاقية تقلل من الجرائم، وهل سيحل هذا العمل محل قانون العقوبات الهندي؟

وبناء على هذا فإن الأنبياء يختارون الطريقة الثانية في الغالب لترغيب الأفعال وترهيبها أي أنهم بدلا من هذا يخبروننا بأسباب وعلل الأوامر والنواهي ويذكروننا بأن تلك الأفعال بالذات تستوجب الثواب والعقاب وأن الثواب والعقاب هو فقط السبيل إلى رضا الله وسخطه وهو عندما يصدر أمرا بالصلاة والصيام والزكاة لا يقول لعامة الناس أن هناك فوائد جمة من أداء تلك الأركان بل يقول فقط أن الله يرضى ويسعد بتلك الأشياء وأنه يغضب لعدم أدائها وهذه الطريقة في الأصل طريقة مؤثرة لترغيب العوام في شيء ما(١).

---

(١) هذه الأصول مأخوذة عن شاه ولي وقد ذكرها في صفحة ٩٥ من كتابه حجة الله البالغة ولكن شاه ولي الله ينسبها إلى فلاسفة الإسلام وهكذا يقول: (وذهب فلاسفة الإسلام إلى أن العذاب والثواب إنما =

والأصول المذكورة آنفا يشترك فيها جميع الأنبياء، ولكن النبي الذي تكون رسالته عامة ومبعوث لإصلاح الناس كافة تكون في تعليمه وإرشاداته بعض الخصائص الزائدة التي لا توجد لدى الأنبياء الآخرين.

لقد ذكرنا آنفا أن الرسول الذي يبعث في قوم يراعى في شريعته الطريقة الخاصة بخصائص وعادات ذلك القوم ولكن الرسول المبعوث للعالمين كافة لا تتماشى هذه الأصول مع أسلوبه في التعليم لأنه لا هو يستطيع أن يشرع شرائع مختلفة لجميع أقوام العالم ولا يمكن له أن يوفق بين خصائص وعادات جميع الأقوام والشعوب ولهذا يبدأ أولا بتلقين وتعليم قومه ويجعل منهم نموذجا لمحاسن الأخلاق، وهذا القوم يؤدي عمل الأعضاء والجوارح ويوسع من دائرة تعاليمه بحذوه هذا النموذج وبالرغم من أن تلك القواعد الكلية والأصول العامة توجد في الغالب في تلك الشريعة والتي تشترك فيها جميع أقوام الدنيا تقريبا، إلا أنه يراعى أكثر خصائص وعادات ذلك القوم بشكل خاص، ولكن الأحكام التي تؤسس بناء على تلك العادات والأحوال لا يقصد الالتزام والتقيد بها بالذات وإلا فإنه يركز عليها بهذا القدر.

= يكونان على الصفات النفسانية والأخلاق المتشبثة بذيل الروح وإنما ذكر قوالبها وأشباهها في الشرائع تفهيما وتقريبا للمعاني الدقيقة إلى أذهان الناس) والرأي الخاص لشاه ولي الله هو أنه عند ما يأمر بأمر أو ينهي عنه في الشريعة يترتب عليه بالذات الثواب والعقاب لكن العجيب أن شاه ولي الله عند ما تناول بالبحث فيما بعد الشريعة التي تنسخ جميع الشرائع وما أصولها وأن تلك الأصول تعد في عداد أصول الشريعة الناسخة يقول: (ومنها أن يكلف الناس بأشباه البر والإثم ويلزمهم ذلك الزاما عظيما ولا يلوح لهم بأرواحها كثير تلوح ولا يخيرهم في شيء من الشرائع ويجعل علم الشرائع الذي ما أخذ أحكامه التفصيلية علما مكنونا، وذلك لأن أكثر المكلفين لا يعرفون المصالح ولا يستطيعون معرفتها إلا إذا ضوبطت بالضوابط وصارت محسوسة يتعاطاها كل متعاط فلو رخص لهم في ترك شيء منها أو بين المقصود الأصلي غير تلك الأشباه توسع لهم مذاهب الخوض ولاختلفوا اختلافا فاحشا).

وقد أسهب شاه ولي الله في تفصيل تلك الأصول في صفحة ١٢٣ من كتابه: حجة الله البالغة فيقول (وهذا الإمام الذي يجمع الأمم على ملة واحدة لا يحتاج إلى أصول أخرى غير الأصول المذكورة فيما سبق منها أن يدعو قوما إلى السنة الراشدة ويزكيهم ويصلح شأنهم فهم يتخذهم بمنزلة جوارحه.

وذلك لأن هذا الإمام نفسه لا يتأتي منه مجاهدة أمم غير محصورة وإذا كان كذلك وجب أن يكون مادة شريعية ما هو بمنزلة المذهب الطبيعي لأهل الأقاليم الصالحة عربهم وعجمهم ثم ما عند قومه من العلم والارتفاقات ويراعي فيه حالهم أكثر من غيرهم ثم يحمل الناس جميعا على إتباع تلك الشريعة لأنه لا سبيل إلى أن يفوض الأمر إلى كل قوم أو إلى أئمة كل عصر إذا لا يحصل منه فائدة التشريع أصلا ولا إلا أن ينظر ما عند كل قوم ويماس كلا منهم فيجعل لكل شريعة فلا أحسن ولا أيسر من أن يعتبر في الشعائر والحدود والارتفاقات عادة، وقومه المبعوث فيهم ولا يضيق كل التضييق على الآخرين الذين يأتون بعد).

لعل هذا الأمر يتضح من تلك الأصول أن العقوبات التي تقرر في الشريعة الإسلامية على السرقة والزنا والقتل وغيرها أين هي مراعاة عادات العرب ورسومهم، وكم هي ضرورية الالتزام بتلك الجزاءات بعينها وخصوصها.

خـــــرق العادة:

مع أنه قد تأكد من الأقوال المذكورة آنفا أن النبوة لم تكن موقوفة على خرق العادة ومن هذه الناحية لسنا بحاجة إلى المزيد من البحـــث حول هذه المسألـــة، لكن خرق العادة عنصرا مهما لجميع الأديان، ولا يمكن إنكاره ويوجد لمحات منها في الإسلام بشكل من الأشكال، لهذا من الضروري حل هذه العقدة، وهذا النوع من الأحداث والوقائع منقول في القرآن الكريم، والفرقة الجديدة تؤولها عموما وتقـــول:

لا توجد واقعة واحدة من هذا النوع مذكورة في القرآن الكريم، ولكن من الإنصاف القول أن القرآن الكريم بل جميع الكتب السماوية لا ينكرون ذكر هذا النوع من الأحداث، ولا غرو أن إفراط الأشاعرة وصل إلى درجة توهم الأطفال وظنونهم، ولكن الإنكار مجرد ظلم وطغيان وتعنت، ونحن واقفون بشكل كامل على تأويل المعاصريـــن لنـــا، وهذه التأويلات بلا شـــك كافيـــة من أجل المتعلمين الجـــدد، والمسكين الـــذي لا يـــقف على اللغة العربية وأسلوبها وقواعدهـــا ماذا يفعـــل أمام المتخصص في العربية؟

والحقيقة أن الفرقة الجديدة لأنها تميل إلى الجانب الآخر من المسلمين المتوهمين لهذا كان من الضروري ألا يتجاوزوا حد الاعتدال، وعندما يصدر هذا الإفراط عن الأصيل والوضيع في جميع أنواع الأحداث المحالة وغير الممكنـــة، ولا يقرر حدا معينا لتوسعة "دائرة كرامة الأنبياء حق"، وفي مقابل ذلك فإن التفريط لا يثير التعجب لأن أي واقعة تبدو مخالفة في الظاهر لا يمكن أن تقع مطلقا، لكننا بعد أن نبتعد عن الإفراط والتفريط يجب إمعان النظر في حقيقة الأمر نفسه.

استدلال المنكرين لخرق العادة:

جميع استدلالات المنكرين لخرق العادة هي أن خرق العادة خلاف لقوانين الطبيعة، والشيء المخالف لقوانين الفطرة ممتنع، ولا يمكن لأي شخص أن ينكر المقدمة الثانية لهذا الدليل، ولكن ما الطريقة لإثبات المقدمة الأولى؟ وهل جميع قوانين الفطرة منضبطة؟ وهل نطمئن إلى أن الأمور التي تفهم قانون الطبيعة هي في الحقيقة قانون الطبيعة؟ فالأبحاث والتجارب في العلوم الحديث تكشف لنا الآلاف من قوانين الفطرة والتي لم تكن معروفة من قبل مطلقا وهذه السلسة قائمة بشكل مستمر وهذه الأحداث المتعلقة بالنساك والصوفية تتناقل منذ آلاف السنين، ويمكن

أن تؤثر وتثير عجب أناس آخرين، وبناء على هذا ينكرها العصر الحاضر لأنها خلاف لقوانين الطبيعة وأي مادة بدونها تلتقي بأي مادة أخرى ويمكنها قبول أي نوع من التأثير، ولكن عندما ثبت أثر القوة النفسية في تجارب التنويم تم التسليم بجميع الأحداث والوقائع السابقة، واليوم يستطيع المنوم المغناطيسي أن يقوم بعمله على رؤوس الأشهاد يجعل الأشخاص الآخرين ينامون بقوة النفس أو قوة النظر وهم في غير وعيهم، ويمكنه أن يستنطقهم بالكلام الذي يريده، ويستطيع أن يجعلهم يعملون العمل الذي يريده.

ومذكور في الكتب العربية القديمة أنه كانت سمكة في مصر من يلمسها يعترى جسمه رعشه ولو لم ينفخ شخص ما في يده فإنه يسقط على الأرض مغشيا عليه من شدة الرعشة، وقد اعتبرت هذه الواقعة خلافا للعقل لفترة من الزمن ولكن الأبحاث الحديثة أكدت وجود هذه السمكة واتضح أن فيها كهرباء.

الباحثون الأوربيون أنفسهم يسلمون بهذا الأمر وهو بقدر ما تتطور الأبحاث تثبت وتتأكد الأشياء المستحيلة.

رأي علماء أوربا في خرق العادة:

يذكر العالم الفرنسي الشهير كيميل فلامريان وهو أستاذ العلوم الفيزيائية في كتابه "الروحانية" (من العادة الفطرية للإنسان أنه عندما يشك في شيء ظاهريا أولا يعرفه ولا يستطيع فهمه ينكر وجوده، ولو قرأنا كتابات هيرودوتس[(١)] نجد فيها أن امرأة كان صدرها في فخذها وأنها ترضع طفلها اللبن منه فإننا نضحك تلقائيا ونستهزئ بذلك ولكن هذه الواقعة شوهدت بالعين المجردة في مؤتمر باريس العلمي المنعقد في ٢٥ يونيو ١٨٣٧م).

---

(١) مؤرخ يوناني شهير.

وهكذا لو أحد يقول لنا: إن رجلا مات وعندما شرحوه عثروا على طفل في بطنه وكان توأم ذلك الشخص وظل ينمو ويترعرع في جسمه فإننا نعتبر هذه الواقعة مجرد خرافات ولكننا أنفسنا رأيناها بأعيننا وأن الطفل ظل ينمو في جسمه حتى العام السادس ثم ظهر، كتب أحد المترجمين لهيرودوتس أن الناس يذكرون أن روكسان زوجة الإسكندر ولدت طفلا بلا رأس وكان ذلك يعتبر خلافا للعقل، ولكن اليوم تسلم جميع القواميس الطبية أن كثيرًا من الأطفال يولدون بلا رأس.

ونقول عن هذا النوع من الأحداث أنه يجب علينا توخي الحذر، لأن الناس الذين لا بصيرة لهم ينكرونها وهم من الجاهلين[١].

ولأن هناك اعتقادًا سائدًا منتشرًا في بلادنا أن أوربا عامة تنكر خرق العادة وبناء على هذا فإن كل طفل يتلقى تعليما حديثًا متهيئًا لإنكار هذا النوع من الأحداث التي تخالف المشاعر العامة ويستهزأ بها، نريد أن ننقل هنا في هذا المكان آراء علماء أوربا وأقوال فلاسفتها الثقاة المشهورين فيما يتعلق بخرق العادات.

الروحانيـــــــون:

ظلت هذه الفرقة دائما تنكر خرق العادات في الدنيا، والطبيعيون والماديون أي هؤلاء الناس الذين يحصرون أبحاثهم في الأجسام وخواص الأجسام ظلوا على هذه الحالة في أوربا ردحا من الزمن، ثم ظهرت فرقة اهتمت في أبحاثها بالروح وتأثير الروح وبعد تجارب عديدة زعم هؤلاء الناس أن الروح شيء منفصل عن الجسم، وتستطيع الروح أن ترى الشيء بدون وساطة الحواس على بعد مئات الأميال، وتستطيع الروح كذلك إدراك أحداث المستقبل، ويمكن أن يصل أثر الروح

---

(١) كتاب كيميل فلامريان **Camille felammatin** ص، ٢٤٦.

لأميال، خلاصة القول أنه يمكن أن يصدر عن الروح الكثير من تلك الأفعال التي يطلق عليها خرق العادة.

وقد كشفت هذه الفرقة عن مزاعمها بصوت عال فتوجه الناس تجاه أبحاثها، وفي سنة ١٨٦٩ عُقِد في لندن مؤتمر موسع للبحث في تلك الأمور وكان أعضاء هذا المجلس هم:

١- السيرجان لبك عضو البرلمان رئيسا للمجلس.

٢- البروفيسير هكسلي وكان من أكبر علماء الطبيعة نائبا للمجلس.

٣- لويس أعظم علماء العلوم الفيزيائية. عضوا

٤- الفرد ويلز **Wallace** وكان معاصرا لداروين وكان صنوا له في نظرية الارتقاء عضوا.

٥- دوما رجن **de Morgan** رئيس جمعية العلوم الرياضية، عضوا.

٦- جان كوكس **John Cox** عضوا.

علاوة على هذا فقد شارك عدد كبير من العلماء في هذا المجلس وظلت أبحاثه مستمرة لمدة ثمانية عشر شهرا، وفي النهاية أعد المجلس تقريرا فيما يلي بعض فقراته:

> **"إن رأي المجلس المعول عليه ينصب على تلك التجارب فقط التي شاهدها المجلس رأي العين ولا يتطرق إليها الشك والريبة وكان أربعة أخماس أعضاء المجلس في بداية الأمر ينكرون بشدة هذا النوع من الأحداث ويعتقدون أنهم إما يستخدمون في هذه الأحداث الخدعة والسحر والشعوذة، أو أنها من تأثير النظام العصبي للإنسان ولكنهم أقروا بعد تكرار التجارب ودقتها أن خرق العادة حقيقي وواقعي".**

بعد ذلك أسس في كل من إنجلترا وأمريكا مجلسا لإجراء الأبحاث حول هذا الموضوع وكان هزلوب **hoslp** وهو دسن **hodgson** رؤساء لهذا المجلس وقد ظل هذا المجلس منهمكا في أبحاثه لمدة اثنى عشرة عاما تقريبا، وفي النهاية ختم أبحاثه عام ١٨٩٩م واعترف بصحة هذه الأحداث وفيما يلي بعض فقرات كتبها هزلوب: "آمل بعد تعاقب الأيام والسنين أن أثبت أمام العالم بالدلائل القطعية أن هناك عالمًا آخر بعد هذا العالم الفاني، وأنا نفسي رأيت بأعيني خرق العادة والتي لا يمكن أن ينسب إليها بأي شكل من الأشكال أنها خداع وشعوذة".

فيما يلي بعض الجمل في تقرير هودسن:

> **"لقد حصلت على معلومات عظيمة وحديثة عن الدنيا وآمل أن أقدم للعالم في غضون عام قوانين جديدة لطبيعة الحياة البشرية ولو أن البروفيسير هزلوب زعم أن أرواح الموتى تتحدث فإنه صادق تماما في زعمه".**

وفيما يتعلق بمسألة خرق العادة تباحث كاتب في صحيفه مع هودسن فقال هذه الكلمات: "منذ بدأت الأبحاث في هذا الأمر وأنا والبروفيسير هزلوب معا نؤمن بالدهرية ولم نكن نؤمن بأي شيء آخر، وكان الهدف من أبحاثنا أولئك الذين يدعون الروحانية ويمارسون السحر والشعوذة وكنا نريد أن يهتك سترهم، ولكنني اليوم أقول أن الأموات يمكن أن يتحاورون فيما بينهم وظهرت دلائل تتعلق بهم والآن لا مجال للشك مطلقا.

وقـال البروفيسيـر كوكس – رئيس الجمعية العلمية الدولية – على المـلأ: "أنا لا أقول أن هذا ممكن فقط، بل أقول أنه حقيقة واقعية"، وقد ألف البرفيسير كوكـس كتابا خاصـا عن الروحية، وقد طبعـت منه طبعات عـديدة يقول فيـه: "لأنني متأكد من صدق هذه الأحداث فإنني أظهر هذا العمل الأخلاقي وبناء على هذا أتلعثم في الأمر فلا يسخر مني ناقد".

والدكتور جورج سكستون من كبار العلماء الماديين وكان مخالفا شرسا للروح وغيرها وكان يهاجم تلك الأمور بشدة لهدف واحد فقط ألا وهو كشف المشعوذين أدعياء الروح وقد شغلته هذه القضية لمدة خمسة عشر سنة من الجهد والنصب، ولكنه قال هذه الكلمات في النهاية: "أجريت هذه التجربة بشكل مؤكد وبدون أي تدخل من أي شخص ولم يكن أحد موجودًا في بيتي الخاص سوى أصدقائي، والناس الذين تحاورت معهم هم موتي من أقاربي وأصدقائي".

وكتب الجيولوجي الشهير باركس **parkes** بحثا علميا ذكر فيه: "لقد قرأت جميع الكتب التي ألفت في إنكار الروح، وتناظرت مع جميع هؤلاء الناس ولكنني رأيت بعينى هذه المشاهد، وامتدت خبرتي في هذا الأمر عشر سنين لدرجة أنني الآن أستطيع التحدث بعلم ودراية عن تلك المشاهدات".

أما مارجن الــذي كان مبرزا في العلــوم الرياضية فقد أدلى بشهــادته: (أنا نفسي رأيت بعيني وسمعت بأذني وأنا مطمئن لهذا ولا مجال لاحتمال الشك).

ولعل شهادة رسل ويلز **r.wallase** هذا العالم الشهير الذي يعتقد أنه صنو وشريك لدارون وكان شريكا متساويا في اختراعات دارون وألف كتابا خاصا في هذا الموضوع اسمه "عجائب الروح" يذكر فيه: "كنت دهريا وكنت قانعا تماما بمذهبي، ولم أفكر ولو مثقال ذرة أنني سوف أعترف بالروح أو أنني سأقول أن هناك شيئا ما له تأثير سوى المادة في هذا العالم".

"لكن المشاهدات الملموسة والمدهشة أجبرتني أن أعترف بأن هذه الأشياء حقيقة وواقعية، على الرغم من أنني حتى الآن لم أسلم بأن هذه الآثار تصدر عن الروح، ولكن بدأت تأثير تلك المشاهدات تدريجيا في عقلي لا عن طريق الاستدلال والحجة بل كان لهذه المشاهدات أثر متواتر وكانت النتيجة هي اعترافي بالروح ولا مفر من ذلك".

وكتب البروفيسير إليت كوس – وكان رئيسا للجمعية العلمية – في إحدى المجلات: (منذ بضعة أنام خلت لم أكن أتكبد عناء هذه الفكرة وهي أنني سأكتب في هذا الموضوع ولكنني الآن أرى أنه لو أني أخفيت عقيدتي بدافع الزندقة فإنني أقلل من شأن تطور عقلي، وبعد رؤية جميع المشاهدات الصادقة لن أستطيع البقاء صامتا وإلا فإنني سأرتكب جريمة الجبن الأخلاقي).

وقد اهتم عالم الفلك الألماني الشهير "زولنر" بهذه الأبحاث وشاركه في هذا بضعة علماء مشهورين هذه أسماؤهم:

١- فشز: أستاذ العلوم الفيزيائية وأستاذ بالجامعة.

٢- وندت عالم مشهور وأستاذ بالجامعة.

وفي النهاية وبعد أبحاث عديدة أعترف جميع العلماء بعجائب الروح وغرائبها، وكان زولنر عالما فذا وقد اعتقد الناس من اعترافه أنه ربما خدع، وهكذا فقد كشف عدد من مشاهير العلماء هذه الفكرة عن طريق الصحف، ونتيجة لهذا كتب زولنر رسالة اسمها "أوراق علمية" وأشار فيها إلى مشاهداته وأقام الدلائل على صحتها.

في عام ١٨٩١م انعقد مؤتمر علمي حضر إحدى جلساته البروفيسير لودج **lodge** وكان عالما مشهورا في الرياضيات فألقى محاضرة وقال عن الروح: لقد حان الوقت الآن لكي يحطم الحد الفاصل الذي لا يزال حتى الآن بين العالمين المادي والروحاني مثلما تحطمت الكثير من الحدود، وسيثبت من هذه الطريقة أن الممكنات لانهاية لها، وهي بقدر ما نعرف، ومقارنة بتلك الأشياء لا توجد بينهما نسبة وتناسب.

وفي المؤتمر المنعقد في ٢٢يونيو ١٨٩٨م وشارك فيه البروفيسير دورتاش قال في بحثه: "إن خرق العادة التي رأيناها في ذلك الوقت والتي تصيب الناس

بنوبة غضب مفاجأة والتي تجعلنا تفكر في العالم بأنفسنا، ونتجاذب أطراف الحديث حول الأبحاث العلمية تدخل في نطاق سلسلة المشاهدات المتواترة التي نجري التجارب عليها منذ فترة، والآن من المستحيل الشك فيها".

في سنة ١٨٩٣م اجتمعت لجنة موسعة في ميلان وكان أعضاؤها حسب ما يلي إسكند قازا قوف **alexander kagokaff**، وجيو فاني – سكرتير مرصد ميلان، وكارل دوبريل الطبيب الألماني الشهير، وجيوزوب جيروزا أستاذ العلوم الفيزيائية والبروفيسير شارل ريشيه أستاذ بالكلية الطبية بفرنسا، ولمبروزو **lambroso** وقد بحث هؤلاء العلماء تلك الأمور في سبعة عشر جلسة وفي النهاية كتبوا تقريرهم "إن خوارق العادات التي شاهدناها لم يكن فيها أي نوع من الشعوذة والخداع، وقد بلغت هذه المشاهدات مبلغا جعلها تدخل ضمن المسائل العلمية.".

إن مئات الآلاف من الشهادات من هذا النوع تتطلب إعداد كتاب ضخم ولهذا نكتفي بالفقرة التالية من دائرة المعارف: (وكثيرون من أهل أمريكا وأوربا الممتازون بالعلوم والفلسفة والحكمة والسياسة يعتقدون وجود قوة لم يكشفها العلم تقوم بتلك الأعمال أو أن ما رأوه من الظواهر لا ينسب إلى الخداع أو الشعوذة، وقالوا إن لم تكن حقيقة فهي جديرة بالبحث والتأمل).

على الرغم من أن خوارق العادات التي ثبتت بالمشاهدات وتلك التجارب تجاوزت الآلاف، لكن الكليات التي أسست بناء عليها أحصاها العالم كاميل فلامريان **Camille Felammarian** حسب ما يلي:

الروح لها وجود مستقل ومنفصل عن الجسم.

تحتوى الروح على هذا النوع من الخصائص التي لم تكن معلومة حتى الآن من جانب العلوم الحديثة.

يمكن أن تتأثر الروح بدون وساطة الحواس أو أن تلقى بأثرها على الأشياء الأخرى.

تستطيع الروح أن تتنبأ بالأحداث المستقبلية.

هذه الشهادات لا نقدمها لإثبات الروح بل نريد أن نؤكد فقط على أن هناك قوة في الإنسان سواء يطلق عليها اسم الروح أو خاصية في تركيب الجسم تبدر عنها مثل هذه الأعمال والأفعال العجيبة والغريبة والتي يعبر عنها أساتذة العلوم الحديثة بخرق العادة، ويعترفون أنها خارج نطاق قدرة الجسم والمادة وبناء على هذا لا يمكن لأي عاقل إنكار خوارق العادات، ولا شك أن أهل العقيدة السليمة والظنون والأوهام يعتقدون بتلك الأشياء وأنها تصدر عن ذات قدرة الله مباشرة بلا أي سبب أو واسطة، يعتقد الخواص أن كل شيء يرتبط بالعلة في عالم الأسباب ولهذا يكون هناك سبب ما لخرق العادات تلك.

إن الفلاسفة والحكماء في الإسلام مثل الإمام الغزالي وابن رشد وشاه ولي الله وغيرهم يعتقدون جميعا أن هناك عللاً لأسباب خرق العادات، وقاموا بتفصيل تلك الأسباب التي تصدر عن خرق العادات، وقد قسم الإمام الغزالي جميع المعجزات إلى ثلاثة أقسام هي: حسية وخيالية وعقلية، وقد قام القسم الأول لاستمالــة الأشاعرة، والقسمـــان الباقيان بينهما دقــا لذوقه وهي متطابقـــة تمامًا مع الأبحاث المعـــاصرة، ولهذا نقلنا العبارة الأصلية للإمام الغزالي من سيرتـــه الذاتية المنشورة.

رأي ابن سينا في خرق العادة: كان أبو علي سينا ينكر خرق العادات ردحا من الزمن، ولكنه شاهد بنفسه خوارق تلك العادات بكثرة من الصوفية الذين كانوا موجودين في عصره، وفي النهاية أقر بإمعان الفكر في أسبابها وعللها، وقد أكد على هذا الأمـــر بكلماته نفسهـــا في الإشـــارات فيكتب في بيان خرق العـــادات: "ولكنها تجارب لما ثبتت طلب أسبابها ثم إني لو اقتصصت جزئيات هذا الباب فيما شاهدناه وفيما حكي عمن صدقنا لطال الكلام".

وبين أبو على سينا الأسباب المختلفة لمختلف خرق العادات وأعظم الأسباب فيها هو أثر القوة النفسانية وتفصيله وفقا لبيانه حسب ما يلي: "هذا الأمر مؤكد بداهة وهو أن أثر الوهم والتخيل يلقى بظلاله على الجسم، فمثلا يتغير لون البشرة من السعادة، وفي بعض المرات يمرض الإنسان من الوهم فقط وعندما يجلس الإنسان في جانب ما تتوارد على قلبه أفكارا غير مستساغة، ويحتدم غضبه من تلك الأفكار وتبدأ الحرارة ترتفع من الغضب لدرجة أنه يتصبب عرقا ويثبت من هذا القدر أن دعوى الماديين غير صحيحة لأن المادة يمكنها أن تؤثر في المادة فقط والفكر الغيظ والوهم والغضب ليسوا مادة بل حالة بوجودها يطرأ أثرها على الجسم".

"وهكذا يتأثر الإنسان نفسه من تلك الكيفيات، وهذه القوة تقوى عند بعض الناس بهذا القدر بحيث يستطيع أن يؤثر على الآخرين، وهذه القوة تكون في الإنسان على حسب مراتب القوى والضعيف، وبعض الناس يكمن فيه هذا القدر من القوة بحيث تصدر عنه أفعال غاية في العجب والغرابة".

(وهذه القوة التي تكون مجبولة وفطرية في شخص يكون إلى جانب هذا ذا طبـــع طاهر وطــوية نقية، ويستعمل هذه القوة في الأغراض الحسنة فيكـــون نبيًّا أو وليًا، ولو أن هذه القوة مع فطرة طينية وشريرة فإنه يكرس هذه القوة في الأعمال السيئة فيكون ساحرا أو مشعوذا).

وعند ذكر ما يختص به الأنبياء كتب الإمام الغزالي في كتابه معارج القدس (ولا ينكر أن يكون من القوى النفسانية ما هو أقوى فعلا وتأثيرا من أنفسنا نحن حتى لا يقتصر فعلها في المادة التي رسم لها وهو بدنها بل إذا شاءت أحدثت في مادة العلم مالا يتصوره في نفسها).

والفكرة التي صرح بها أبو علي سينا فيما يتعلق بالقوة النفسية متطابقة تماما مع الأبحاث الحديثة ويعترف الروحانيون بلا مواربة أن الروح شيء مستقل

ومنفصل وأن خوارق العادات هذه من آثارها، وأن الناس الذين لا يعترفون بالروح ويعترفون أيضا بها بعد المشاهدات والتجارب ويسلمون بأن في الإنسان قوة يصدر عنها خوارق العادات، ولا يمكن أن تصدر عن المادة والجسم مثلما مر بنا آنفا من شهادات كبار علماء وأروبا في العلوم الحديثة فيما يتعلق بها.

وخلاصة القول أن خرق العادة ليست بالشيء الذي يُخطئه أي دين بناء على هذا فقط، ولأن خرق العادة لا يعد شيئا عاديا لهذا يجب الحذر والحيطة فنحن لا نعتد بها ما دام لا يوجد شهادة قطعية بثبوتها، ولأن القرآن الكريم مؤكد الثبوت ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لهذا عندما يذكر فيه خرقا للعادة يكون واجب التسليم ولكن سنقرر هذا الأمر أولا بعد دقة وتفكر عميق هل كلمات القرآن الكريم في الواقع ذات دلاله قاطعة في إثباته وتأكيد أم لا؟

وأبحاث وتحقيقات المفسرين مثل القفال وأبو مسلم الأصفهاني وأبو بكر الأصم وغيرهم تتطابق مع القرآن الكريم في أن خرق العادات المذكورة فيه نادرة والمذكورة حقا من ذا الذي يمكنه إنكار صحتها؟.

وفي النهاية من الضروري الإشارة هنا إلى أن الأشاعرة وعامة المسلمين في العصر الحديث طوروا من مفهوم خرق العادة وأدرجوا جميع أنواع المستحيلات والحقائق بعيدة المنال في دائرة خرق العادة فلا يمكن أن ندعي إمكان وقوعها فعودة الغرقى من الناس أحياء بعدما ألقوا في النهر ليس خرقا للعادة بل محالا، ولا نقصد بجواز خرق العادة أن نسلم بجواز وصحة هذا النوع من الروايات العقيمة.

نبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾. بعد معرفة حقيقة النبوة وأن الرسول نبيا تظل هناك مسألة بديهية، فكما ذكرنا آنفا حقيقة النبوة مركبة من الأجزاء التالية:

فهو كامل، ويمكنه جعل الآخرين من الكاملين وعلومه ومعارفه ليست مكتسبة بل كشف من عند الله تعالى، فهل يمكن أن نجد نظيرا لجميع هذه الصفات الكاملة الكامنة في ذاته المباركة منذ بداية الخليقة وحتى اليوم.

عليكم أن تمعنوا النظر في ذلك الشخص الذي لم يتلق أي نوع من التعليم الظاهري وفتح عينيه فلم ير حوله شيئا سوى عبادة الأصنام، ولم تسمع آذانه سوى صوت الناقوس، ولم يسمع من أحد حرفا واحدا يتعلق بالإلهيات والأخلاق والأصول الاجتماعية وقانون الحضارة، ويظهر إلى حيز الوجود فجأة ويتحدث عن أشياء مثل فلسفة الأخلاق، وتزكية الروح والإلهيات والمعاد وقانون الحياة الاجتماعية وأصول الحضارة والتي لم يتحدث بها قط أي نبي أو مقنن أو أي فيلسوف من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قومه في ذلك الوقت غارقون في سفك الدماء والقتل والفسق والفجور والظلم والجور والجهل والبطش والطغيان فينفخ فيهم روح الصدق والأخلاق الطاهرة فينقلبون مرة واحدة رأسا على عقب، فمن ذا الذي يستطيع ذلك سوى محمد رسول الله؟

واقدحوا زناد فكركم كيف كان حال الدنيا كلها إبان بعثة الرسول؟ فكان الهندوس والفراعنة في مصر يؤمنون بمئات الآلهة، ويعتقد النصارى في التثليث ويعبد الصابئة النجوم، ويسلم المجوس بإلهين يزدان واهريمن، وكان اليهود يقولون بالتوحيد، ولكن نوع الإله الذي يؤمنون به أكبر قليلا من الإنسان، بل يقل أو يتساوى معه في كثير من الأمور، وكان العرب إما أنهم لا يؤمنون بإله على الإطلاق أو أنهم يؤمنون بهذا النوع من الآلهة الذين لديهم بنات كثيرة (أي ملائكة)، وكان كثير من الفرق يؤمنون كل يوم بإله مختلف.

هذه هي فطرة الإنسان والفكرة التي رسخت في قلبه والمأخوذة عن تلك الأحداث والروايات والأفكار المنتشرة حوله، وكان عليه أولا أن يغيرها ثم يكون صورة أخرى، والآن أمعنوا النظر لو أن الرسول قد وردت له فكرة الإله بسبب

الفطرة لكانت نوعية هذا الإله مثلما عند الناس في ذلك العصر، ولكن الإله الذي لقن حضرته كان إلها واحدا محضا، لا يشترك في ذاته وصفاته أي نوع من البشر، وهو جل شأنه ليس في الأرض ولا في السماء ولا فوق ولا تحت ولا في اليمين ولا في الشمال ولا في الزمان ولا في المكان مثله يعرف كل ذرة، ويسمع وقع أقدام النملة، ومطلع على دخائل الأنفس المختلفة، وهو منزه وكامل وأسمى من أن يصل إليه تفكير الإنسان وله الصفات العلى.

زعم النصارى بأن الرسول تعلم التوراة والإنجيل:

حاول النصارى محاولات مضنية لإثبات أن الرسول كان متعلما، وكان واقفا على ما جاء في التوراة والإنجيل وأنه تلقى تعليمه على يد أحد النصارى ويدعى جرجس، فلو أن هذا صحيح لكانت فكرة الرسول عن الله بعيدة ومحالة لأن الله الذي كان يلقن التوراة والإنجيل وذلك المعلم المسيحي في ذلك العصر كان إلههم فقط. يذكر العالم الفرنسي الشهير "كانت هنري دي كاستري" في كتابه "الإسلام[1]": (تخبرنا الروايات بما لا يدع مجالا للشك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حصل عقائد اليهود والنصارى والصابئة بالمشافهة وهذا لا يخلو من فائدة؛ لأنه لو تم شرح تلك المواضع التي تحمل فيها آيات القرآن والتوراة نفس المضمون وافترضنا أن القرآن مأخوذ عن الكتب السماوية فلن تحل هذه المشكلة وهي كيف جبلت هذه الروح الدينية في محمد صلى الله عليه وسلم وكيف نشأت هذه العقيدة القوية للوحدانية والتي خيمت تماما على روحه وجسمه[2]).

---

(١) هذا الكتاب باللغة الفرنسية وترجمه إلى العربية أحد العلماء المصريين وطبع ونشر في عام ١٨٩٨م.

(٢) انظر ترجمة الكتاب السابق باللغة العربية طبعة مصر ص: ١٨.

ثم يكتب المستشرق الفرنسي بعد ذلك: "من المستحيل أن ينشأ هذا الاعتقاد من قراءة التوراة والإنجيل، ولو أن محمدًا قرأ تلك الكتب لرفعها وألقى بها لأنها كانت تخالف ذوقه وفطرته ووجدانه، لأن هذا النوع من العقيدة التي جرت على لسان محمد هي أعظم مظاهر حياته وهي نفسها دليل على هذا الأمر وهو أنه الرسول الصادق والنبي الأمين".

والآن نعرض بالتفصيل تلك العقائد والعبادات والأخلاق المتعلقة بالرسول وكذلك الأصول والمسائل التي أوحيت إليه عن طريق الوحي وهي بهذا القدر من الكمال والسمو ولا تخامر هذه الفكرة فيلسوفًا أو أي مقنن ولا يمكن أن ترد على فكر أحد دون الوحي الإلهي.

العقائـــــد

بادئ ذي بدء يجب على الإنسان ترسيخ العقائد بفكره واجتهـــاده أو بتقليد واتباع الآخريـــن، وبقدر ما كان من أديان قبـــل الإسلام فإن الناس جميعا كانوا مجبورين على التقليد ما عدا أئمة الدين، وفيما عدا رهبان النصارى وأحبار اليهود وصابئة المجوس وزعماء الهندوس لا يستطيع أي شخص أن يفتي بشيء يتعلق بالعقيدة الدينية، ولا يستطيع أن يقول رأيه فيما يتعلق بالعقائد. وقد أقر الإسلام بهذا النوع من الشرع وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ **(التوبة: ٣١)**.

وعندما نزلت هذه الآية تعجب أهل الكتاب كثيرا وقالوا: أين نقول الأحبار والرهبان أرباب؟ فقال الرسول إن عقيدتكم عن طريق القساوسة تجعل الشيء الذي يفعلونه حلالا تعتبروه حلالا، والشيء الذي يعتبرونه حراما تعتبرونه حراما. وقال في موضع آخر حول هـــذا المضمـــون ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾ **(آل عمران: ٦٤)**.

وهذا النوع من الحرية التي منحها الإسلام كان نتيجتها أن الصحابة رغم اختلاف مراتبهم وتباينها فإنه في العقائد لم يكن هناك شخص يقلد أحدا حتى البدوي الجاهل كذلك لم يكن يقلد كبار الصحابة في العقائد بل كان يعمل عقله وفهمه من تأثير ذلك أنه مع أن التقليد بدأ في الرواج عندما اضمحل الإسلام في العصور التي جاءت بعد ذلك لكن هذه المسألة ظلت مسلما بها حتى اليوم وهي: لا يجوز التقليد في العقائد.

كانت هذه هي تعاليم الإسلام التي وردت على ذهن لوثركينج بعد ألف عام وبناء عليها نـــادى بالتحرر من ربقـــة عبودية البابـــوات والقساوسة في الدنيـــا، وإن أسس جميع أنواع التحرر الديني هي في الحقيقة قائمة وتقوم على هدى الإسلام.

وجود الباري:

مسألة وجود الله من أهم المسائل في العقائد وعلينا أن نمعن النظر جيدا في مسألة ذاته وصفاته، ومن الضروري جدا فيما يتعلق بهذه المسألة أن نتساءل عن أي نوع من الأخطاء الغريبة والعجيبة ابتلى بها جميع أهل الأديان بل جميع العالم، النصارى يؤمنون بثلاثـــة آلهة، وكانوا يقولون إن الثلاثة واحد والواحد ثلاثـــة وإن اجتماع النقيضين هذا لم تتطرق إليه أفهامهم، لكنهم كانوا يقولون ليس من الضروري أن نفهم العقيدة، وكان المصريون يؤمنون بعدة آلاف من الآلهة، ولم يرق إلى ذهن المجوس كيف يمكن أن يجتمع الخير والشر كليهما في إله واحد وبناء على هذا أقروا بوجود إله منفصل للخير وآخر للشر، والهندوس عندهم ثلاثة آلية على الأقل هي: برهما وبشن ومهيش والرسل والأنبياء بالمئات بل بالآلاف، ولا غرو فاليهود يؤمنون بإله واحد ولكنهم قرروا أو صافه بما لا يعد وكونه أكثر من الإنسان العادي.

كان هذا هو حالهم فكانوا يؤمنون بالله بأي صورة من الصور وكانت هذه الجماعة غير قليلة ولم يؤمنوا بوجود الله كليا وكانوا يعرفون بأسماء مختلفة مثل الزنادقة والدهرية والماديون وغيرها.

كانت الدنيا تعيش في ظلام دامس حتى ظهر الإسلام وكشف اللثام عن جميع الأفكار والمعتقدات الخاطئة وأعلن أن الله واحد صمد، وأنه مبرأ عن جميع الخصوصيات والقيود كالزمان والمكـــان، والجهة والإشـــارة، وفوق وتحـــت،

وقد أظـــهرت أوربا حيرتها من هـــذا التنزيه والتقديس، وقال المستشرق جبـــن: "عندما نفصل الزمان والمكان والجهة والإشارة وجميع الخصائص فما ذا يتبقى للخيال". فلا غرو أن الإسلام أقام دعائمه على هذا الخيال الواســـع المنـــزة تماما عن الخصائص الجسمانية.

التوحيد الخالص واستئصال كل أنواع عبادة الأصنام:

بناء على هذا التقديس استأصل الإسلام جميع أنواع عبادة الأصنام لأن الفكرة التي رسخها الإسلام عن تنزيه وتقديس الله لا مثيل لها، وكان يعتقد أن تصور الله لا يمكن أن يرسخ في القلوب والعقول بدون صورة وشكل جسماني فالهندوس والمصريون القدماء والصابئة والروم الكاثوليك جميعا كانوا يحتاجون إلى تمثيل جسماني لتصور الله تعالى، ولهذا السبب ابتلوا بعبادة الأصنام، ولكن بالرغم من ظهور مئات الآلاف من الفرق في الإسلام فلم يرد في خلد أي فرقة منها أن تعبد الأصنام قط حتى اليوم، ويوجد في العصر الحاضر في العالم هندوس ونصارى ومجوس وغيرهم من أصحاب الفكر السامي من المستنيرين يقتربون من التوحيد الخالص، كما تزداد دائرة العلوم والفنون والأفكار رحابة ووسعة حتى أزيلت فكرة القيود الجسمانية المنسوبة لله تعالى.

وبعد الاعتراف بالله والتسليم به كانت هناك مرحلة مهمة وهي كيف تتم العلاقة المباشرة بين العبد وربه؟ وفي هذه المسألة أجمعت جميع الفرق على وجود واسطة وكانوا يعتمدون في ذلك على الشيوخ والمرشدين والرسل، ولكن الإسلام أخبرنا أنه لا مجال لوجود أي واسطة بين العبد وربه ويستطيع أي شخص أن يصل إلى الله مباشرة يقدم جميع أنواع حوائجه ومطالبه وأن بلاط الله تعالى مبرأ من الشفاعة والواسطة والسعي لأنه تعالى قريب من كل شخص، ويسمع صوت كل إنسان، ويستطيع أن يصل إلى كل فرد ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

النبـــــــــوة:

بعد التوحيد تأتي درجة النبوة وقد شاع خطأ عام في جميع أنحاء الدنيا فيما يتعلق بها، فقد كانت كل فرقة وكل جماعة يعتبرون أن منزلة الأنبياء أسمى من الإنسان وكانت هذه الفكرة هي التي رفعت من شأن رام وكرشنا وزرادشت وعيسى عليه السلام لدرجة أن البعض إلههم، وقد أعلن الإسلام بوضوح وبكل قوة وحرية وشجاعة وحزم أن الأنبياء لا يخرجون مثقال ذرة واحدة عن دائرة البشرية ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾، ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ ﴾، ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ﴾.

لقد تعاقب على الدنيا العديد من الأديان جميعها يخلط بين الألوهية والنبوة أو يقترب من ذلك على الأقل ما عدا الإسلام الذي نال شرف الفصل التام بين حدود كل منهما.

أمعنوا النظر جيدا نحن معشر المسلمين نؤمن بأن الرسول أفضل وأعظم من جميع الأنبياء وبالرغم من هذا نقول إن سيدنا إبراهيم خليل الله، وسيدنا موسى كليم الله، وسيدنا عيسى روح الله، ونذكـــر سيدنا محمد بلقب رسول الله فقـــط، ليس هذا فحسب بل عندما نؤدي الشهادتين في الصلاة نقول كلمة "عبده" قبل الإقرار بالرسالة أشهد أن محمد عبده ورسوله، فلماذا هذا؟ لأن هذا هو كمال التوحيد لله فلا يتعدى أمامه أي شخص مهما كانت منزلته درجة العبودية، ولأن الرسول كان وصيا على التوحيد الخالص في القلوب لهذا كان من الضروري أن يختار لنفسه لقب الرسول والعبد مجردا.

الجزاء والعقاب:

فيمـــا يتعلـــق بالجزاء والعقاب والثواب والعذاب والمعاد كان جميع أهل الأديـــان يعتقـــدون - وما زالوا حتى اليوم - أنه ما لـــم ينفذ الإنسان الأحكام

الإلهيـــة فلن يرضى عنه الله، ولأن الدنيا هي دار العمل فلهذا لن يلقى الإنسان الجزاء فيها، لكن عندما تقوم القيامة ويجلس الله على العرش فإن جميع الأعمال ستقدم وتعرض أمامـــه وسيعاقب الله تعالـــى العصاه وهكذا فإن الذين يطيعونـــه ويمتثلون لأمره سيجدون الصلاة والعطايا.

هذه الفكرة تتناسب تماما مع الطبائع العامة، وعامة الناس يميلون ناحية الخير ويمتنعون عن الشر، ولا يمكن أن تكون هناك طريقة أفضل من هذا.

ولكن ليست هذه الحقيقة الأصلية للثواب والعقاب، بل إحدى الطرق لتسهيل الفهم الخاص بالحقيقة الأصلية، والحقيقة الأصلية كما في عالم الأجسام هي سلسلة الأسباب والعلل والأثر والمؤثر فمثلا السم قاتل، وماء الورد محرك للنزبة وهكذا تقوم سلسلة الروحانيات، وبقدر أفعال الخير والشر يترتب عليها تأثير طيب أو شر على الروح، فتسعد الروح وتتهلل للأعمال الخيرة وتنقبض للأعمال السيئة وتطرأ عليها حالة من التلوث والنجاسة، وهذه النتائج لا يمكن فصلها عنها، افرض أن شخصا ما سرق شيئا ما من أحد وصفح عن ذلك الشخص فإن هذا الشخص يوصمه بالعزة بسبب السرقة ولا يمكن أن تزول هذه الوصمة بأي من الأحوال، وخلاصة القول أن السعادة التي تنشأ في الروح بسبب الأفعال الطيبة والشقاء الذي تحصل عليه بسبب الأعمال السيئة تسمى الثواب والعقاب وهذا تأثر حتمي وضروري لتلك الأفعال ذاتها يذكر الإمام الغزالي في كتابه "المضنون به على غير أهله":

> "أما العقاب على ترك الأمر وارتكاب النهي فليس العقاب من الله غضبا وانتقاما، ومثال ذلك أن من غادر الرقاع عاقبه الله بعدم الولد وكذلك نسبة الطاعات والمعاصي إلى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق، فالسؤال عن أنه لم تفض المعصية إلى العقاب كالسؤال في أنه لم يهلك الحيوان عن السم".

وقد صرح الإمام الغزالي في هذا الكتاب كذلك أن ما يحكم الله به من أحكام أو يمنعها مثلها كمثل الطبيب الذي يعطي الدواء للمريض ويأمره بتجنب الأشياء الضارة، فلو لم يمتثل المريض لما أمر به الطبيب فمن الضروري أن يكون هذا الضرر فقط ناتجا عن سوء احتراز المريض، ولكن الناس بشكل عام يقولون إن المريض لحق به الضرر لأنه عصى أمر الطبيب مع أن العلة الأصلية للضرر هي عدم الحذر، وافرض أن الطبيب لم يمنعه من سوء الاحتراز ومع ذلك أصابه الضرر من عدم الحذر[١]. وكذلك فالله لا يمنع من ارتكاب المعاصي ومع هذا فإن الروح تصدم وتتعذب بارتكاب الذنوب.

يعترض الملاحدة بقولهم: ما المغزي من عذاب الله على الذنوب؟ فالعقاب والانتقام يتأتيان لمن لحق به الضرر أو فكر في أن يصيبه الضرر والله تعالى أكبر من هذا فلو سقط العالم أجمع في براثن الفسق والفجور ولم تؤد الصلاة والزكاة فما النقص الذي يعتري الله تعالى؟ فالانتقام في مثل هذه الحالة عديم الفائدة.

ويقول الملاحدة أيضا: "إن تصور الله لجميع أهل الأديان في الحقيقة تصور بشري تماما ولأنهم يرون أن عصيان أحكام ملوك الدنيا يترتب عليه غيظهم وغضبهم وسيعاقب هؤلاء المجرمين أشد العقاب، ولهذا فإن أهل الأديان يعتقدون نفس الاعتقاد بالنسبة لله تعالى وأنه تعالى يغضب من الذنوب وسيعذب المذنبون بمختلف ألوان العذاب في النار يوم القيامة". ولكن العذاب والثواب الذي بيناه في الحقيقة لو رُعي فإن اعتراض الملاحدة يزول من تلقاء نفسه.

وفيما يتعلق بالثواب والعقاب في الإسلام لو تم اختيار نفس الأسلوب في البيان والذي كان عند جميع أهل الأديان فلم يكن هناك مفر من هذه الطريقة نفسها من أجل عامة الطبائع، ولكن ما يرجحه الإسلام في هذا الباب هو ما يظهره

---

(١) نقلت أصل هذه العبارة الإمام الغزالي..

الإسلام صراحة وكناية، وهذه الخصوصية نفسها هي التي يتميز بها الإسلام عن جميع الأديان الأخرى، فجميع الأديان الأخرى تراعي فقط هداية العوام وتلقينهم غافلين عن الحقيقة الأصلية أو مؤسسي الدين أنفسهم، أو لو كانوا واقفين فإنهم لن يقرروا أهدافهم لتربية الخواص وتعليمهم، وعلى عكس ذلك جاء الإسلام لهداية الدنيا كافة والجميع ينضوي تحت لواءه العالم والجاهل، الأحمق والعاقل، العارف والعامـــي، الزاهـــد والصوفي، والفيلسوف وأهـــل الظاهـــر. وتوجد إشارات بل تصريحات في مواضع عديدة من القرآن الكريم حول الحقيقة الأصلية للعذاب والثواب والمعاد. ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾، وقد فسر الإمام الغزالي هذه الآية في "جواهر القرآن" بقوله: (أي أن الجحيم في باطنكم)، وفي موضع آخر ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾، ويفسر الإمام الغزالي هذه الآية في "جواهر القرآن"، فيقول: (ولم يقل أنها ستحيط بل قال محيطة) وفي موضع آخر من القرآن الكريم وردت هذه الآية ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ يذكر الإمام الغزالي فيما يتعلق بها: "ولم يقل تحيط بهم". وبعد أن فسر الإمام الغزالي هذه الآيات يقول: "فإن لم تفهم المعاني كذلك فليس لك نصيب من القرآن إلا في قشوره كما ليس للبهيمة نصيب من التبر إلا قشره".

وفيما يتعلق بهذه المسألة فإن جميع الأديان تقع في الأخطاء دائما، وجميع الأديان بها أمثلة عديدة على أنواع مختلفة من الأخطاء في هذه المسألة. وأفدح هذه الأخطاء قاطبة هي أن الناس عموما يفهمون أن العبادة نفسها شيء مقصود بالذات وهدفها إظهار الطاعة لله فقط، والمثال على هذا هو أن أحد الملوك أراد امتحان خادمه في الطاعة والثبات على العهد وبناء على هذا أمره أن يقف على إحدى قدميه طوال الليل ولم يكن هناك فائدة ترجى للملك من هذا العمل، ولا أي نفع للخادم بل امتحان لطاعة الخادم، وهكذا فإن الهدف من الصلوات التي نؤديها، والصيام والحج هو الامتثال للأمر فقط، فنحن نمتثل لأمر الله مهما تحملنا من

صعاب فإن الله تعالى يرضى عنا، نترك الطعام لشهور، ونقف على قدم واحدة طوال الليل، نترك الأيدي معلقة في الهواء حتى تيبس، نتعرى أيام الصقيع وننام ملتحفين السماء، ونتعبد لمدة أربعين يوما، ولا نتزوج، ونتنسك طوال العمر، ونحيا في رهبانية، وهذا النوع من الأمور يوجد في الهندوسية والمسيحية وباقي الأديان الأخرى وأساسها جميعا قائم على هذه الفكرة.

وتتطور هذه الفكرة حتى تسنح له الفرصة للتضحية بالروح، وكثير من الناس يصعدون بأنفسهم على الجسر ويشنقون مضحين بأولادهم.

والحقيقة هي أن الفكرة أو الأفكار التي تراود قلب الإنسان يمكن أن تنشأ من تلك الأشياء التي حوله، ولا يستطيع الإنسان أن يفكر في مثل هذه الأشياء التي تعتبر أسمى من حواسه، وما يسمعه أو يراه يزيد وينقص، ويفسد ويترقى، ولكنه لا يستطيع أن يخلق فكرة بنفسه.

وعندما تطرأ على قلب الإنسان فكرة الله تعالى من ناحية أنه ملك الملوك المطلق فكان من الضروري أن ترسخ في ذهنه فكرة صفات هذه الملوكية وما كان يراه الإنسان أو يسمعه عن الملوك وملك الملوك أنهم يسروا ويسعدوا من إظهار الطاعة، ويحبذون التفاني فيه والخضوع والخشوع والتعظيم، وأن الشخص الذي يؤدي خدمات أكثر يستحق الإنعام الملكي بقدر ما قام به من خدمات، وقد نشأت فكرة عبادة الإنسان لله مراعاة لتلك الأفكار، وهكذا فبقدر أنواع العبادات في كل دين فإنه يوجد عنصر تلك الأصول فيها جميعا، وبناء على هذا الأمر يقول ملاحدة أوربا أن الأفكار الدينية يوجدها الإنسان نفسه طبقا لمقتضى حاله، وعندما قعد فلاسفة أوربا المعاصرين قواعد وأصول الدين الفطري وفروعه فإنهم أمعنوا النظر في حقيقة العبادة وأقروا لها هذه الأصول:

١- بقدر ما للإنسان من فرائض حياة مثل كسب المعاش، ورعاية الأولاد، وحب الوطن، وغيرها فإنها جميعا تندرج ضمن العبادات.

٢- العبادات الجسمانية مثل الصلاة والصوم وغيرها لم تقرر لقصدها بالذات بل الغرض منها ما يترتب عليها من نتائج أخلاقية.

٣- عدم تجاوز حد الاعتدال.

٤- الإقرار بأن عبادة الله تعالى ليس لها أي مصلحة، ونحن أنفسنا نستفيد من العبادة.

هذه هي الأصول التي تطورت في ذلك العصر، وقد اكتشفت أوربا طلاسم أسرار الفطرة المكنونة، ولكن القرآن المجيد أخبرنا بهذه الأسرار قبل ثلاث عشرة قرنا، وأخبرنا بادئ ذي بدء أن الله تعالى لا يكترث بعبادة عباده ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ثم أخبرنا بشكل مجمل أن الإنسان نفسه يستفيد من العبادة، والعبادة التي أمر بها الله ذات فوائد جمة للإنسان ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ثم بين الفوائد والنتائج المختلفة لكل عبادة من العبادات على حدة فقال بالنسبة للصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ وقال بالنسبة للصيام: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ وبالنسبة للحج ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾. ولا نحتاج بيان فوائد الزكاة.

وإلى جانب هذا الأمر يراعي في جميع العبادات ألا تتجاوز الاعتدال ولا يواجهوا في أدائها أي نوع من الصعوبات والمشقة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ بعد قراءة هذه الآيات يتضح أن فرض العبادة من

ضروريات حياة الإنسان وقد أكدت على أدائها، وقال تعالى فيما يتعلق بالتجارة: ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾.

إن الرغبة في الأولاد تعد من خصائص الصالحين والمقربين، وعندما أحصى القرآن الكريم خواص الأمة بين هذا الوصف ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾. وبناء على هذا كان جميع الصحابة الذين لديهم تصور حقيقي للإسلام يعتبرون أداء العبادات بتدين وصدق من ضروريات الحياة. وحتى اليوم يرى المسلمون أن مشي الصحابة وتجوالهم وطعامهم وشرابهم وزواجهم وإدارة شئون المنزل وأداء مثل هذه الأعمال كلها عبادة ولا تخص الصحابة بل هذه الأفعال عبادة لكل شخص بشرط أن يؤديها كما كان الصحابة يؤدونها.

حقوق الإنسان:

إن العلاقات التي بين الإنسان ومختلف طبقات البشر قد خلقت حقوقا مختلفة على الإنسان، وهذه الحقوق هي أساس علم الأخلاق والقانون بل كذلك أصول الحضارة، وبقدر ما في العالم من مذاهب فإنها جميعا بحثت تلك الحقوق بشكل متفاوت لدرجة أنها أدخلتها في دائرة الأخلاق، وقد توسعت فيها بعض الأديان وأدرجتها ضمن دائرتها في الزواج والوراثة والوصية وغيرها ولكن هذه العلاقات متشابهة بدقة لدرجة أن تحديدها وتطبيق الحقوق عليها وإقرارها قد شابه أخطاء كثيرة، وجميع هذه المسائل يوجد لها اعتراض في الشريعة الإسلامية ولا يمكن أن يوجد مثيل لها عند الفلاسفة ومؤسسي الأديان والدليل القطعي على هذا الأمر هو أن الإسلام هو المشرع والذي كان يقوله إلهام ووحي، وإلا كيف يمكن ألا يستطيع أن يتوصل إليها أحد من كبار الفلاسفة وقد تجلت على لسان أمي من صحراء العرب.

مسألة الانتحار:

والقضية الأولي لحقوق الإنسان هي: ما حق الإنسان على نفسه؟ وبقدر ما هو معلوم من قراءة التاريخ فإن هذه القضية مسلم بها في أنحاء العالم وكل شخص يملك نفسه بنفسه وبناء على هذا كان يعتقد أن الانتحـــار ليس جرما، وكان كبار فلاسفة اليونـــان يعتبرون الانتحار جائز لدرجة أن بعض مشاهير الفلاسفة عندهم انتحروا وهلكوا.

بادئ ذي بدء فقد كشف القرآن الكريم عن هذه المسألة وبناء على هذا منع الانتحار: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

منع الإسلام قتل الأولاد:

يترتب على هذه المسألة أثر كبير لحقوق الأولاد، ويعتقد الإنسان أن الأولاد في الحقيقة وجود ثانٍ له، وبناء على هذا يحبهم كحبه لروحه، ولأن الإنسان مالك لنفسه لهذا فإنه يفكر في أولاده مثلما يفكر في نفسه، وبناء على هذا قامت أسس قتل الأولاد في أشكال مختلفة فنجد أن الهند وقرطاج في أوج حضارتهما وتمدنهما يضحون بالأولاد على الأصنام والأزلام، وقد انتشر في الهند وبلاد العرب وأد البنات على نطاق واسع، وفي إسبرطة وروما كانوا يلقون بالدميم من الأولاد على قارعة الطريق، وقد أجاز كل من أرسطو وأفلاطون - وهما من مشاهير الفلاسفة - هذا الصنيع فكان يقضى على الأولاد الضعفاء، وكان أرسطو يرى أن الولد الأعرج غير جدير بالتربية، وعندما كان يولد ولد في إسبرطة كانوا يعرضونه أمام كبار القوم فلو هـــو صحيح الجسم قوى البنيان تركوه ليعيـــش،

وإن كان غير ذلك كانوا يلقونه من على جبل الأوليمب وهذا النوع من العادات كانت توجد لدى كثير من الشعوب، وقد كان القرآن الكريــم أول من استــأصل هذا الظلم والجور.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾، ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾.

حقوق المرأة:

المرأة نصف البشرية، وقد صيغت آلاف القوانين في مختلف أنحاء العالم حول حقوقها، ولكن من الأمور العجيبة أن المرأة لم تجد الإنصاف في حقوقها حتى ذلك الوقت الذي لم يكن الإسلام قد أظل الدنيا بظله.

قد ميزت الفطرة مختلف دول العالم بخصائص مميزة، فتميز الرومان بعلاقة خاصة بالقانون، واليونان بالفلسفة وإيطاليا بفن التصوير، وإيران بالنقوش والمنممات واكتسبت سمعة واسعة، وهكذا كان يعترف بالقانون الروماني كأفضل قانون في العالم ولازال القانون الروماني حتى اليوم الحجر الأساسي لجميع قوانين أوربا، وكانت حقوق المرأة في هذا القانون السامي هي أنها بعد الزواج تصبح عقارا مملوكا للزوج وتصبح جميع أموالها ومتاعها ملكا للزوج تلقائيا، وما تكسبه من مال تأول ملكيته للزوج ولا يمكن أن تتقلد أي وظيفة، ولا تستطيع أن تضمن أحدا، ولا تقبل شهادتها، ولا يمكنها أن تتعاهد مع أحد، حتى أنها عندما تحتضر لا توصي لأحد(١).

---

(١) دائرة المعارف البريطانية. كلمة رومان وامرأة.

القانون الروماني:

عندما اعتنقت الإمبراطورية الرومانية المسيحية قامت بعدة إصلاحات ولكنها كانت إصلاحات وقتية أي أنهم بعد فترة وجيزة عادوا وأقروا أصولهم القديمة نفسها، وفي سنة ٥٨٦م عقد في أوربا اجتماع ضخم من أجل الفصل في هذه المسألة ألا وهي هل المرأة روح أم لا؟ وكان الاجتماع منصفا غاية الإنصاف؛ وسلم بأن المرأة تدخل في بني البشر ولهذا فهي ذات روح أيضا ولكنها خلقت لهدف واحد فقط هو خدمة الرجل.

ظلت هذا المواد القانونية سارية في إنجلترا لفترة من الوقت أي أن وجود المرأة بعد الزواج هو وجود لزوجها فهي نفسها لا تستطيع عقد أي نوع من المعاهدات وكانت جميع ممتلكاتها للزوج ويمكنه أن ينفقه مثلما يريد، وقد ظل القانون الروماني أقل من ثلاثين عاما وتم إصلاح تلك القوانين ومع ذلك لا يزال كثير من الظلم والجور قائما فيها حتى الآن.

والزواج عند اليهود في الحقيقة كان شراء للمرأة ويحصل والد المرأة على ثمنها، ويطبق الهندوس القوانين الرومانية بعينها، أي أن أملاك المرأة يحصل عليها زوجها، ولا يجوز لها أي نوع من أنواع المعاهدات والعقود، ولا تحصل الزوجة والابنة والأم على أي نصيب من الميراث (عدا حق التربية).

حقوق المرأة في الإسلام:

العرب الذين هم مصدر الإسلام وأصله كانت المرأة عندهم لا تحصل على أي نصيب قط في الميراث، وعندما كان الأب يموت كانت زوجاته وأولاده يرثونه، وكانت لديهم أربعة طرق للزواج منها ثلاثة طرق حسب ما يلـــي:

الطريقة الأولى: أن يتبادل رجلان زوجاتهما فيما بينهما لفترة محددة من الوقـت. والثانية: أن يباشر مجموعة من الرجال امرأة واحدة وبعد عدة أيام تقوم تلك المرأة باستدعاء أحدهم عندها وتقول له لقد حملت منك وعليك أن تعترف بأنهم أولادك. والثالثة: أن يصادق مجموعة من الرجال امرأة وعندما يولد لها ولد يقترعون ويحكمون بأن هذه النطفة للشخص الفلاني وهكذا كان يعترف بأنهم أولاده، وهذه الأشكال الثلاثة للزواج مذكورة في صحيح البخاري برواية السيدة عائشة.

انظروا الآن ماذا أسدى القرآن الكريم للمرأة من حقوق؟ ولكن ذكر هذا الأمر جد ضروري قبل الإجابة على هذا، فقد زعم أكثر كُتّاب أوربا أن ما هو موجود في الإسلام من أحكام ومسائل جميعها منقول عن الأديان الأخـرى ولم يضف المشرع الإسلامي أي مسألة جديدة من جانبه، وعندما تقرأ القوانين المتعلقة بالمرأة عند الهندوس والنصاري واليهود تعتقد أن الإسلام نقلها أو أنه أقامها علي مسائل وأصول فلسفية والتي لم تصل قط إلى فكر أحد.

أخبرنا القرآن قبل كل شيء عن نوعية العلاقة الفطرية بين الرجل والمرأة، وأن المرأة هي الجزء الأكبر من النظام الاجتماعي الإنساني، وهي راحة للرجل وطمأنينة له.

﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الـــروم).

ثم وضح بأساليب مختلفة أن الرجل والمرأة رفيقين يتساويان في المنزلة كلاهما يحتاج إلى الآخر وأن حقوقهما، ومكانتهما، وعلاقتهما على قدم المساواة.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة)، و﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وفيما يتعلق بمراتب علاقات القرابة فإن الرجل والمرأة على درجة واحدة فمثـلا الأم والأب على درجـة واحـدة، والأخـت والأخ على مرتبة واحـدة،

والعمة والعم على منزلة واحدة، وعندما يذكر الأب والأم في القرآن الكريم يذكران بدرجة واحد. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾. وبين القرآن بقوة حقوق الأم: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ﴾ (الأحقاف)، وفي مقابل هذا القانون عند الرومان والهندوس فإن مال المرأة ومتاعها جميعا يكون للزوج، يقول القرآن: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾، وظلت المرأة محرومة تماما من الميراث في الجاهلية عند العرب أنفسهم وعند الهندوس، وفي مقابل ذلك يقول القرآن ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾. وقد محا القرآن عادة قتل البنت بتلك الكلمات وهكذا لم تظهر إلى حيز الوجود واقعة واحدة بين المسلمين منذ ألف وثلاثمائة عام وحتى اليوم ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾.

وكان من عادة الجاهلية عندما يموت أي شخص فإنهم يزوجون أخوه أرملته بالإكراه أو يمنعوه من الزواج وكانوا يسمحون له بالزواج مادام سيحصل على نصيب منها وقد محا القرآن هذه العادات ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

أما المهر الذي كان والد الفتاه يتلقاه عوضا كأنه يبيع البنت قال القرآن بدلا من هذا: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ﴾ (النساء).

ويجب أن تحدث هناك محبة وملاطفة ومساواة وقرابة مع النساء في الحياة اليومية، وقد عبر القرآن عن ذلك بكلمات جامعة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وتعد مسألة الطلاق من المسائل المهمة والحساسة في العلاقة بين الزوج وزوجته ولهذه المسألة خطورتها وصعوبتها وقد اختارت جميع شعوب العالم

جوانب مختلفة ومتعددة في التعامل مع هذه المسالة ولكنها جميعا خطأ، وفي العصر الحاضر على الرغم من التطور الذي حدث في الدنيا مازالت هذه الأخطاء قائمة، فقد تشدد المسيحيون إلى هذا الحد ورأوا أن الطلاق لا يمكن أن يقع إلا في حالة الزنا فقط ونتيجة لهذا تحدث وقائع مزرية وفضائح غير مقبولة بسبب هذه المسألـــة في أوربا فـــي العصر الحاضر رغم أنها مركزا للحضـــارة والمدنيـــة، وهناك مئات الآلاف من الأزواج والزوجات ساءت أحوالهم وبلغت بهم الخصومة وعدم الاتفاق مبلغا وصارت حياتهم مريرة بسبب سواء التفاهم، وتوقفت المعاشرة الزوجية بينهم تماما وانعدمت فوائد الزواج وأهدافه كليا، وهم يعيشون سنوات وسنوات في ذلك الألم والأذى، ولا حيلة لمنع هذه المعاناة إلا أن تثبت واقعة الزنا، وترتب على ذلك أن كبار الأعيان ورجال الدولة يتهمون زوجاتهم بالزنا في الحاكم ويقدمون الشهود على هذه الوقعة الوقت ويعدون كل الأوراق والوثائق المتعلقة بها، ويكدسون كل أنواع الفضائح والخزي والعار وعدم الحياء وكل هذا من أجل أن يطيبوا نفسا ولا تستطيع المرأة أن تتحرر من براثن هؤلاء الذين لا حياء لهم، ويتفق القانون الهندوسي وفي هذه القضية مع المسيحيين.

وفي الجـــانب الآخـــر نجد أن الحديث عن الطـــلاق عند اليهود جائز بل مستحســـن، وعندما نظفر الرجل بامرأة أجمل من زوجته يطلقها بدون عناء وانظروا الآن كيف حل الإسلام هذه المسألة الحساسة والخطيرة.

أعلن القرآن الكريم منذ البداية وبأساليب وطرق مختلفة أن علاقة المرأة بالرجل ليست من أجل إطفاء الشهوة بل من أجل حسن المعاشرة والألفة والارتباط القوى، ﴿ مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ ، و ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.

والآن افرض أن رجلا لا يحب امرأة، وأراد أن يقطع علاقة بها يؤكد الإسلام في هذه الحالة أن على الرجل أن يتحلى بالصبر، ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء)، ووجه القرآن كلامه للمرأة قائلا: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (النساء).

ثم يخبرنا القرآن بسبل إزالة سوء الطبع وسوء المزاج عند المرأة لأن البقاء في تحمل سوء الطبع دائما في الحقيقة تكليف ما لا يطاق، ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾.

بعد ذلك لو لم يكن الاتفاق والصلح ممكنا يجب تدخل القوم في هذه المسألة فيحكمون في الأمر قبل أن يقرر الرجل والمرأة ذلك بنفسهما؛ لأن هذا النوع من المعاملات يتعلق بالتحضر والحياة الاجتماعية، وكل شخص هو جزء من شعبه وأفعاله وأعماله ينعكس تأثيرها على جميع الشعب ولهذا أمر القرآن بتدخل القوم والشعب في هذه المسألة، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾. ولو لم تنفع هذه الحيلة وعزم الرجل عزما أكيدا أن يطلقها ففي هذه الحالة المعقدة يسمح الإسلام بالطلاق، ولكن تراعى أمور مختلفة إلى جانب هذا.

ثم يخبرنا القرآن بهذه الطريقة قبل وقوع الطلاق وهي أن يتم الطلاق بتدرج خلال ثلاثة أشهر أي تكون هناك طلقة واحدة كل شهر (ويطلقون على هذه الفترة اصطلاحا اسم العدة) والغرض من إقرار مثل هذه الفترة هو أنه ربما يتدبر في الأمر في هذه الأثناء ويرجع الرجل عن رأيه، ومع هذا يقول القرآن ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ (البقرة) ثم يقر هذه القاعدة: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾، والهدف من فرض هذا القيد أن يفكر الرجل: لو طلقتها وطابت نفسي مصادفة في المستقبل ورغبت فيها فلن تبق الآن أي طريقة

لاسترجاعها سوى أن تظل تحت تصرف الآخرين وتتزوج رجلا آخر، ومن الطبيعي ألا يقبل أحد هذا العار ويستسيغه، إلى جانب هذا يقر الرجل أن الطلاق ليس أمرا منزليا بل عليه إظهاره وكشفه أمام قومه وسيتطلب شهادتهم عليه ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾.

والهدف من هذا عندما يُقَرَّر الطلاق كمسألة عامة ويُقرَّر له شاهد ليثبته فمن الصعب على الرجل الغيور أن يقبل على الطلاق، وإذا طلق الرجل مع كل هذه القيود والمحاذير ففي هذه الحالة عليه أن يلتزم بحزم بهذه القواعد والقوانين: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ (سورة الطلاق)، و ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾، ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾.

وكان أكثر الناس يحبسون المرأة بعد الطلاق، ولا يسمحون لها بالزواج الثاني ويعترفون بمضايقة المرأة وإيذائها كرها أحيانا، ويقصد من هذا أحيانا أن يعفي من المهر بعد مضايقتها أو ينقذ أي جزء منه، فأصلح القرآن هذا الأمر هكذا: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (البقرة)، ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ (البقرة).

ولو أن المرأة المطلقة حامل سوف يتكفل الرجل بمأكلها وملبسها هي وطفلها لمدة سنتين: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة).

وكان أكثر الناس يلتزمون عند الزواج بمهر كبير، ولكن عندما يطلقون يكون أداء المهر عبئا ثقيلا عليهم؛ ولهذا فإنهم يضغطون على المرأة بكافة الحيل

والسبل لتقليل المهر، ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

وخلاصة جميع تلك الأحكام هي لو طلق الرجل المرأة لأسباب قاهرة فإن عليه أن يمنحها الطلاق على مراحل بالتدريج في فترة ثلاثة شهور، وبعد الطلاق تأتي فترة العدة ومدتها ثلاثة شهور ويتحمل الزوج مسئولية نفقاتها، وستسنح الفرصة الكافية للمرأة لكي تبحث لها عن زوج جديد، ولو هي حامل تضع حملها ويتحمل الزوج نفقات المرأة لمدة عامين، علاوة على هذا تحصل على المهر الذي كان مقررا كاملا حتى لا تتكبد المرأة عناء البؤس والفقر.

هل يستطيع فيلسوف أو مقنن أن يشرع قانونا منصفا للمرأة أفضل من هذا؟ وهل يمكن أن نجد في دين آخر غير الإسلام مثل هذا التراحم والاهتمام[١]؟

الوراثـــــــــة:

الوراثة هي مجمل تلك القوانين التي يختلف الآراء حولها دائما بين شعوب العالم، ومازال هذا الاختلاف حتى اليوم، فالأولاد الكبار فقط هم الذين يرثون العقارات والأشياء غير المنقولة، وباقي الأولاد يرثون ما تبقى من فتات، وفيما عدا الأولاد فإن الأقارب يحرمون تماما من الميراث.

وجميع الأولاد الذكور يرثون عند الهندوس، ولكن عدا الأولاد الذكور فإن الأقارب لا يحصلون على شيء، أما البنات فيحصلون على الطعام والنفقة فقط.

---

(١) من الضروري التذكير في هذا المكان أن جميع هذه الأحكام مؤكدة في القرآن الكريم والأحاديث.

ولم تكن المرأة تورث قط عند العرب في الجاهلية، ولكن بقدر ما هو معلوم فإنه فيما عدا الأولاد الذكور فإن الأب والأم والأخ والأخت وغيرهم لا يحصلون على أي جزء من الميراث. وأوربا في العصر الحاضر رغم تقدمها وتحضرها لكن الميراث حتى الآن منحصر في قاعدة الوراثة للأولاد الكبار فقط.

والآن أمعنوا النظر في الأصول التي يجب أن تبنى عليها الوراثة طبقا لأصول الفطرة والحضارة، ويدور هذا البحث حول سؤالين: الأول هو هل تقسيم الثروة على مجموعة كبيرة من الأفراد أفضل أم تظل محدودة بفرد أو فردين؟ والثاني لماذا يحصل أصدقاء أي شخص متوفي على أملاكه؟

لقد قرر أساتذة علم الحضارة أن مقدار الثروة الذي يقسم على أفراد كثيرة يكون أكثر فائدة وهذا الشيء الفارق والمميز بين الدول المتحضرة والدول غير المتحضرة، وتتوفر هذه الخصوصية عموما في الممالك المحكومة من قبل أفراد حيث يكون الملك والمقربون منه من الأغنياء وبقية الناس جميعا من المحتاجين الذين لا يمتلكون المال، وعلى العكس من هذا ففي الدول المتحضرة ينزلون الثروة على قدر مراتب الناس ودرجاتهم. ومراعاة هذه الأصول توجد فقط في قواعد الميراث في الإسلام، وطبقا للشريعة الإسلامية فإن جميع أقارب الميت يتمتعون بالميراث كل حسب منزلته، الأم والأب والعم والجد والأخ والأخت والخال والخالة وغيرهم جميعا ينالون نصيبا من الميراث، إن أصل أصول الميراث يتعلق بالميت وأقاربه أي الناس الذين كانت لهم صلة بالميت وهم الناس الذين كانوا شركاء للميت في الألم والراحة وكانوا أعضاءه وجوارحه فيجب أن يحصلوا على جزء من أملاك ميتهم، وطبقا لهذه الأصول فإنه من البخل وضيق الأفق أن يقصروا الوراثة على نوع فقط من الأقارب، ولا غرو فإن مراتب الأقارب متفاوتة ومن الضروري مراعاة فرق المراتب ولكن من الظلم الصريح وعدم الإنصاف كذلك أن يحصل بعض الأقارب على الميراث ويحرم بقيتهم تماما، وأن قانون أوربا هذا

مخالف للعقل تماما بحيث يورث الأولاد الكبار فقط دون بقية الأولاد الذين تركهم الميت، وأن الأولاد جميعا على حد سواء فلا يؤثرونه بسبب كونه كبير السن ويحرمون بقية الأولاد تماما فهذا على عكس أصول الفطرة.

لقد راعى الإسلام فرق المراتب الدقيقة والحساسة حيث حدد مراتب أقارب الميت ودرجة هذه القرابة بدقة نظر متناهية، وقرر حصصا متفاوتة ومختلفة لهم.

الحقوق العامة للنـــاس:

أمر الإسلام بتقديم قيم العمل الصالح وحسن الخلق والكرم والرحمة لكافة البشر وأكد عليها وغلظ في الإصرار عليها، ولكننا لن نذكرها هنا في هذا الموضع لأن الأخلاق الحسنة تعاليم عامة وأصل أصول جميع الأديان ولا يختص بها أي دين من الأديان، ولا شك أن الشيء الذي عليه معيار التفوق والأفضلية هو أي نوع من تعليم السلوك متبع مع الشعوب الأجنبية أو من لا دين لهم؟

هناك شعوب كبيرة في الدنيا سادوا العالم بأسره وهم الهندوس والمجوس والنصارى واليهود، وقد منحت الديانة الهندوسية جميع شعوب الهند غير الآريين لقب "شودر" أي منبوذ وبالرغم من اشتراكهم في الدين إلا أنهم أسسوا نظمًا وقواعد صارمة ومهينة ولا يمكن أن تخطر تلك القوانين على بال أحد حيث حرموهم من جميع أنواع الصلاحيات والامتيازات والمناصب والحرية والكرامة، وفي النهاية لو وصل صوت الفيدا المقدس إلى مسامع أي منبوذ مصادفة فيجب أن يصبوا الرصاص في أذنه لأن أذنه غير الطاهرة لا تستحق هذا الصوت المقدس.

وفي العهد الحقيقي لازدهار النصارى القدماء عهد الإمبراطورية الرومانية ظلت هذه المملكة قائمة فترة طويلة من الزمن ونالت العزة والجـــاه والسطوة، وكان الناس في أطراف الدنيا وأكنافها يرتعدون من ذكر اسمهم، ولكن ما هي هذه

الدولة العظيمة؟ لقد رسمت لهم دائرة المعارف الفرنسية هذه الصورة بتلك الكلمات[١] "كيف كان نظام الحكم في الإمبراطورية الرومانية؟ كان نظاما ظالما وحشيا يرتدى ثوب القانون، وكانت شيمهم أي الشجاعة والدهاء والنظام والاتحاد فيما بينهم هو بعينه شيم اللصوص وقطاع الطرق، وكانت وطنيتهم وحشية تماما، يحبون الجاه حبا جما، ويبغضون الشعوب الأجنبية ويحقدون عليها، وانعدم لديهم الإحساس بالرحمة والشفقة ولم تتراء لهم غير تلك الفضائل، وكانت عظمتهم وشأنهم يتجلى في القتل والضرب بالسياط وعقاب أسرى الحرب ويسحبون الأطفال والعجائز في عجلاتهم الحربية".

ما الحقوق التي منحها الإسلام لغير المسلمين؟

انظر الآن ماذا فعل الإسلام؟ لقد محا الإسلام التمييز في الجنس والقومية تماما، وكان العرب مهد الإسلام ولكنه ساوى بين العرب وجميع شعوب الدنيا الذين دخلوا في الإسلام مثل: الأفغان والأحباش والتاتار والأتراك والهنود والإيرانيين، وبقدر ما تدعى أوربا اليوم من حرية إلا أنها تفرق بين رعاياها والقوميات الأخرى ولم تستطع أن تمحو ذلك بأية طريقة فعندما يتنصر شخص ما ويصبح على دين الأوربيين يُطَمْئِنه قساوسة الدين بأنه سيكون صنوا لهم يوم القيامة، ولكن الحدود الفاصلة القائمة في هذه الدنيا الفانية ستظل قائمة، وعلى العكس من هذا فعل الإسلام فمنح الغزنويين والديلم والسلاجقة والأتراك والشركس وغيرهم الملك المرة تلو الأخرى رغم أنه لا تجري في دمائهم قطرة واحدة من دماء العرب وكان العرب أنفسهم محكومين لهم.

---

(١) انظر التطبيق ص: ٣٧.

وينقسم المخالفون للإسلام قسمين.

١- **أهل الذمة والمعاهدون:** وهم هؤلاء الناس الذين يعيشون في الدولة الإسلامية أو الذين لهم معهم معاهدة صداقة وصلح.

٢- **المحاربة:** وهم الذين ليس بينهم وبين المسلمين أي نوع من المعاهدات وتقوم بينهما حرب وخصومة أو يمكن أن تقوم.

وقد ساوى الإسلام بين أهل الذمة والإسلام تماما من حيث الروح والمال والحرية والكرامة وجميع الحقوق الأخرى، ولكن لأنني كتبت رسالة في هذا الموضوع عنوانها "حقوق الذميين(١)" لذا لن أفصل القول فيها في هذا الموضع.

أما بالنسبة لأحكام الإسلام في التعامل مع المحاربة فتتضح من هذه الآيات القرآنية: ﴿ وَقَاتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾.

ويرد في القرآن الكريم كثير من الكلمات من هذا النوع "اقتلوا الكفار حيث وجدتموهم" "حاربوا الكفار كافة" و"الكافر عدو الله" ويثبت من الآيات القرآنية أن عداء كل مخالف للدين وكراهيته يعد فرضا دينيا لدى المسلمين.

وبناء على هذا فقد أقر بعض المتعصبين من المسلمين أن القسم الأول من الآيات نسخ ولكن الله تعالى أزال هذا التناقض بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

---

(١) طبعت هذه الرسالة ومعها عدة رسائل باسم رسائل شبلـي ويمكن الحصول عليها من مدرسـه العلوم بعلي كره.

يتضح جليا من تلك الآيات أن على المسلمين محاربة المعارضين للدين ماعدا هذه الحالة ويخرجونهم من بلادهم أو يساعدوا على إخراجهم، وفي أي حالة فإن عقد الصداقة معم والإحسان إليهم وإسداء المعروف لهم ليس ممنوعا، وقد تبدو الأحكام النصرانية وبعض الأديان الأخـــرى أكثر سخاء من هذا في الظاهـــر، فمثلا جاء في الإنجيل "إذا لطمك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيســـر"، ولكن هذا النوع من الأحكام يبدو رائعا جدا في الظاهر، ولكنه عبث وهراء في الواقع؛ لأن الفطرة الإنسانية تأبى ذلك ولهذا لسبب لا يمكن ظهورها في صورة عملية قط، وبناء على هذا تفوق الإسلام على جميع الأديان لأنه فصل بين الإفراط والتفريط وفيه مجموعة من الأحكام كلها موافقة للفطرة البشرية.

بقيـــة العقائـــــــد:

إن أساس الإسلام الحقيقي الذي قامت عليه تلك الأصول هو التوحيد والنبوة، فقط (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) فالإسلام بسيط وواضح تماما ولا لبس فيه، وهذه البساطة هي التي رجحت كفة الإسلام على جميع الأديان الأخرى، ويبدى أحد الباحثين الأوربيين حسرته على هذه البساطة بقوله: "لو أن أحد الفلاسفة ألقى نظرة على العقائد الدينيـــة الطويلة والمعقـــدة في الدين المسيحـــي لصاح قائـــلا: آه لو كان ديني بسيطًا وواضحا هكذا فيكون إيماني بإله واحد ورسوله محمد صلى الله عليـــه وسلم" كانت هاتان الكلمتان اللتان يرددهما اللسان ويؤمن بهما الكافر فيصبح مسلما، والضال فيهتدي، والشقي فيصير سعيدا، والمرفوض فيقبل، ولكن اختلاف الطبائع وامتداد العصور والأزمان أضافت مئات الآلاف من الحواشي إلى هذا النص فأصبح الإسلام اليوم اسمًا يطلق على مجموعة من المسائل لو حاولت تلقينها للصحابة من القرون الأولى ما فهموها، وحتى العرب الذين نزل عليهم

القرآن لا يمكنهم اليوم فهمها، والعجيب أن هذه المسائل والقضايا الوليدة أقرت معيارا للكفر والإسلام، فهل القرآن الكريم مخلوق أم قديم؟ والصفات الإلهية عين ذات أم غير ذلك؟ والأعمال هل هي جزء من الإيمان أم خارجة عنه؟ لم يكن القرن الأول للإسلام يعلم شيئا عن تلك المسائل ولكنها أقرت كحد فاصل بين الكفر والإسلام في العصور التالية؟ ولقد قرأتم في تاريخ علم الكلام عن الفتن والحروب الكلامية التي بنيت على تلك المسائل، على كل حال فإن هذه المسائل صارت الآن مرتبطة بعلم الكلام ولا مفر من ذكرها نفيا أو إثباتا في علم الكلام الجديد وينبغي تناول تلك المسائل بالبحث من جانبين هما:

١- نوعية تلك المسائل.

٢- مدى الارتباط الحقيقي لتلك المسائل بعلم الكلام.

نوعية مسائل العقائد:

الجانب الأول تناولناه بالتفصيل في تاريخ علم الكلام، وسأكتفي هنا بالقول أن هذه المسائل تنقسم إلى قسمين بعضها لم يذكر قط في القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية قط، ولكن لأن التوحيد والنبوة من العوارض الذاتية لدى المتكلمين، ولهذا من الضروري بحثها لأن التوحيد والنبوة لا يمكن أن يكتملا بدونهما، وعلى سبيل المثال فإن حداثة القرآن الكريم أم قدمه هذه المسألة لم تذكر صراحة في القرآن والحديث ولكنها تعد من لوازم العقائد المذكورة في القرآن الكريم لأن القرآن كلام إلهي والكلام الإلهي من صفات الله، والشيء الذي يكون صفة لشيء ما يتلازم معه، والآن لو القرآن الكريم حادث لكانت الذات الإلهية حادثة أيضا لأن الشيء الذي يكون محلا للحوادث يكون هو نفسه حادثا وهذا في حد ذاته مؤكد، فالذات الإلهية مؤكدة، وهناك مسائل كثيرة أخرى من هذا النوع.

وهكذا فإن بعض المسائل مذكورة في القرآن الكريم ولكن لأن حقيقتها وكيفيتها لم تذكر في القرآن لهذا فــإن كل فرقة حددت كيفيتها وفقا لاجتهــادها، وقد ظهرت كثير من المسائل من هذا التحديد بالذات أو بالواسطة مثل كيفيات المعاد، لقد ذكر المعاد بكثرة مفرطة في القرآن لكنه لم يصرح بالكيفية، وقد حدد الأشاعرة هذه الكيفية بقولهم: سيخلق نفس الجسم مرة ثانية كما هو مثلما كان موجودا في الدنيا والمعاد عند فلاسفة الإسلام لا يتعلق بالجسم، وما يكون من عذاب وثواب يكون للروح وليس من الضروري خلق الروح مرة ثانية لأن الروح جوهر بسيط، ولا يفني بعد أن يخلق، والجانب الثاني أو البحث الثاني وهو مسائل القسم الأول أي التي لم يرد ذكرها مطلقا في القرآن الكريم أو الأحاديث الصحيحة وهي في الحقيقة لا تدخل في علم الكلام[1] لكن لأنها مر عليها سبعمائة عام خلت فصارت كأنها جزء من الإسلام لهذا ذكرها ضروري هكذا حسب ما يلي:

الأشاعرة	الفرق الأخرى
١- الله منزه عن الجهة.	- الحنابلة وأكثر المحدثين يخالفونهم.
٢- الله منزه عن الجسم.	- الكرامية تخالفهم، وابن تيمية أيضا يقول بالجسم.
٣- الله لا جوهر ولا عرض.	- الله جوهر عند ابن تيمية وغيره.
٤- الله لا يرتبط بالزمن أي لا زمان له.	- الله هو كل شيء عند أصحاب وحدة الوجوب.
٥- لا يمكن أن يتحد الله مع أحد سواه.	- يقول الكرامية خلافا لذلك.
٦- لا يمكن أن يقوم أي شيء حادث في ذات الله.	- هي عين ذات عند فلاسفة الإسلام وأكثر المعتزلة.

(١) هذا التقسيم موجود أيضا في كتاب شاه ولي الله "حجة الله البالغة"ص: ٨ و ٩ ويقول عن النوع الأول: لا يكون الشخص من أهل السنة والجماعة بناء على تلك المسائل.

٧- صفات الله ليست عين ذات.	- عند ابن سينا وغيره موجب بالذات أي مثلما يصدر النور عن الشمس كذلك تصدر الأفعال عن الله.
٨- الله قادر بالذات أي يختار الفعل وترك الفعل.	
٩- الله فاعل بالذات لجميع الممكنات.	- الله واحد بالذات عن ابن سينا وغيره والشيء الواحد بالذات يمكن أن يصدر عنها شيء واحد بالذات فقط، وكذلك فقد خلق الله العقل الأول فقط ثم خلق جميع المخلوقات من العقل الأول واسطة من واسطة.
١٠- إرادة الله قديمة.	
١١- كلام الله قديم وهو كلام نفسي.	
١٢- الأفعال التي تصدر عن الإنسان تصدر بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان وقدرته.	
١٣- أفعال الله غير معلله بالأغراض.	- عند المعتزلة حادثة.
١٤- البقاء صفة وجودية زائدة عن أصل الوجود.	- في رأي الحنابلة أن كلام الله مع أنه قديم لكنه ليس كلامًا نفسيًّا بل اسمًا للحروف والأصوات، وعند المعتزلة كلام الله حادث واسم للحرف والصوت.
١٥- السمع والبصر من صفات الله ويرتبط المحسوسات.	
١٦- ليس هناك كثرة في كلام الباري بل هو واحد محض.	- في رأي المعتزلة أن إرادة الإنسان وقدرته هي علة لأفعاله نفسها، ولاغرو فقد جبل الله فيه هذه الإرادة وهي القدرة.
١٧- يمكن أن يكون كلام الله نفسي مسموع.	- عند المعتزلة لكل فعل من أفعال الله غرض.

وهناك عقائد كثيرة أخرى غير تلك العقائد، لكن هذه هي المسائل المهمة ولهذا نكتفي بها، والنوع الثاني من العقائد هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

وهذه العقائد في الغالب تتعلق بتلك الأشياء التي تدخل في عالم الغيب أو الروحانيات مثل وجود الملائكة والحشر والنشر والجنة والنار والصراط والميزان وغيرها، ولأن ذكرها كان في القرآن الكريم لهذا يؤمن بها إجمالا جميع الفرق الإسلامية ولكنهم اختلفوا في تحديد ماهيتها وحقيقتها، فبعض الفرق أخذت المعنى الظاهري للألفاظ كاملا، وبعضها استخدم المجاز والاستعارة، والبعض الآخر لم يؤول الألفاظ الخاصة بل قال هذه الطريقة الوحيدة لتفهيم الروحانيات، ومع أن هذا الاختلاف ذاته كان بمقتضى الفطرة لكن أحد أكبر الأسباب هو أن الإشارة إليها كانت موجودة في القرآن المجيد نفسه، وهذه الآية في القرآن الكريم:

﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ (آل عمران).

وهكذا نشأ الاختلاف حيث اعتبر فريق جملة "والراسخون في العلم" جملة منفصلة ولهذا السبب فإن معنى ذلك أن الآيات مبهمة ولا يعرف تأويلها إلا الله، ويبقى الناس الراسخون في العلم هم فقط يقولون آمنا به، وجملة "والراسخون في العلم" عند فريق آخر جملة غير منفصلة بل معطوفة على الجملة الأولى ومعنى هذا أن الآيات المبهمة لا يعرف تأويلها إلا الله والذين لديهم رسوخ في العلم من الناس ولا أحد غيرهم، وقد قال بالمعنى الأول السيدة عائشة رضي الله عنها، والحسن البصري ومالك بن أنس، وأكثر المتكلمين، وكلتا الروايتين رويتا عن عبد الله بن عباس، ونشأ عن هذا اختلاف آخر يعنى أي الآيات محكمة وأيها مبهم؟ وبناء على هذا ظلت اختلافات عديدة في العقائد المبحوث فيها:

١- هل هذه العقائد المذكورة في الآيات مبهمة أم لا؟

٢- هل نرغب في تأويل ذلك المبهم أم لا؟

٣- لو أردنا التأويل فلماذا؟

ولأن بحث التأويل سيرد في كل موضع فيما بعد؛ لهذا يجب أولا أن نفصل القول في التأويل يعنى ما حقيقة التأويل؟ وهل التأويل غير جائز على الإطلاق أم جائز في مواضع وغير جائز في مواضع أخرى؟ ولو جائز في بعض المواضع فما قاعدة هذا الجواز؟ وإلى أي مدى يعتبر التأويل معيارا للإسلام والكفر؟

حقيقة التأويل

المعنى الأصلي للتأويل في المعاجم هو المرجع والتفسير ويطلقون عليه اصطلاحًا تعبيرًا وتفسيرًا، وتستعمل هذه الكلمة بتلك المعاني كثيرا في القرآن الكريم "سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا"، ولكن معنى التأويل في الاصطلاح العلمي أو التفسيري يعني ترك المعنى اللغوي والظاهري للكلمة وأخذ أي معنى آخر.

وبقدر ما في الإسلام من فرق فإنهم جميعا يجيزون التأويل ما عدا فرقة الحشوية وما ينسب للإمام أحمد بن حنبل أنه كان مخالفا للتأويل ومع ذلك فقد أجاز التأويل كذلك في ثلاثة مواضع. المهم أن الأصل هو جواز التأويل (ماعدا الحشوية) والحديث يدور حول موضع التأويل ومحله، أي أين يجوز وأين لا يجوز؟ وإن فرق المراتب بين الفرق الإسلامية من حيث حب الظاهر وبعد النظر جعل دائرة التأويل محددة وموسعة، ويأتي أهل الظاهر علي قمة التأويل، وفي رأيهم أن التأويل غير جائز في أي موضع. وعلى سبيل المثال جاء في القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾، أو مثلا جاء في القرآن الكريم عندما نريد أن نخلق شيئًا نقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ، فتلك الآيات عند أهل الظاهر المراد منها نفس المعنى اللغوي أي أن السماء والأرض كانتا تقول هذه الكلمات في الواقع، وأن الله يقول كلمة ﴿كُن﴾ في الواقع عند خلق كل شيء وهذا الرأي يقترب من مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري وقد ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى يبسط يديه، وقد ذكر الإمام الأشعري في كتاب الإبانة أن المعنى الأصلي المقصود من تلك الكلمات وليست مجازا أو استعارة.

وأهم أمر في هذا البحث عند أهل الظاهر ومن ثم الأشاعرة ثم الماتريدية فالمعتزلة ثم فلاسفة الإسلام هو ضبط أصول التأويل، أي أن المواضع يكون التأويل فيها جائزا وأي المواضع كون غير جائز، وقد بحث الإمام الغزالي هذا الأمر جيدا في كتابه إحياء العلوم فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ولهذا أترجمه هنا ترجمة حرفية. إحياء العلوم الجزء الأول كتاب قواعد العقائد - الفصل الثاني[1].

رأي الإمام الغزالي في التأويل:

فإن قلت هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وإسرار وبعضها جلي يبدو أولا وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب، وهذا يكاد يكون مخالفًا للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه؟ فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئا وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم: "إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا[2]"، وقال علي رضي الله عنه وأشار إلى صدره "إن ههنا علومًا جمة لو وجدت لها حملة". وقال صلى الله عليه وسلم: "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على

---

(١) ترجم المؤلف هذا البحث ترجمة حرفية وقد رجعت إلى النص الأصلي للبحث وذكرته هنا انظر: إحياء العلوم: ١/٩٣-٩٧ (المترجم).

(٢) حديث (إن القرآن ظاهرا وباطنا..... الحديث) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه. ويرى المؤلف شبلي العثماني أن هذا الحديث غير صحيح (المترجم).

قدر عقولهم[١]"، وقال صلى الله عليه وسلم "ما حدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم[٢]"، وقال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى[٣]"، الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم. وقال صلى الله عليه وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا[٤]"، فليت شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلم يذكره لهم، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾، لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر، وقال أبو هريرة رضي الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثتــه وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقــوم. وقال صلى الله عليه وسلم: ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر في صدره[٥] رضي الله عنه.

ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره، وقال سهل التستري رضي الله عنه: للعالم ثلاثة علوم علم ظاهر يبذ ولأهل الظاهر وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهــره لأحد. وقال بعض العارفيــن:

---

(١) حديث (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم...الحديث)، تقدم في العلم.

(٢) حديث (ما حدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم... الحديث)، تقدم في العلم.

(٣) حديث (إن من العلم كهيئة المكنون...الحديث) تقدم في العلم.

(٤) حديث (لو تعلمــون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)، أخرجاه من حــديث عائشة وأنس رضى الله عنهما.

(٥) حديث (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام....الحديث)، تقدم في العلم.

إفشاء سر الربوبية كفر. وقال بعضهم: للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، وملاك الورع النبوة (مسألة)، فإن قلت: هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فإن الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال للشرع، وهو قول من قال: إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشي بل يكون الخفي والجلي واحدا فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجر إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق"، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشطر الأول من الكتاب وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه، ولكن إذا أنجز الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله. فمن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التي يختص بها المقربون يدركها ولا يشاركهم الأكثرون في عملها ويمتنعون عن إفشائها إليهم.

ترجع إلى خمسة أقسام:

- **القسم الأول:** أن يكون الشيء في نفسه دقيقا تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم ألا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك. وإخفاء سر الروح وكف رسول

الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه[1] من هذا القسم فإن حقيقته بما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه. ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوف لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبي أو للعنين لم يفهمها إلا بمناسبة لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل.

وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه مما هي حاضرة له في الحال أو مما كانت له من قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا في الشرف والكمال فليس في قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرهما من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) حديث (كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح)، أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حيث سأله اليهود عن الروح قال (فأمسك النبي فلم يرد عليهم شيئا...) الحديث.

"لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"(١). وليس المعنى أني أعجز عن التبرير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله، ولذلك قال بعضهم: ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل، وقال الصديق رضي الله عنه: الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله تعالى، ولعل الإشارة إلى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم "إن لله سبحانه وتعالى سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره"(٢).

- **القسم الثاني**: من الخفيات التي تمنع الأنبياء والصديقين عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجعل، وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصي والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق في نفسه وقد أضر سماعه بقوله إذا أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم؟ وقد ألحد ابن الراوندي وطائفة من المخذولين بمثل ذلك. وكذلك سر القدر لو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم، ولو قال قائل: إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده.

(٢) الحديث أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف.

بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ولعلها كانت قريبة في علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعـمال وخربت الدنيا، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثلا لهذا القسم.

- **القسم الثالث:** أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه، كما لو قال قائل: رأيت فلانا يقلد الدر في أعناق الخنازير، فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ، والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه در ولا كان في موضعه خنزير نفطن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس في ذلك، ومن هذا قال الشاعر:

رجلان خياط وآخر حائــك ... متقابلان على السماك الأعــزل

لا زال ينسج ذاك خرقة مدبر ... ويخيط صــاحبه ثيــاب المقبــل

فإنه عبر عن سبب سماوي في الإقبال والإدبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة على النار"(١) وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة، ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمي النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "أما يخشى الذي يرفع

---

(١) يقول الإمام الغزالي عن الحديث...لم أجد له أصلا (المترجم)

رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار[1]"، وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون، ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة، والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى.

إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان. وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلي أو شرعي، أما العقل فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم: "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن" إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا في تفهم تمام الإقتدار، ومن هذا القبيل في كنايته عن الأقتدار قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فإن ظاهره ممتنع إذ قوله ﴿ كُن ﴾ إن كان خطاب للشيء قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين.

ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها وإما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾، الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعني الأودية هي القلوب وإن بعضها احتملت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل. الزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فإنه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث، وفي هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الأخرة من الميزان والصراط وغيرهما وهو بدعة إذا لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (المترجم)

- **القسم الرابع:** أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلماء ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب، والأول كالظاهر والثاني كالباطن، وذلك كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له. فكذلك العلم والإيمان والتصديق، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع بل الإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة، الأول: تصديقه بوجوده قبل وقوعه. والثاني، عند وقوعه والثالث: بعد تصرمه. فإن تحققك بالجوع بعد زواله بخالف التحقق به قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها. ففي هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشرة والسلام.

- **القسم الخامس:** أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه، وهذا كقول القائل: قال الجدار للوتد لم تشقني؟ قال: سل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي؟ فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾. فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لهما حياة وعقلا وفهما للخطاب وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان

﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير. ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾، فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول "سبحان الله"، ليتحقق تسبيحه، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدسا بذاته وشاهدا بوحدانية الله سبحانه كما يقول:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

وكما يقال: هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العمل لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال. وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلي موجد يوجده ويبقيه ويديم أو صافه ويردده في أطواره فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر. ولذلك قال تعالى: ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله، إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة. فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر. وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير وفي الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم: ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾، زعموا أن ذلك كله بلسان الحال. وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه حتى منع تأويل

قوله، "كن فيكون"، حتى سمعت بعض أصحابه يقول، إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قوله صلى الله عليه وسلم: "الحجر الأسود يمين الله في أرضه(١)". وقوله صلى الله عليه وسلم: "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن". وقوله صلى الله عليه وسلم: "إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن(٢)"، ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر. والظن بأحمد بن حنبل رضي الله عنه، أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والنزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسما للباب ورعاية لصلاح الخلق، فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزجر، ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون: أمروها كما جاءت، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميعا بصيرا وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة، ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ الحسية، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويذيب الشحوم، ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب

---

(١) الحديث (الحجر يمين الله في الأرض)، أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه(وأجد نفس ربكم من قبل اليمن).

ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون، وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فيما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه وما خالف أولوه. فأما من يأخذ كمعرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله. والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه. والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة.

في هذا الموضوع الحساس والدقيق بحث الإمام الغزالي المسائل المشتبه فيها والمراد بحثها والتي قسمها إلى خمسة أقسام وحل الكثير من مسائل التأويل ومع هذا ما مقدار أقسام التأويل في هذا البحث خاصة؟ وما شروط جواز التأويل؟ وما ترتيب تلك الأقسام كامل لهذا من الضروري ذكره هنا في هذ الموضع.

يذكر الغزالي أن الأشياء موجودة في خمسة أقسام هي:

١- **الوجود الذاتي**: أي الوجود الحقيقي مثل وجود السماء والأرض.

٢- **الوجود الحسي**: أي الوجود الخاص فقط بصاحب الحسن، مثل أحداث الحلم والرؤيا أو مثلا ما يتراءى لبعض المرضى من صور في حالة اليقظة، وما يتمثل للأنبياء من صور الملائكة ويدرجهم الإمام الغزالي في هذا القسم أيضا ولهذا يكتب تحت هذا القسم: "بل قد يتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة صور جميلة محاكية لجواهر الملائكة وينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها فيتلقون من أمر الغيب ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال الله تعالى فتمثل لها بشرا سويا وكما أنه صلى الله عليه وسلم رأي جبريل كثيرا".

٣- **الوجود الخيالي:** أي وجود عقلي.

٤- **الوجود العقلي:** مثلما نقول إن هذا الشيء في يدنا والمراد من هذا أنه في حوزتنا وفي قدرتنا، فوجود هذه اليد وجود عقلي لأن المعنى الأصلي لليد هو القوة والمقدرة.

٥- **الوجود الشبهي:** أي أن الشيء نفسه غير موجود ولكن يوجد شيء مشابه له وقد ضرب الإمام الغزالي مثلا على هذا فيما بعد بغضب الله وغيره، لأن المعنى الأصلي للغضب هو فوران الدم في القلب. ومن الطبيعي أن الله أسمى وأعظم من هذه الأشياء لكن مثل هذه الصفة موجودة عند الله وهي تشبه الغضب.

وبعد بيان تلك الأقسام يقول الإمام الغزالي: "أعلم أن كل من نزل قولا من أقوال الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين وإنما التكذيب أن ينفي جميع هذه المعاني".

بعد ذلك أخبرنا الإمام الغزالي بترتيب تلك المراتب أي بالشيء الذي ذكر في القرآن أو الحديث، أولا يجب الإيمان بوجوده الذاتي، ولو يثبت بأي دليل أنه لا يمكن أن يكون لهذا الشيء وجود ذاتي فيكون حسيًا، ثم خياليًا، ثم عقليًا، ثم شبهيًا بعد ذلك ذكر أمثلة على تلك المراتب وقال: لا مفر لأي فرقة من التأويل مثلا ورد في الأحاديث أن الأعمال ستوزن ولأن الأعمال عرض ولا يمكن وزن العرض لهذا أولتها كل فرقة وقد أولها الأشعري فقال لن توزن الأعمال بل ستوزن أوراق الأعمال، وقالت المعتزلة المقصود من الوزن الحساب وليس الميزان الحقيقي.

إن الأقسام التي أقرها الإمام الغزالي وبين حقيقتها تعد حكما مؤكدا في مسألة التأويل ولهذا السبب فإن جميع المتأخرين مثل الإمام الرازي فيه، وقد ارتكبت آلاف الأخطاء منذ عهد الإمام الغزالي وحتى اليوم وجميعها بسببه،

وأحد أصول التأويل التي أقرها الإمام الغزالي هي: عندما يوجد دليل قطعي على هذا الأمر لا يمكن أن يكون المراد منه المعنى الظاهري مع ذلك يجب الرجوع إلى المعاني الأخرى، هذه الأصول في حد ذاتها صحيحة كليا لكن كلمة "الدليل القطعي" تحتاج إلى شرح، وهذه الكلمة التي أُسِيء فهمها قامت عليها سلسلة من آلاف الأخطاء.

وقد أقر كل من الإمام الغزالي والإمام الرازي وغيرهما المعنى للدليل القطعي عندما يكون الوجود الذاتي مقصودا منه المعنى الظاهري ويلزمه أي محال فيجب التأويل وعند استعمال كلمة محال فإنها تطلق كذلك على المحال العادي بل المستبعدات ولكن الإمام الغزالي يقيدها بالمحال العقلي وبناء على هذا فإن أصول التأويل تستقر عندما يقصد بالمعنى الظاهري لزوم المحال العقلي، ومع ذلك ينبغي التأويل وبناء على هذا يقول الإمام الغزالي أن منكر حشر الأجساد كافر لأنه يرى أن بعث الأجسام وإحياءها يوم القيامة ليس محالا عقليا ولهذا لا حاجة لأي تأويل.

قبل كل شيء يجب معرفة إلي أي مدي التزم بهذا الإمام الغزالي وبقية أئمة علم الكلام الآخرين، ففي كتاب الإمام الغزالي (فيصل التفرقة)، يقر أن وجود جبريل عليه السلام لما تراءى للسيدة مريم لم يكن وجودا ذاتيا، مع أنه يرى أن الوجود الذاتي لجبريل ممكن بل شيء قابل للوقوع، وتسبيح الجمادات الذي ورد في القرآن الكريم لا يحمله الإمام الغزالي على المعنى الأصلي بل بإقراره بلسان الحال رغم أن تسبيح الجمادات عند الغزالي لا تندرج ضمن المحالات العقلية، وفي القرآن الكريم عندما يريد الله تعالى خلق أي شيء فإنه يقول: كن فيكون، لا يحملها الإمام الغزالي على المعنى الأصلي بل يقر أنها من لسان الحال مع أن قول الله هذا ليس أمرا محالا، وهناك آلاف الأمثلة من هذا القسم لا يمكن حصرها.

والآن يجب أن نرى هذه الأصول في حد ذاتها ومدى صحتها، فنحن عندما ننسب لشخص ما صفة نقول هو منبسط اليد فهل المقصود من تلك الألفاظ المعنى

الأصلي؟ وأنه لازم لا محالة، وهل من المستحيل على هذا الشخص أن تكون يديه مفتوحة حقا؟ بالرغم من هذا لا يقصد أي شخص المعنى الأصلي لتلك الألفاظ بل تعبر عن مفهوم الكرم والسخاء، ففي كل لغة مئات من المجازات، فهل جميع تلك المجازات يراد بها المعنى الحقيقي وتستلزم أي محال؟

بعد بحث تلك المسائل يبقى البحث في المحال، فالمحال العقلي نفسه يحتاج إلى بحث فشخص ما يعتبر الشيء محالا والشخص الثاني لا يعتبره كذلك، فعندما يقول إن الله ذو جهة فإنها عند الإمام الغزالي محال، وعند الحنابلة ممكن، وعندما يجسم الموت يصير كبشا، يقول الأشاعرة هذا محال، وهو عند كثير من المحدثين ممكن. وقد اعتني الإمام الغزالي بهذا البحث وبناء على هذا لم يكفر الحنابلة في الأشياء التي يؤمنون بها مثل: الله ذو جهة، وذو إشارة مع أنها في حد ذاتها محال ولكن لأنها في رأيهم ليست محالا فلهذا هم معذورون، ولا شك أن هذا سخاء وتسامح من الإمام الغزالي ولكن لماذا هذا السخاء محدود فقط بالحنابلة، ففي رأي فلاسفة الإسلام أن إعادة المعدوم محال عقلا لهذا لم يقولوا بحشر الأجساد فلماذا يكفرهم الإمام الغزالي؟

إن الفهم الخاطئ لهذه المسألة أسس دعائم الأوهام، فالمعاني التي استخدمها الإمام الغـــزالي والإمام الرازي وغيرهما للمحال العقلـــي قد انطبق على شــــيء أو شيئين فقط وجميع الأشياء الباقية كانت ممكنة، ولهذا التزم بالمعنى الظاهري في كل موضع وبناء على هذا صدرت آلاف الآراء والأقوال غير المفيدة، وتتسع هذه الدائرة وتتطور باستمرار، ففي الروايات أن "الشمس تذهب كل يوم وتسجد تحت العرش" و"السماء ينبعث منها صوت من ثقل ما تنوء به من حمل الملائكة"، و"عندما خلق الله آدم من الأزل جعل له ضلعا أيسر خلق منه السيدة حواء" و"خلق الله جميع أولاد آدم من ظهره منذ الأزل ثم شهدوا على وحدانيته ثم أعادهم إلى ظهره مرة ثانية"، و"أخذ السامري حفنة من تراب ظلف فرس سيدنا جبريل وصنع

من الطين عجلا ثم وضع ذلك التراب في بطنه ومن أثر ذلك بدأ العجل يتكلم"، وغيرها فالمقصود من المعنى الظاهري لتك الأحداث جميعا عند الأشاعرة أنها لا تلزم المحال العقلي، لهذا يفهم منها المعنى الظاهري.

هذا التفسير للمحال العقلي هو الذي جعل جميع المسلمين في الوقت الحاضر يبتلون بالوهم وحب الوهم، فيأتي شخص ويقول إن الصوفي فلان جعل جميع ماء النهر لبنا، والمجذوب فلان سلخ جلد جسمه ثم أعاده، والشيخ الفلاني أحيى مئات الموتى، ولأن جميع هذه الأحداث ليست محالة طبقا لتفسير الأشاعرة لهذا ليس من الضروري إجراء أي نوع من التحقيق والنقد فيما يتعلق بالراوي بل يتسلم بما يقول، فما الاستحالة في هذا؟ ولو لم يكن هناك استحالة فما سبب عدم الاعتقاد بها؟

الأصل هو أن القرآن الكريم بالرغم من أنه كلام الله لكنه نزل بلغة العرب لهذا تتوفر فيه جميع خصائص اللغة العربية ويحتوي كذلك على جميع المجازات والاستعارات والتشبيهات التي تتماشى مع الأسلوب العام للغة العربية.

وليس من الضروري للمجازات والاستعارات أن تلزم أي استحالة في المراد الأصلي للمعنى، فمعنى "حمالة الحطب" هو جمع الحطب لكن تطلق كذلك على النمام والمغتاب وقد وصف القرآن الكريم زوجة أبي لهب بأنها حمالة الحطب ومن الممكن أن يكون هذا هو المفهوم الأصلي للمعنى ولكن أهل اللغة يستعملونه بمعنى نمام ومغتاب، وبناء علي هذا لا نقول علي أي شخص أنه كافر أو ضال بل إنه بلا سبب خالف المعنى الأصلي.

ولا يلزم لمخالفة المعنى الظاهري أن يكون هدفه المحال العقلي، بل إن سياق الكلام وطريقة الاستعمال في أكثر المواضع تنبئ بأن المعنى الأصلي ليس هو المقصود لقد جاء في القرآن قلنا للسماء والأرض آتيا طوعا أو كرها فيجب عليكما الحضور فكلاهما قال نأتي طائعين، هنا أسلوب الكلام نفسه يبين أن إظهار القدرة الكاملة تم بأسلوب واحد.

وبعـــض المواضــــع لا يدل على سياق الكـــلام، ولكن المقصـــود بالمعنى الظاهـــري مستبعد تماما وبعيـــد عن المراد وتوهم للمعنـــى، ولهذا يؤخـــذ المعنـــى المجازي.

والنقطة المهمة الأخرى الجديرة بالذكر هي المسائل التي يطلق عليها تأويل لأن إطلاق كلمة تأويل عليها في الحقيقة غير صائب، فقد استقر الرأي على أن معنى التأويل هو اختيار المعنى الثاني وترك المعنى الظاهري، ولكن تعبير المعنى الظاهري تعبير خاطئ؛ لأن التعبيرات الشائعة تدخل ضمن المعنى الظاهري ولكن الناس يطلقون عليه تأويلا، وطبقا لما تفسره معاجم اللغة فإنها في الأصل كلمة واحدة يقابلها معنى واحد ثم يشتق منها معاني أخرى كثيرة من حيث التناسب والصلة. فمثلا المعنى الأصلي لكلمة: "إخبات" هو الانحطاط والاضمحلال لكن يطلق عليها كذلك تواضع وانكسار، ومن هذه الناحية يطلقـــون عليها تواضعًا، ومـــثل ذلك "بستي مين آنا" والمعنـــى الأصلي لها طرح الشيء وقذفـــه أو رميه، ثم أصبح معناه ما يقذف من اللسان وهذه المعاني في الحقيقة معانٍ من الدرجة الثانية ويطلقون عليها في اللغة الانجليزية معاني ثانوية، وقد أدخلت جميع المعاني ضمن هذا النوع في المعاجم وأقروها معاني أصلية، ففي اللغة العربية التي تحمل فيها الكلمة عشرات المعاني المعنى الأصلي فيها في الحقيقة واحد ولكن يشتق منه معاني أخرى مناسبة وقد استقر الرأي عليها جميعا لمعاني أصلية، وإلا لو حصرت في نطاق المعنى الأصلي فقط لأنقصت ضخامة المعاجم إلى النصف بل إلى الربع.

وبناء على هذا فإن الشيء الذي يطلقون عليه "تأويل" هو ليس تأويلا لأن المعاني المستعملة فيه هي معانٍ ظاهرية.

وخلاصة الأمر أن الأمور التي تبدو جديرة بالبحث في الظاهر من وجهة نظر الشرع لها صور وأشكال متعددة وبعض مثل هذه الأمور بعيد عن الفهم العام ويمكن أن يحدد لها فكرة إجمالية ومختصرة لبيانها بطرقة التشبيه والتمثيل لإظهار حقائقها.

وبعض هذه الأمور ليس دقيقا بهذا القدر ولكن إظهار حقيقتها مضر في حق جمهور العوام، وبعضها لو عرض بطرقة واضحة وسلسة يمكن أن يرسخ في الإفهام ولكن بأسلوب التشبيه والاستعارة والهدف من بيانه أن يكون أكثر تأثيرا وأوقع في النفس، مثلا القدرة الكاملة لله تعالي تؤدى بكلمات عندما يريد خلق أي شيء يقول له "كن فيكون"، يذكر الإمام الغزالي بعد بيان هذه الصورة "أن أكثر الناس يدرجون أحداث القيامة مثل الميزان والجسر والصراط وغيرها ضمن هذا القسم لكن هذه بدعة لأن المقصود من المعنى الظاهري لا تلزمه أي استحالة".

لكن يجب أن نذكر هنا أن رأي الإمام الغزالي هذا خاص بالكتب الكلامية وإحياء العلوم لأنه يري نفس الرأي فيما يتعلق بأحداث القيامة في كتابيه "جواهر القرآن" و"المضنون"، وغيرهما وستأتي التفاصيل فيما بعد.

وفي بعض المواضع يؤدي الحال بلسان القال مثل تسبيح الجمادات.

ونتيجة لاختلاف تلك الأقسام بأنه عند ذكر وجود شيء يقصد بذلك الوجود فليس من الضروري أن يراد به وجوده الخارجي بل من الممكن أن يقصد بذلك الوجود الحسي أو الخيالي أو العقلي أو الشبهي مثلما بين الإمام الغزالي بالتفصيل.

وبعد هذا التمهيد ندخل الآن في صلب الموضوع

الروحانيات أو غير المحسوسات:

الملائكة والوحي وأحداث يوم القيامة وغيرها.

لما كانت جميع هذه الأشياء مذكورة في القرآن الكريم لذا الإيمان بها واجب ومن شروط الإسلام ولهذا فإن جميع هذه العقائد مسلم بها لدى جميع الفرق الإسلامية إجمالا ولكن لأن كيفيتها وتفاصيلها؛ لم يذكر في القرآن لهذا فسرتها الفرق المختلفة بطرق مختلفة.

وتزعم فرقة الأشاعرة أنه ليس من الضروري لوجود الشيء أن يظهر ويتراءى لنا، وبناء على هذا من الممكن وجود جميع هذه الأشياء دون أن يظهر للعيان. وقد جاء في بحث رؤية الباري في كتاب "شرح المواقف": "لا تسلم وجوب الرؤية عند اجتماع الشروط الثمانية".

هذا الزعم كم هو غريب عجيب، والدليل عليه أكثر عجبا:

"لأنا نرى الجسم الكبير من البعيد صغيرا وما ذلك إلا لأنا نرى بعض أجزائه دون البعض مع تساوي الكل في حصول الشرائط".

هذه الاحتمالات والاستدلالات الطفولية جعلت شعوبنا في العصر الحاضر يعتقدون عشرات من المعتقدات العقيمة.

ولكن فيما عدا الأشاعرة الظاهريين كيف يمكن للناس الآخرين أن يعتقدوا في هذا النوع من الأفكار العقيمة وغير المفيدة، وقد اهتم كل من الإمام الغزالي وشيخ الإشراق وشاه ولي الله وغير هم من المحققين بالحقيقة الأهلية وحلوا هذه العقدة ومذهب هؤلاء العلماء هو أن الأشياء التي ذكرت في الشريعة تنقسم إلى قسمين:

هما: محسوسات عامة ومحسوسات غير عامة، فالرؤية والإحساس والتجربة جميع هذه الأشياء تتعلق فقط بالمحسوسات العامة، وليست هناك واسطة بين تلك الأشياء وغير المحسوسات لكن مع كل هذا فإن المحسوسات تعد حقائق موجودة لأنه ليس من الضروري أن يكون الشيء الموجود في الخارج أو المحسوسات غير عام أو شائع ولا يكون في الواقع كذلك لأن الواقعية غير محدودة بالوجود الخارجي. ولكن لأنه في النهاية وجود أي نوع ضروري ولازم للحقائق الواقعية لهذا سماه علماء الإسلام بأسماء مختلفة.

ويعبر الإمام الغزالي عن هذا الوجود بالوجود الحسي ومدحه وأثني عليه مثلما نقلنا عبارته الأصلية في بحث التأويل، يذكر أن هذا الوجود يتعلق فقط بحاسة الشخص الخاصة.

أما صورة الملائكة التي تراءت للأنبياء مثل رؤية الرسول صلي الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام، ورؤية السيدة مريم لجبريل كذلك يدخلها الإمام الغزالي جميعا تحت هذا الوجـــود، وهكذا ننقل هنا العبارة الأصلية الإمام الغزالي فـــي بحث التأويل.

وفي بحثه عن المعجزات في كتابه "المضنون به على غير أهله" عبر الإمام الغزالي عن هذا الوجود باسم الوجود الخيالي فيقول: (إن لسان الحال يصير مشاهدا محسوسا على سبيل التمثيل وهذه خاصية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما أن لسان الحال يتمثل في المنام لغير الأنبياء ويسمعون صوتا وكلاما فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرون ذلك في اليقظة وتخاطبهم هذه الأشياء في اليقظة).

وقد أقر الإمام الغزالي كذلك أحداث القبر ضمن أحداث ذلك العالم، وقد نقلنا العبارة الأصلية للإمام الغزالي.

مذهب شيخ الإشراق:

في مذهب شيخ الإشراق أن هناك عالما آخر غير عالم المحسوسات يطلق عليه اسم عالم الأشباح أو عالم المثل، واستدلاله على ذلك هو أن الصور التي تتراءى في المرآة أو في القوة المتخيلة هي في الحقيقة غير موجودة في المرآة وفي القوة المتخيلة بل إن لهذه الأشياء آلة لظهورها ولما كان هذا الأمر لا يمكن إنكاره وهو أن هذه الأشياء واقعية لهذا من الضروري أن يسلم بعالم الأشباح والأمثال حيث إنها الوجود الأصلي لتلك الصور، ويعتبر شيخ الإشراق أن الجن

والشياطين ضمن ذلك العالم، وفي رأيه أن حشر الأجساد والجنة والنار وغيرها ووجودهم جميعا يدخل ضمن هذا القسم؛ ولهذا يذكر عالم الأشباح في حكمة الإشراق فيقول: "وبه تحقق بعث الأجساد والأشباح الربانية وجميع مواعيد النبوة". ثم يذكر في موضع آخر من هذا الكتاب: "وما يسمع المكاشفون كالأنبياء[1] والأولياء من الأصوات الهائلة لا يجوز أن يقال أنه تموج هواء في دماغ فإن الهواء تموجه بتلك القوة لمصاكة الدماغ لا يتصور بل هو مثال الصوت أي الموجود في عالم المثال".

وفي موضع آخر يقول: "وما يتلقى الأنبياء والأولياء وغيرهم من المغيبات فإنها قد ترد عليهم في أسطر مكتوبة، وقد ترد لسماع صوت قد يكون لذيذًا أو قد يكون هائلا وقد يشاهدون صور الكائنات وقد يرون صورا حسنة إنسانية تخاطبهم في غاية الحسن فتناجيهم بالغيب، وقد يرى الصور التي تخاطب كالتماثيل الصناعية في غاية اللطف وقد ترد عليهم في خطرة، وقد يرون مثلا معلقة وجميع ما يرى في المنام من الجبال والبحور والأرضين والأصوات العظيمة والأشخاص كل مثل قائمة".

رأي شاه ولي الله:

أسهب شاه ولي الله في تناول هذا البحث ونقل تلك النصوص التي ذكرت هذا القسم من الموجودات بالتفصيل، ثم كتب أن الشخص الذي سوف يلقى نظرة على تلك النصوص سيضطر إلى تبنى رأي من ثلاثة آراء إما أن يسلم بأن هناك عالمًا مثال علاوة على المحسوسات (يذكر شاه ولي الله عالم المثال هذا وفقا لأصول المحدثين)، أو أن يقول بهذا الرأي وهو أن هذه النظرة خاصة بذلك الرجل ولو أن وجودها خارج عن حواسه، أو يبين هذه الوقائع والأحداث بشكل تمثيلي.

---

(١) الجملة التفسيرية التي في هذه العبارة هي شرح لحكمة الإشراق.

وبعد كتابة تلك الاحتمالات يقول شاه ولي الله: إن الشخص الذي يقتنع بالاحتمال الثالث فقط لا يعتبر من أهل الحق وقد أقر شاه ولي الله ببطلان الاحتمال الثالث بينما يسلم علماؤنا بالاحتمالين الأولين وبالتالي تطوى مرحلة كبيرة وتتغوه الفلسفة قائلة بلسان الحال: شكرا لله الذي أصلح بيني وبين سيدي.

على كل حال ننقل العبارة الكاملة لشاه ولي الله: باب ذكر عالم المثـــال "اعلم أنه دلت أحاديث كثيرة على أن في الوجود عالما غير عنصري يتمثل فيه المعاني بأجسام مناسبة لها في الصفة ويتحقق هنالك الأشياء قبل وجودها في الأرض نحوا من التحقق، فإذا وجدت كانت هي هي بمعنى من معاني هو هو وإن كثيرا من الأشياء مما لا جسم لها عند العامة تنقل وتنزل ولا يراها جميع الناس، قال النبي صلي الله عليه وسلم: لما خلق الله الرحم قامت فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة، وقال: إن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف تحاجان من أهلهما، وقال: تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة ثم تجيء الصدقة ثم تجيء الصيام.. الحديث، وقال إن المعروف والمنكر لخليقتان تنصبان للناس يوم القيامة فأما المعروف فيبشر أهله وأما المنكر فيقول إليكم إليكم ولا يستطيعون له إلا لزوما، وقال: إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة كهيأتها ويبعث الجمعة زهراء منيرة، وقال: يؤتي بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها مشوه خلقها وقال: هل ترون ما أرى فأني لا أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر، وقال في حديث الإسراء: فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ما هذا يا جبريل قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات، وقال في حديث صلاة الكسوف: صورت لي الجنة والنار وفي لفظ بيني وبين جدار القبلة وفيه أنه بسط يده ليتناول عنقودا من الجنة وأنه تكعكع من النار ونفخ من حرها ورأى فيها سارق الحجيج والمرأة التي ربطت الهرة حتى ماتت رأى في الجنة امرأة مومسة سقت الكلب ومعلوم أن تلك المسافة لا تسع للجنة والنار بأجسادهما المعلومة عند العامة، وقال: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ثم أمر جبريل أن ينظر إليها،

وقال: ينزل البلاء فيعالجها الدعاء، وقال: خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل، وقال: له أدبر فأدبر، وقال: هذان كتابان من رب العالمين الحديث، وقال: يؤتي بالموت كأنه كبش فيذبح بين الجنة والنار، وقال تعالي فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، واستفاض في الحديث أن جبريل كان يظهر للنبي صلى الله عليه وسلم ويتراءى له فيكلمه ولا يراه سائر الناس، وأن القبر يفسح سبعين ذراعا في سبعين أو يضم حتى تختلف أضلاع المقبور وأن الملائكة تنزل على المقبور فتسأله وأن عمله يتمثل له وأن الملائكة تنزل إلى المحتضر بأيديهم الحرير أو المسح، وأن الملائكة تضرب المقبور بمطرقة من حديد فيصيح صيحة يسمعها ما بين المشرق والمغرب، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ليسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنينا تنهسه وتلدغه حتى تقوم الساعة، وقال: إذا دخل الميت القبر مثلت له الشمس عند غروبها فيجلس يمسح عينيه ويقول دعوني أصلي واستفاض في الحديث إن الله تعالى يتجلى بصور كثيرة لأهل الموقف وإن النبي صلى الله عليه وسلم يدخل على ربه وهو على كرسي وإن الله تعالى يكلم ابن آدم شفاها إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة.

والناظر في هذه الأحاديث بين إحدى ثلاث إما أن يقر بظاهرها فيضطر إلى إثبات عالم ذكرنا شأنه وهذه هي التي يقتضيها قاعدة أهل الحديث، نبه على ذلك السيوطي رحمه الله تعالى وبها أقول وإليها أذهب، أو يقول إن هذه الوقائع تتراءى لحس الرائي وتتمثل له في بصره وإن لم تكن خارج حسه وقال بنظير ذلك عبد الله بن مسعود في قوله تعالى يوم تأتي السماء بدخان مبين أنهم أصابهم جدب فكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجوع ويذكر عن ابن الماجشون إن كل حديث جاء في التنقل والرؤية في المحشر فمعناه أنه يغير أبصار خلقه فيرونه نازلا متجليا ويناجي خلقه ويخاطبهم وهو غير متغير عن عظمته ولا متنقل ليعلموا أن الله على كل شيء قدير أو يجعلها تمثيلا لتفهم معان أخرى ولست أرى المقتصر على الثالثة من أهل الحق".

ويقول شاه ولي الله بعالم آخر، وأقر أنه يتوسط بين عالم المثال وعالم المحسوسات وسماه البرزخ، وهكذا فإن الوحي والرؤية والملائكة والمعراج النبوى والبراق وسدرة المنتهى وأنهار الجنة وغيرها من الأحدث جميعا تم تفسيرها بناء على هذا العالم، وعندما كتب شاه ولي الله سيرة الرسول في كتابه "حجة الله البالغة"، نقل هذا الحديث عن الوحي أولا: "كان الوحي على الرسول أحيانا هكذا كأنه يسمع صلصلة الساعة وأحيانا كانت الملائكة تتراءى له بشكل مجسم ثم بين هذه الحقيقة هكذا:

أما الصلصة فحقيقتها أن الحواس إذا صادمها تأثير قوى تشوشت فتشويش قوة البصر أن يرى ألوان الحمرة والصفرة والهمهمة فإذا تم الأثر حصل العلم وأما التمثل فهو في موطن يجمع بعض أحكام المثال والشهادة؛ ولذلك كان يرى الملك بعضهم دون بعض".

ثم يقول فيما يتعلق بالمعراج: "وكل ذلك لجسده صلى الله عليه وسلم في اليقظة، ولكن ذلك في موطن هو برزخ بين المثال والشهادة جامع لأحكامهما فظهر على الجسد أحكام الروح وتمثل الروح والمعاني الروحية أجسادا؛ ولذلك بأن لكل واقعة من تلك الوقائع تعبيرًا وقد ظهر لحزقيل وموسى وغيرهم عليهم السلام نحو من تلك الوقائع وكذلك لأولياء الأمة".

وبعد ذلك قدم شاه ولي الله شرحا لتلك الأصول مثل البراق ولقاء الأنبياء، وعروج الأفلاك وسدرة المنتهى والبيت المعمور وغيرها.

مع أن تقرير شاه ولي الله تقرير فلسفي محض لكنه به خلط إلى حد ما فقد وسع من نطاق كل من عالم المثال والبرزخ إلى هذا الحد لدرجة أنه أدخل المجازات والاستعارات أيضا في عالم المثال فمثلا في الحديث سيأتي الموت يوم القيامة على هيئة كبش وسيذبح فسره بطريقة واحدة فقط يتضح منها أن المقصود هو أنه لا موت ما بعد الموت، وأقر شاه ولي الله واقعة عالم المثال.

الأمور المخالفة للعقل في الشريعة وأقسامها

لعل هناك قدرًا مشتركًا في بيان كل من الإمام الغزالي وشيخ الإشراق وشاه ولي الله لو تجاوزنا عن التفاوت الجزئي فيما بينهم ونجد عندهم الأمور المخالفة للعقل في الشريعة وأقسامها كما يلي:

١- أكثر المواضع مجرد مجازات واستعارات مثل تسبيح الجمادات، وخطاب السماء والأرض وجوابهما، وإقرار بني آدم من الأزل وتمكن الله على العرش وغيرها.

٢- أداء الروحانيات على شكل جسمانيات وهذه الطريقة يشترك فيها جميع الأديان والمذاهب والإنسان يستطيع فقط تصور تلك الأشياء التي تشعر بها حواسه، ولهذا عند بيان تلك الأحداث المتعلقة بالحياة المستقبلية وتصورها الأسمى فتؤدي حتما بأسلوب الجسمانيات فمثلا الراحة والألم بعد الموت لا يمكن أن يعبر عنها إلا بالحدائق والأنهار والتنين والثعبان ويالها من طريقة، ومع أن العلامة ابن تيمية ظاهري لكنه يسلم بها أيضا، يقول: "ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بما وعدنا به في الدار الآخرة من النعم والعذاب وأخبرنا بما يوكل ويشرب وينكح ويفرش وغير ذلك فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا لم يفهم ما وعدنا به، ونحن نعلم مع ذلك أن تلك الحقائق ليست مثل هذه حتى قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء"(١).

---

(١) ابن تيمية: رسالة شرح حديث النزول.

مولانا جلال الدين الرومى وهو من هو العالم بأسرار الشرعة بين هذا الموضوع في مواضع مختلفة من خلال أمثلة رائعة يقول في أحد المواضع:

- ولا يعرف أحد مطلقا ماهيات أوصاف الكمال، اللهم إلا بالآثار والمثال.
- كالطفل لا يعرف ماهية الطمث، إلا أن تقول له أنه كالحلوى بالنسبة لك.
- والطفل يجهل وطء المرأة، إلا أن تقول له أنه طيب كالسكر.
- ومتى تكون ماهية لذة الجماع، مثل الحلوى أيها السيد المطاع.
- لكن ذلك العاقل مثل لك المتعة، مادمت كالطفل(١).

ويكتب في موضع آخر عندما يريد أي أستاذ تعليم طفل ما فإنه يتحدث إليه بكلام الأطفال ولهذا يقول:

- ومن أجل الطفل الصغير يقوم الأب بالمناجاة، وإن كان عقله محتويا على هندسه الكون.
- ولا يقل فضل الأستاذ ولا ينال من علوه، حتى إن درس "الألف لا شيء عليها"(٢).
- فإنه من أجل تعليم ذلك المعقود الفم، يقول له "أبجد هوز حطي كلمن".
- وينبغي عليه الدخول في لسانه، وينبغي عليه الخروج عن لغته هو(٣).

---

(١) انظر الترجمة العربية للمشنوى المعنوى الجزء الثالث (المترجم).
(٢) أي أن الألف خال بينما الباء في وسطها نقطة.
(٣) انظر الترجمة العربية للمثنوى المعنوى الجزء الثاني (المترجم).

ويقول في موضع آخر[١]:

- مادمت أتعامـــل مع طفـــل، فينبغي علـــى، أن أطلـــق لســـان الأطفال (وأتحدث بلغتهم).

- قائـــلا: هيا، اذهب إلى الكتاب واشتـــر لك طيرا وآتيك بالزبيب والجوز والفسدق.

٣- الروحانيات أو المعاني التي يشعر الأنبياء بها بشكل جسماني وهذا الشيء هو الذي يعبر عنه شاه ولي الله وشيخ الإشراق بعالم المثال وعالم الأشباح، ويطلق الإمام الغزالي عليها اسم التمثيل الخيالي، ولأن هذه الصورة كثيرة الوقوع، ولأن الملاحدة يعترضون عليها أكثر لهذا نذكرها بمزيد من الإيضاح والتفصيل.

بادئ ذي بدء من الواضح أن العلوم الحديثة والفلسفة المعاصرة لم يرد فيها أي اعتراض على هذا الاحتمال، فحقيقة التمثيل الخيالي التي بينها الإمام الغزالي هي أن "المعاني تبدو متمثلة ويسمع أصواتها وأحاديثها كما ترد في الأحلام، ولا يمكن لأحد إنكار حالة الحلم، والآن يجب إمعان النظر في كيفية حدوث هذه الحالة في الحلم وسببها فقط أن الحواس الظاهرية تتعطل في الحلم، وأن الروح أو النفس أو القوة المتخيلة تمارس عملها فقط، والآن لو طرأت على أي شخص حالة الحلم في اليقظة بسبب الاستغراق والذهول في بعض الأوقات فإنه يشعر بهذا النوع من الأمـــور ولا يعـــد ذلك شيئا مثيرا للتعجب، وهذه المحســـوسات لا تطلق عليها محسوســـات عامة من الضروري على الآخرين الإحساس بها بل هي خاصة بحواس خاصة الأنبياء والأولياء وفي هذه الحالة ليس من الضروري الإحساس بتلك الأمور بشكل عام".

---

(١) انظر: الترجمة العربية للمثنوى المعنوى الجزء الرابع (المترجم).

وقد وضح مولانا جلال الدين الرومي تلك الفكرة بهذه الكلمات:

- والمتفلسف المنكر لأنين الجذع الحنان، هو غريبٌ عن حواس الأنبياء

- ونطق المـــاء ونطـــق التراب ونطـــق الطين، كلهـــا محسوسة بحواس أهل القلب.

وقد أسهب الإمام الغزالي وباقي المتكلمين في هذا البحث، ولما كانت هذه المسألة حساسة وصورة الحقيقة الأصلية تتبدل لو حدث تغير طفيف لذا أنقل هنا العبارات الأصلية لهؤلاء المحققين وأكتفي بترجمتها فقط: مقاصد المراصد(١).

في الرؤيا والوحي والإلهامات والمخبرات والكرامات على رأي الحكماء(٢):

"واعلم أن الإنسان له قوة يجتمع فيها صور المحسوسات لأنه يحكم على هذا الحلو بأنه أبيض ولو لم يكن له قوة يجتمع فيها هذه المحسوسات لاستحال هذا الحكم بدون حضور المحكوم عليه والمحكوم به ويسمى هذه القوة بالحس المشترك وينطبع فيها صور المحسوسات بطريقين، أحدهما أن الحواس الظاهرة التي هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس تأخذ صورة المحسوسات وتؤديها إلى الحس المشترك، والثاني أن في الدماغ قوة متخيلة من شأنها تركيب الصور وتفصيلها وهي التي تركب رأسين على بدن إنسان حتى يتحصل صورة إنسان ذي رأسين، وتفصل رأس الإنسان عن بدنه حتى يحصل تصور إنسان عديم الرأس، وهذه إذا ركبت من الصور ووردت على الحس المشترك تصير مشاهدة بحسب مشاهدة الصور الخارجيـــة لأن الصور التي في الخارج لم تكن مشاهدة لكونها خارجيـــة

---

(١) العبارة التي نقلتها هنا نقلا عن سفينة راغب باشا، ارجع للكتاب المذكور ص: ١١٦.

(٢) المقصود فلاسفة الإسلام.

بل لكونها منطبقة في الحس المشترك فتلك الصور التي ركبتها إذا وردت على الحس المشترك صارت مشاهدة، وإذا ثبت هذا فنقول: إن الصور التي يراها النائمون إما أن تكون موجودة في الخارج أولا والأول باطل وإلا لرآها كل من كان سليم الحس وحيث لم يرها دل على أنها من تركيب القوة المتخيلة وهذه القوة لو خليت وطبعها لصدر هذا الفعل دائما، وإنما لا يصدر منها هذا الفعل لأمرين أحدهما اشتغال الحس المشترك بالصور الواردة عليه من خارج، والثاني تسلط النفس الناطقة عليها بضبط فإذ أزال المانعان أو أحدهما صدر منها هذا الفعل، والمانع الأول يزول بالنوم فإن الحواس إذا تعطلت بالنوم بقي الحس المشترك خاليا عن الصور الواردة عليه من خارج والمانع الثاني يزول بالمرض فإن النفس في حالة المرض تكون مشغولة بجهة فتسلط المتخيلة على تركيب الصور وتنطبع تلك الصور في الحس المشترك فتصير مشاهدة".

- **أما الوحي الإلهام:** "فالنفس الناطقة إذا كانت قوية بحيث لم يكن اشتغالها بالبدن مانعا من الاتصال بالمبادئ القدسية وكانت المتخيلة قوية بحيث تقوى على استخلاص الحس المشترك عن الحواس الظاهرة اتصلت حالة اليقظة بالعقول المجردة والنفوس السماوية وحصل لها إدراك المغيبات على وجه كلي ثم المتخيلة تحاكيها بصورة جنزئية مناسبة لها تنزل إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة محسوسة وقد يعرض بعضهم أن يسمع كلاما منظوما أو يشاهد منظرا بهيا يخاطبه بكلام منظوم فيما يتعلق بأحواله وأحوال من يقرب منه".

حقيقة الوحي في كتاب معارج القدس للإمام الغزالي:

كتب الإمام الغزالي موضوعا بسيطا بعنوان "النبوة" في كتابه "معارج القدس" تناول في أحد فصوله خواص النبوة هكذا: "بيان خواص النبوة

ولها خواص ثلاث: أحدها تابعة لقوة التخيل والعقلي العملي" وبين هذه الخاصية بإسهاب وتفصيل وأذكر هنا بعض العبارات الجديرة بالذكر: "ثم إن المتخيله يفعل مثل ما يفعل في حالة الرؤيا المحتاجة إلى التعبير بأن يأخذ تلك الأحوال ويحاكيها ويستولـــى على الحسية حـــتى يؤثـــر ما يتخيل فيها من تلك في قوة بنطاسيـــا[١]" بأن ينطبع الصور الحاصلة فيها في البنطاسيا المشاركة فيشاهد صور إلهية. عجيبة مرئية وأقاويل إلهية مسموعة هي مثل تلك المدركات الوجيبة وهذا دون درجات **المعنى المسمي بالنبوة وأقوي من هذا أن يستثبت تلك الأحوال والصور علي هيئتها مانعة للقوة المتخيلة عن الانصراف إلى محاكاتها بأشياء أخرى وأقوى من هذا أن يكون المتخيلة مستمرة في محاكاتها والعقل العملي والوهم لا يختلفان عمن استثباته فيثبت في الذاكرة مصورة ما أخذت ويقبل المتخيلة علي بنطاسيا ويحاكي فيه فأقبلت بصورة عجيبة ويؤدي كل واحد منهما علي وجهه وهذه طبقة النبوات المتعلقة بالقوة العقلية والخيالية".**

بالرغم من أن الإمام الغزالي بين المعنى الأصلي بعد أن عقده لكن النتيجة هي نفسها التي بينها صاحب كتاب المقاصد بكلمات واضحة، وهذا الموضوع نقلا عن أبي علي سينا وقد أدى أبو البقاء هذا الموضوع بكلمات جامعة مانعة ومختصرة جـــدا، وهكذا فقد كتب في (التعريـــفات) حيث عرف الوحي بقولـــه: "فنحن نري الأشياء بواسطة الحس، والنبي يري الأشياء بواسطة القوي الباطنة ونحن نري ثم نعلم والنبي يعلم ثم يري".

وهذا هو رأي الفيلسوف أبي نصر الفارابي وأبي علي سينا وغيرهما ولكننا لن ننقل آرائهم لأن هؤلاء الفلاسفة لا يسلم باقتدائهم من الناحية الدينية.

---

(١) المقصود فلاسفة الإسلام.

الإسلام لا يمنع التحضر والرقى بل يؤيده

هذا هو المعيار الخامس والذي بسببه يقاس عليه صحة الدين، وقد ناصب المنكرون للدين العداء لهذا المعيار، وفي رأيهم أن جميع الأديان تقف عقبة كئود أمام الترقي والتحضر الدنيوي ونبين أسبابهم فيما يلي:

١- الدين ليس محدودا بل الاعتقادات فقط بل في كل ما نقوله ونفعله وهو يريد التدخل في كل أمر في المشي والتجول، والنوم واليقظة، والقيام والجلوس، والطعام والشراب لا يمكن لشيء أن يخرج عن حده فكيف يستطيع الإنسان أن يتطور في مثل هذه الحلقة المفرغة، ولهذا السبب فإن الشعوب عندما تتطور وترقى فإن عليها دائما أن تتحرر من هذا النوع من القيود الشديدة.

٢- الأعمال الدينية تكون شديدة وصارمة والالتزام بها لا يفسح المجال للتطور الحضاري والاجتماعي.

٣- كل دين يلقن أنصار الدين الآخر التعصب والكراهية الشديدة، ونتيجة لهذا لا يحكم أي شعب بالعدل على العلمانيين وبسبب ذلك تظل جماعة كبيرة من البشرية مقهورة ومحرومة من الحضارة.

هذه الاعتراضات لا تخلو من الحقيقة بالنسبة لعامة المذاهب، لكن يجب أن نرى هل هذه الاعتراضات يمكن أن تستهدف الدين الإسلامي أم لا؟

لا شك أن أكثر الأديان تقيد الإنسان بقيود دينه في كل أفعاله ولكن الإسلام جاء ليمحو هذا النوع من القيود، وعند اليهود كل شيء مرتبط بقيود الدين وأعظم

مقاصد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رفع وإزالة تلك القيود والعوائق. يقول القرآن الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف).

حسنا فكروا كم كانت الأحمال على عاتق اليهود وقد خفف الرسول عنهم وكم من الأغلال رفعها وأزالها.

وقد خاطب القرآن الكريم اليهود والنصارى بشكل خاص قائلا: "لا تغلوا في دينكم" وهنا صورتان للغلو الديني أولها تدخل كل أنواع الحركات والسكنات في دائرة الدين، والثانية أحكام دينية شديدة وصارمة وغير قابلة للتنفيذ. وقد محا الإسلام كلا منهما، وقد وسع الناس دائرة الدين حتى أدخلوا فيه ترف الحياة ورفاهيتها والطيب من الطعام والشراب والزينة وأقروا بعدم جوازها وقد قال القرآن الكريم عنها: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾.

وبناءً على تلك الأحكام الإلهية فصل الرسول صلى الله عليه وسلم الأمور الدنيوية كالحياة الاجتماعية والحضارية تماما عن دائرة الدين وقال: "أنتم أعلم بأمور دينكم".

والاعتراض الثاني هو أن الإسلام يزعم وهذا الزعم صحيح بأن أحكامه الدينية في غاية البساطة والوضوح وسهل العمل بها: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج)، ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة). " ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾و ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة)، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾. هذا ليس زعما بل إن جميع أحكام الإسلام شاهدة على هذه الدعاوى، وهنا صور متعدد للغلو في الأعمال الدينية هي:

١- الزيادة في عدد الفرائض والصعوبة في أداءها أو أن أداءها يستغرق وقتا طويلا. وفى الإسلام خمس فرائض وهي: الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد أما الزكاة والحج مفروضان على الأغنياء، والجهاد فرض فقط فى الوقت الذي يكون فيه ضرورة للحفاظ على الدولة الإسلامية ويبقى فرضان فقط لعامة المسلمين وهما الصلاة والصيام، أما الصيام فمرة واحدة في العام، وهو غير مكتوب على المسافر والمريض والضعيف من الناس، والصلاة لا يمكن أن يعفى منها المسلم بأي حال من الأحوال ولكن لها عدة صور فالوضوء غير ضروري للمريض، وراكب الفرس أو السفينة لا يلتزم بجهة القبلة، وهو حسب الضرورة يمكنه الصلاة واقفا أو جالسا أو مضطجعا أو راكبا على الفرس على أي شكل من الأشكال، وفى حالة السفر يصلي ركعتين بدلا من أربع ركعات ومن الضروري الالتزام قليلا بخصوصيتها والآداب والأركان المقررة لأدائها، فيمكنه أداء الصلاة ويداه مفتوحان بجانبه، وعاقدهما، ويستطيع أن يضع يده على صدره أو فوق سرته ويقرأ الآيات جهرا وسرا كذلك المهم أنه فيما عدا بعد الأمور فإنه ليس من الضروري الالتزام بأي طريقة خاصة، وهكذا فإن الأئمة يختارون طرقا مختلفة.

٢- لقد فرضت قيود صغيرة وجزئية لأداء الفروض وقد استقر على ضرورة كل واحدة منها، وباقي الأديان الأخرى فيها هذا النوع من الغلو يمكننا تقديره من أحكام التوراة، فمثلا الأضحية التي تؤدى في الإسلام بطريقة سهلة ويسيرة نموذج مختصر من تلك القيود المفروضة عليها في التوراة:

"وحضر هارون إلى منطقة باكترين للتضحية عن خطئه وأحضر عجلا وحطبا، وأحضر معه كبشا للتضحية وارتدى

القميص الكتاني المقدس ولبس على جسمه رداءً كتانيا وتمنطق بمأزر كتاني، ووضع على رأسه عمامة كتانية وارتدي هذه الملابس المقدسة بعد أن غسل جسمه بالماء وضحى من أجل بني إسرائيل بعترتين صغيرتين، واقتراب هارون ناحية هذا العجل للتضحية بخطئه حيث جعله كفارة لأهل بيته، ثم حمل معه هذين القربانين إلى باب خيمة بني إسرائيل وحضر أمام الرب واقترب هارون من كلا القربانين، وأجرى قرعة لله والقرعة الأخرى للنار، وأحضر هارون ذلك القربان الذي اقترع عليه باسم الرب، وذبحه تضحية لذلك الخطأ.

ثم أشعل عودا من جذوة النار التي على المذبح أمام الرب ثم أخذ بقبضتيه حفنة من البخور، ونثرها عليه، ووضع ذلك البخور في النار فى حضور الرب حتى يخيم دخان بخور موضع الكفارة على صندوق الشهادة فلا يهلك ثم غمس أصبعه بدم العجل ولطخ بها الجانب الشرقي لموضع الكفارة ثم مرر أصبعه المغموسة بالدم سبع مرات أمام موضع الكفارة"

(التوراة: الأحبار باب ١٦)

هذا النوع من القيود الصبيانية يوجد عند الهندوس وجميع الشعوب الأخرى، لدرجة أن أي شخص لا يستطيع التعبد لله بصفة شخصية مادام لا يوجد كاهن يساعده على أداء أي عبادة، فالكهنة وجودهم ضروري للهندوس، والقساوسة للنصـــارى، والأحبار لليهود، ولكن المسلم لا يحتاج إلى شخص آخر ليساعـــده، فهو نفسه القس، وهو نفسه الكاهن، وهو نفسه الحبر.

لم يختر الإسلام أي شرط من هذا النوع بوصفه نموذجًا لمنهجه، ومع هذا أخبرنا أن هذه القيود في حد ذاتها ليست ضرورية، فأمر بالصلاة تجاه القبلة ومع

ذلك قال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ وعندما ذكر الأضحية قال: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ ﴾.

وسيأتي الرد على الاعتراض الثالث بالتفصيل فيما بعد، نحن فقط لا ندعي أن الإسلام موافق للحضارة بل ندعي كذلك أنه مطور للحضارة، وأوصلها إلى حد أعلى درجات التحضر، ولا يمكننا إنكار هذا الأمر وهو أن الحد الذي وصل إليه التحضر الدنياوي اليوم في أوربا لم يصل إليه قط، ولهذا يجب أن نمعن النظر في الأصول الأصلية لهذا التحضر ولا يمكننا حصر الأصول المهمة للتمدن والتحضر في أوربا طبقا للعنوان التالي: وعندما يحدث تطور في تحضر شعب ما في الدنيا أو سيحدث في المستقل ستكون طبقا لهذه الأصول.

أصول التحضر والرقي في الإسلام:

١- الأساس الأول لكل ما وصل إليه الإنسان من رقي هو أن يعتقد أنه أعلى المخلوقات، وأن جميع الكائنات الأخرى خلقت لمتعته وكان القرآن الكريم أول من أشار إلى هذه الأصول في قوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

وهناك آيات كثيرة أخرى في هذا المعنى سترد لاحقا.

٢- إن أساس رقي الإنسان هو أن يؤمن أن خيره وشره، ورقيه وتخلفه، وصعوده وزواله جميعا رهن لسعيه وجهده وجميع نجاحات الدنيا والدين متوقفه على سعيه هو فقط، وقد بين القرآن الكريم هذه الأصول موضحا لها ومؤكدا عليها: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، و﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة) و ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ (الأنعام)، و﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ

﴿ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران)، و ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال)، ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الروم). ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (الشورى).

وقد أكد الإسلام على هذا المضمون وصرح القرآن به من موضع لآخر، وهو عندما يؤدي العبد عمل ما فإن الله يهديه إليه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ (يونس)، و﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت). ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (الأحزاب)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد). ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف). ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد).

في هذه الآيات يأتي عمل الله متأخرا عن عمل العبد كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ ﴾، أي عندما ضل هؤلاء الناس فإن الله أضل قلوبهم كذلك، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، أي أيها المسلمون اختاروا تقوى الله وقولوا قولا سديدا حتى يصلح الله لكم أعمالكم، مع أن التقوى نفسها اسم للعمل الصالح، وعندما سيتقي شخص ما فما الحاجة إلى إصلاح عمله.

من الضروري توضيح هذا الأمر هنا وهو أن القرآن الكريم فيه كثير من الآيات التي يبدو منها في الظاهر أن الإنسان مسير فقط وما يفعله يفعله الله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾، ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، وأكثر ما يطعن فيه النصارى هو أن ما يوجد لدى المسلمين من تكاسل وضعف في الهمة وفتور في العزيمة إنما يعزوه إلى أثر القضاء والقدر ولهذا تخلف المسلمون وهي نتيجة حتمية لدينهم نفسه.

مع أن المتواكلين من علمائنا وصوفيتنا يؤكدون هذا الزعم بسلوكهم إلا أن هذا النقد وهذا الاعتراض في الحقيقة باطل كليا.

والرد المختصر على هذا أن القضاء والقدر نفسه هو الذي عن طريقه دخل كل صحابي في قلوب آلاف البشر وتفوقوا على الجميع، ولو أن علماءنا وصوفيتنا استعملوا هذه الكفاءة من أجل كسلهم وانكسارهم فأي قصور للإسلام في هذا؟

والرد العلمي هو أن الإسلام لا شك قد جعل للإنسان سلطة كاملة ولكنه مع هذا توخي الحيطة والحذر في هذا الأمر حتى لا يختلط هذا الاعتقاد بحد الإلحاد فيكون الإنسان مخيرًا له معنيان: أحدهما أن الخالق والله تعالى ليس بشيء ما، ولهذا فالإنسان قادر مطلق وما يريده يفعله وما لا يريده لا يفعله. والمعنى الثاني أن الله قادر مطلق لكنه جعل الإنسان مسئولا عن أفعاله ولهذا فما يريده الإنسان يفعله وقد رفض الإسلام المعنى الأول وبناء على ذلك ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، ومعناها أن المشيئة والإرادة التي تمنحوها يمنحها لكم الله، ولو لم يشاء الله ما كانت هذه المشيئة، ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

والحكم القاطع لهذا الأمر هو أنه يمكننا تلمس تعليم الإسلام للجبر أو الاختيار من هؤلاء الناس الذين كانوا في مركز الإسلام وكانوا صورة مجسمة للإسلام والعارفين بدقائق تعاليم الإسلام وهم الصحابة رضوان الله عليهم فماذا أدركوا؟ وما تأثير تعاليم الإسلام عليهم؟ والتاريخ شاهد على أن تعاليم الإسلام جعلت منهم مثالا يحتذى في السلطة والحق والعزيمة والهمة والشجاعة.

المســــــاواة:

٣- إن أصول المساواة هي أعظم أصول الرقي الحضاري أي حق المساواة لجميع البشـــر، وطبقا لقول الفيلســوف "جوندرسيه" إن "المساواة هي

المقدمة الأولى لفهم حقوق الإنسان، والمساواة الأساس لجميع الأخلاق الحميدة".

ولكن هذه الفكرة لم تظهر في أي دولة أو شعب حتى قبل الإسلام، وفيما يتعلق بقانون الجزاء والعقاب الذي كان متبعا في الشعوب المتحضرة كان المجرمون يعاقبون طبقا لمكانتهم ومنزلتهم، ويذكر لاروس في موسوعته "أنه كان هناك جزاءات مختلفة للجريمة الواحدة في الإمبراطورية الرومانية، أي أن المجرم يعاقب طبقا لمكانته وحيثيته". بعد ذلك فصل المؤلف المذكور هذا الظلم وانعدام العدل وعدد الأحداث والوقائع التي تثبت صدق كلامه من روما حتى فرنسا ثم كتب في النهاية أن ثورة ١٧٨٩م قد ألغت جميع هذه الامتيازات لأنها هي نفسها استبعدت تلك الألقاب والرتب التي كانت قائمة على أساس التكريم والتقدير الشخصي أو الوراثي".

ويذكر الفيلسوف فرنك أنه: (قد أرسيت دعائم المساواة في بعض شعوب أوربا منذ خمسين عاما وتنتشر الآن كذلك في أوساط الشعوب الأخرى).

لقد ذكر الفيلسوف فرنك أن المساواة بدأت عندهم منذ خمسين عاما لكن هذه الأصول قامت في الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنا مضت. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

لم تكن هذه مجرد كلمات، بل إن نظام الإسلام قائم على تلك الأصول وظلت هذه الأصول ثابتة مادام هناك إسلام، لقد كانت هناك درجات مقررة للقبائل في بلاد العرب في الجاهلية فكان الرجل في قبيلة أكثر حسبا ونسبا يعتقد أنه يعادل عدة رجال من القبائل الأخرى، أي أن قصاص رجل من قبيلة ذات حسب كان يقتل في مقابله عدة رجال من قبائل أخرى، وهكذا كان قصاص دم العبد لا يمكن أن

يقابله قتل السيد الحر، وبناء على أصول المساواة محا الإسلام هذه التفرقة تماما، وقد بلغ الغرور بقريش مبلغا أنهم رفضوا بناء على التعالي الطبقي مقابلة الأنصار في غزوة بدر لأن ضرب الأنصار عار عليها وكانوا يساوونهم بعبيد فارس والحبشة المملوكين، وأبو سفيان سيد قريش وزعيمها، كان يعتبر نفسه خصما منافسا لرسول الله وعندما جاء الإسلام ساوى بينه وبين بلالاً وصهيبًا رضي الله عنهما مع أن بلال وصهيب عبدان أعجميان مملوكان، كان جبلة بن الأيهم من مشاهير ملوك العرب عندما اعتنق الإسلام أراد أن يسلم بمكانته ومرتبته كملك في مقابل الرجل العامي البسيط ولكن عمر الفاروق رضي الله عنه والذي كان نموذجا حقيقيا للإسلام لم يوافق فتعنت جبلة وارتد وذهب للنصارى واعتنق دينهم.

وعندما سافر عمر الفاروق إلى الشام ودخل بيت المقدس كان غلامه راكبا على ناقة وكان رضي الله عنه يمسك زمام الناقة بيديه في الوقت الذي خرج الناس من منازلهم لرؤية شوكة خليفة الإسلام وجاهه.

وهناك آلاف من الأحداث من هذا النوع لا يمكن حصرها، والنتيجة العامة التي يمكن التوصل إليها أن جميع المؤرخين ذكروا أن أول بداية للظلم في الإسلام كان في قول "تنح عن الطرق" أي أن كبار السادة وزعماء القبائل كانوا في أوائل الإسلام لا يستطيعون أن يقولوا لرجل بسيط في الطريق تنح عن الطريق فقد كان استعمال هذه الكلمة بداية للظلم.

التسامح الديني:

٤- إن أكبر وسيلة لرقي الحضارة، وأعظم مؤشر على حضارة الرقي هو إبعاد الكراهية الدينية والتعصب المذهبي، ومنذ أن صارت الدنيا مأهولة بالسكان ظلت طريقة كراهية أهل الأديان الأخرى دائما في كل شعب

وفي كل دولة وفي كل إمبراطورية ولم يمنحوا حق الحرية الدينية، وكانوا يلقنون الكراهية والتحقير، ويكره الناس على تغيير دينهم بمختلف الطرق، ليس هذا فحسب بل إن هذا العرف كان سائدا في جميع أنحاء الدنيا قبل الإسلام، وكأن الإنسان قد جبل على أنه ما دام هناك شخصان يختلفان فيما بينهما في فكرة أو رأي فإن أثر ذلك ينعكس على جميع الأمور الاجتماعية فتنشأ بينهما الكراهية التي تصل إلى حد العداوة والبغضاء.

وقد أقام الإسلام منذ البداية حدودا فاصلة بين الاختلافات الدينية والعلاقات الأخرى، أي أنه أخبرنا أنه لو هناك خلاف ديني مع شخص ما يجب ألا ينعكس أثره على الحياة الاجتماعية عامة، فقال عن بيان حقوق الوالدين: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، ثم قال بشكل عام: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(١).

ولم يكتف بهذا بل أخبرنا بالفلسفة الأصلية لهذه المسألة أي أن الله تعالى قد جبل فطرة الإنسان على الاختلاف في الرأي والذوق والخيال والسيرة والصورة، ولهذا فإن الرغبة في جعل جميع الناس شاءوا أم أبوا على فكر واحد كأنه محو للفطرة. وقد بين القرآن الكريم هذه الفكرة بهذه الكلمات:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود).

---

(١) يوجد في القرآن الكريم كثير من الآيات من هذا النوع تأمر فيه بحب وصداقة أهل الأديان الأخرى ويقدمها علماؤنا من أهل الظاهر في كل مناسبة في حين أن هذه الآيات خاصة بأولئك الكفار الذين يحاربون المسلمون حربا دينية، ولذلك فإن الله تعالى بعد هذه الآية صرح قائلا: "إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ (يونس)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (المائدة).

﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ (الأنعام).

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (الأنعام).

﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (الرعد).

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (الشورى).

﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل). ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ (السجدة).

وباقتضاء البشرية كان الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يشق عليه ويسوءه عدم اكتراث الكفار وعصيانهم وتعنتهم فنزلت عليه هذه الآية في القرآن الكريم: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

ولكن لأن فطرة أكثر الناس قد جبلت على قبول كلام الحق بالموعظة والنصيحة والهداية، ولهذا فقد أجاز الإسلام الدعوة إلى الإسلام عن طريق الموعظة والنصيحة وقال تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

(النحل)

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية)، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ (المزمل).

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس).

فالإيمان والعقيدة هو ما وقر في القلب؛ ولهذا لا يمكن أن ينشأ أي إيمان في قلب أي شخص بالقوة والإكراه، ولهذا فإن الإكراه في الدين لا فائدة ترجي منه أبدا، ولكن هذه الفكرة لم تستوعبها أفهام الدنيا حتى ذلك الوقت ما دام الإسلام لم يقل: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة).

ويقول العالم الفرنسي الكبير (جول سيمان): إن "الحرية الدينية لم يمض عليها وقت طويل لأن جميع تواريخ الدنيا هي في الحقيقة مجموعة من البغضاء والتعصب الديني".

وبعد ذلك عدد سيمان أحداث التعصب الديني بالتفصيل منذ القرون الأولى وحتى العصور الوسطى وذكر في النهاية أن الروح الفلسفية بحثت أخيرا الحرية الدينية في ٤ أغسطس ١٨٨٩م، ولكن هذه الفكرة ظهرت إلى حيز الوجود في ذلك الوقت عندما نجا اليهود من الظلم في سنة ١٧٩١م ورغم ذلك فإن طريقة إدارة الثورة الفرنسية لم يكن جيدا، ولهذا لم تستطع أن ترسي أسسا قوية للحرية الدينية.

لقد بين العالم "جول سيمان" هذا الأمر بداية من سنة ١٧٧٩م في حين أن الإسلام أرسى الحرية الدينية منذ ثلاثة عشر قرنا، ولكن لأنه لم يكن واقفا على حقيقة الإسلام وتاريخه لذا أقام رأيه عن العالم كله بناء على الشعوب الأخرى وكان يجب أن يقيم مثل هذا الرأي.

٥- إن أحد الأسباب الرئيسية في تطور الحضارة أن تؤدي حقوق المرأة والرجل بالتساوي، وكان العالم بأسرة قبل مجيء الإسلام يعمل خلافا لهذه الأصول. والإسلام هو أول دين حث على هذا الأمر، وقد بحثنا هذه القضية بالتفصيل آنفا.

٦- إن أصل أصول الرقي عند شعب ما هو أن يعتز كل فرد من أفراده بنفسه وقد راعى الإسلام هذه الفكرة واعتنى بها منذ البداية؛ ولهذا قال مخاطبا المسلمين: "كنتم خير أمة" و"لله العزة ولرسوله وللمؤمنين".

ولقد استقرت هذه الفكرة في أذهان المسلمين منذ القرون الأولى للإسلام، وهي أن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية كان يعتبر نفسه أنه الأفضل في العالم وهذا هو نفسه فكرة الاعتزاز بالنفس التي كانت سببا في شيم الفخر وعلو الهمم والعزائم والشجاعة والطموح لدى جميع شرائح المسلمين. ولعلكم قرأتم في كتب التاريخ كيف كان المسلم العادي يتحاور بشجاعة وحرية في بلاط قيصر وكسرى.

٧- العلم في مقدمة أصول الرقي، وقد أكد الإسلام على العلم وكأنه فرض من فروض الإسلام، والنصائح الموجودة بكثرة في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والمتعلقة بتحصيل العلم توضح ذلك، وبصرف النظر عن تلك النصائح والتعاليم يوجد شهادة على هذا الأمر في كل مرحلة من مراحل التاريخ، وحيثما ذهب الإسلام في أي مكان فإنه قد اصطحب العلم معه، وأن تلك الشعوب التي ظلت تغط في الجهل والأمية منذ الأزل تشبعت بالعلم والفن والثقافة منذ اليوم الأول لظهور الإسلام وكان العرب في جاهلية منذ بداية الخليقة لدرجة أن كبار الشعراء في صدر الإسلام كانوا يعتبرون القراءة والكتابة عارًا، وكان رؤبة شاعرًا مشهورًا متعلمًا عندما وصف في إحدى المناسبات بأنه متعلم طلب من الحاضرين بإلحاح شديد ألا يفشوا هذا السر في مكان ما، وقال: إن في ذلك إساءة كبيرة وخزيًا لسمعتي، ولكن جزيرة العرب هي نفسها التي صارت مركزا للفنون والعلوم مع ظهور الإسلام وقد ولد هناك أئمة ومجتهدون أمثال الإمام الشافعي والإمام مالك والزهري، وقد كانت الشعوب التركية موجودة من آلاف السنين ولكن هؤلاء الأتراك عندما اعتنقوا الإسلام ظهر بينهم الفيلسوف أبو نصر الفارابي وأمير خسرو ومئات العلماء والشعراء وعليكم أن تحصوا جميع شعوب العالم الذين اعتنقوا الإسلام وتقارنوا بين حالتهم العلمية قبل الإسلام وما صاروا إليه بعدم الإسلام وسيتجلى بوضوح أن العلم كان عنصرا من عناصر الإسلام.

الحكومة الجمهورية:

٨- أحد أكبر أصول الرقى أن يقام نظام الحكم بناء على الجمهورية وقد أكد الإسلام على هذه الأصول، كما أن الرسول صلى الله عيه وسلم أمر بالالتزام بها "وشاورهم في الأمر".

ومع هذا فإن الوحي والإلهام كانا ينزلان عليه صلى الله عليه وسلم عند الحاجة للتشاور وتبادل الآراء مع الآخرين، وللمزيد من التأكيد فقد أقر القرآن هذه الخصوصية المميزة للمسلمين. ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾.

٩- أعظم أصول التطور والرقي هو تقسيم العمل على أسس وقواعد، أي أن كل فرقة تزاول عملا خاصا بها وتنهمك في أدائه وتطور هذا العمل بوجه خاص وتصل به إلى أعلى درجات الرقي، وقد تطورت هذه الأصول في أوربا لدرجة أن كل طبيب صار متخصصا في مرض خاص به وفيما عدا ذلك المرض لا علاقة له بعلاج المرضى، والطبيعة نفسها تعمل طبقا لتلك الأصول فلكل من اليد والرجل والرأس والقلب والدماغ عمله المنفصل، وقد أشار الإسلام إلى تلك الأصول بهذه الكلمات:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾

١٠- في كل عصر من العصور تظهر فرقة من الناس ترى أنه يجب أن تمحي المراتب المختلفة بين أفراد البشر وهذه الفكرة هي فكرة الفوضويين والعبثيين في أوربا ولكن هذا الأمر في الحقيقة خلاف لأصول الفطرة، ولو عمل بها لأعيقت كل أنواع التطور والرقي مرة واحدة وقد بين الإسلام فلسفته في هذه الكلمات: "نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيواة الدنيا ورفعا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا".

١١- أسمى معارج الرقي هو ألا يكون للتطور العلمي أي نهاية وحدود أي أن الإنسان لا يقنع بما وصل إليه من حدود التطور وأن يهتم بمنازل التطور الأخرى الباقية التي لم يتم الفصل فيها بعد، وقد أكد الإسلام على هذه المسألة ومع أن الرسول نفسه تفوق في العلوم اللدنية إلا أن الله خاطبة بهذه الكلمات: "قل رب زدني علما".

العلاقة المتبادلة بين الدين والدنيا:

الحق والباطل هما أعظم معايير الدين منذ بداية خلق العالم وحتى اليـــوم، وقد أخطأت جميع الأديان وجميع الشعوب (ما عدا الإسلام)، في هذا المعيار، وكانت الفرقة الإباحية المزدكية وأتباع "ابيقورس" فقط يقولان بالمتع الدنيوية في حين لم تعر جميع الأديان الأخرى المتع الدنيوية أي اهتمام، وبقدر ما ظل الإنسان بمعزل عن المتع الدنيوية بقدر ما يسمو إلى الكمال وهذه الفكرة هي التي أوجدت الزاهد والناسك والمتصوف والراهب وتارك الدنيا، وظلت تلك العظمة راسخة في قلوب أولئك الناس وكانت هامات كبار الملوك تنحنـــي أمام أشعـــث أغبـــر معـــدم يفترش الحصير.

يذكر المستشرق "فوير باش" أن "أعظم فضائل الدين أنه هدم الحياة السياسية والقومية وترك جميع أعمال الدنيا لهذا الهدف، وبتواضع جم أضعف كل أنواع الشهوات والعواطف الفطرية وقتلها في انتظار الجنة".

يقول لاروس: "كان الزهاد يهدفون إلى محو الشهوات الفطرية التي تؤثر عليهم كليا"، وهذه ليس خاصة بالدين فحسب بل إن الحكمة والفلسفة يميلان إلى هذا الناحية، وكانت حياة سقراط وأفلاطون وديوجانس وابن الكلبي وأبي نصر الفارابي تشبه أسلوب وطرق حياة الزهاد والنساك، حسنا انظر بتمعن هذه الفكرة وإلى أي مدى هي مخيمة على العالم بأسره، وعندما نسمع عن شخص ما أن الدنيا في نظره لا تساوي جناح بعوضة وأنه يظل يفترش أديم الأرض ويعيش على الخبز والملح ينشأ في قلوبنا تلقائيا التقدير والإعزاز له، ولا نبحث إلا في تلك الأمور فقط وهل هناك كمال ورقي آخر أم لا؟

إن الموازنة بين الدين والدنيا واستبقاء التناسب الصحيح والتوازن فيما بينهم أمر غاية في الصعوبة حتى إن كبار العلماء في أوربا أقروا استحالة حصولها وأبدوا الندم على حصولها. يكتب هنري برنجيه في **review of review(vol:24)**: (ياليت شخصا ذكيا يمزق نقاب التعصب العلمي والديني معا، وتتكشف له هذه العلاقة القوية بين الفكر العلمي والفكر الديني ولو فعل ذلك فإنه يمحو ألم الصراع الذي يدور بينهما منذ أمد بعيد).

النهي عن الرهبانية:

والآن انظر إلى الإسلام كيف وازن بين الدين والدنيا فكان أول من محا فكرة الرهبنة وترك الدنيا:

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾، ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾.

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾.

جميع الأديان الأخرى تذكر أن نصيب الإنسان من تلك الدنيا الواسعة طعام لسد الرمق، ومتران من الملابس، لكن الإسلام أخبرنا أن كل ما في الدنيا من أرض وصحراء وجبال وأشجار وحيوانات وياقوت وجواهر وفواكه وروائح جميعا من أجل أن يتمتع بها الإنسان بشكل مشروع.

﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ ﴾.

(لقمان)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ ﴾.

(النحل)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ (النحل).

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ ﴾ (النحل).

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ ﴾، ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ ﴾ (النحل).

وهناك آلاف الآيات من هذا النوع ولا ضرورة لاستقصائها.

وقد بينت تلك الآيات بصراحة ووضوح أن كل ما في الدنيا جميعا أعد لمتعة الإنسان ولهذا السبب سخر الله تعالى جميع المخلوقات للإنسان، وقد بين القرآن هذا النوع من التعميم في التسخير ويبدو في الظاهر أنه أسلوب شاعر أو استعارة لكن الزمن يثبت كل يوم أن المعنى الحقيقي هو المقصود وليس الاستعارة، تستخدم في أعمال عجيبة وغريبة.

هذه الفكرة تستحق التفكير وهي أن المتع الدنيوية اسم لأشياء تقدر بآلاف بل مئات الآلاف من المتع ولكنها لو حددت في أقسام فإنها تنقسم كلها إلى ثلاثة أقسام المال والأولاد والشهرة، والآن انظر ماذا قال الإسلام فيما يتعلق بها. فالقوة والجاه والثروة تعد نعمًا إلهية ومنحها إحسان أسدي إلى الأنبياء عليهم السلام وعند ذكر الله تعالى للنعم التي منحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾. والملك والجاه والمال الذي تلقاه سيدنا سليمان ذكره القرآن الكريم في أبهة وعظمة وأخبرنا إلى جانب هذا أن سليمان عليه السلام نفسه طلبها من الله ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾. وقد ذكر الله تعالى المنن التي من الله بها على بني إسرائيل فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾.

﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

وأعظم من هذا فقد وعد الله بتعويض الأمة المحمدية عن الأعمال الصالحة بمنحها الخلافة والسلطان: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. وحيثما ورد ذكر الإنسان بكونه أشرف المخلوقات يذكر معه الرقي الدنيوي ألا يتضح من هذه الطريقة أن للإنسان بوصفه أشرف المخلوقات له دخل كبير في ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

الكلمات التي وردت في القرآن الكريم عن المال والثروة:

من القرائن القوية التي يمكننا الاستدلال بها على مكانة الثروة والمال ومنزلتهما في الإسلام هو ما ورد في القرآن الكريم واللقب الذي ذكرهما الله تعالى به.

وقد ثبت من البحث والاستقصاء أن الله تعالى سمى المال بالفضل في خمسة وعشرين موضعا، وعبر عنه بكلمة (خير) في إحدى وعشرين موضعا، وذكره بـــ(حسنة) في اثني عشر موضعا و(بالرحمة) في اثنتي عشرة مرة.

وقد نقل العلامة أحمد بن محمد الرازي جميع تلك المواضع بعينها، ونقل هنـــا عـــدة آيـــات على سبيـــل المثال حـــيث يذكـــر فيها المال بلقـــب (خير): ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾، ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾، ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾، ﴿ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴾، ﴿ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾، ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.

وزينة الحياة الدنيا الثانية هي الأهل والأولاد، وفي القرآن الكريم موضع عدد الله تعالى فيه الأوصاف المميزة لخاصة عبادة فبدأ بهذه الكلمات: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾.

وزينة الحياة الثالثة هي الشهرة والسمعة الحسنة وقد ذكر الله تعالى نفسه فضلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾.

وفي النهاية من الضرورة بمكان القول أن القرآن الكريم بين كذلك مساوئ المال والثروة في مواضع مختلفة، لكن عندما نوازن بين كلا الموضعين سوف يتضح لنا أنه بين مساوئ المال والثروة عند إنفاقهما في غير مكانهما وتبذيرهما بلا هدف يرجى ومن ذا الذي يمكنه إنكار مساوئهما؟

المؤلف في سطور:

شبلي النعماني

- أديب شاعر ناقد كاتب ومؤرخ هندي شهير ترك ثروة فكرية هائلة أثرت الحياة الثقافية في شبه القارة الهندية، وأسس ندوة العلماء في لكناو بالهند وهي من أهم المؤسسات التعليمية الإسلامية المعاصرة.
- وكان على صلة وثيقة بكتّاب العالم الإسلامي في عصره وخاصة محمد رشيد رضا وجورجي زيدان في مصر، ونشرت له مقالات عديدة في المنار والهلال في مصر وألف كتابا نقد فيه "تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان" باللغة العربية.
- وكان يكتب ويؤلف بالأردية والعربية والفارسية والإنجليزية، وقام بزيارة للعالم الإسلامي تركيا وسوريا ولبنان ومصر والتقى بشيخ الأزهر وعلي مبارك وغيره من علماء مصر وألف كتابا عن رحلته هو "سفر نامه مصر وشام وروم" وترجم ونشر في المجلس الأعلى للثقافة بعنوان: "رحالة هندي في بلاد الشرق العربي" ونشر المجلس له كذلك "الفاروق" و"علم الكلام الجديد".
- ومن أشهر مؤلفاته: الجزية، وسيرة النبي، وشعر العجم ويقع في خمسة مجلدات والغزالي وموازنة بين أنيس ودبير وغيرها.

المترجم في سطور:

جلال السعيد الحفناوي

أستاذ اللغة الأردية والدراسات والحضارة الهندية – قسم اللغات الشرقية – كلية الآداب – جامعة القاهرة . مصر.

المؤلفات:

- فن السيرة في الأدب الأردي . دار النشر للجامعات – القاهرة ١٩٩٨.
- نقد الشعر الأردي عند الطاف حسين حالي. دار النشر للجامعات – القاهرة ١٩٩٩.
- المسلمون في الهند: قراءة من الداخل. مكتبة الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠٠٥م.

الترجمات عن الأردية:

١- سيرة الفاروق – تأليف شبلي النعماني. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٠م.

٢- الشعر والشاعرية: تأليف ألطاف حسين حالي. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٠م.

٣- الفردوس الأعلى: تأليــف عبدالحليم شـــرر. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠١م.

٤- رحالة هندي في بلاد الشرق العربي : تأليف شبلي النعماني، المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٢م.

٥- قصص قصيرة من الهند: تأليف قرة العين حيدر وآخرين. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٢م.

٦- ديوان صلصلة الجرس: تأليف محمد إقبال . المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٢م.

٧- ديوان جناح جبريل : تأليف محمد إقبال. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٢م.

٨- ديوان ضرب كليم : تأليف محمد إقبال. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٣م.

٩- مرآة العروس: تأليف نذير أحمد. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٣م.

١٠- النثر الأردي: تأليف سيد محمد. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٤م.

١١- جليل قولو زاده كاتب أذربيجان الوطني: تأليف عيسى حبيب بايلي. دار الثقافة العربية. القاهرة ٢٠٠٨م.

١٢- علم الكلام الجديد: تأليف شبلي النعماني. المركز القومي للترجمة، القاهرة (تحت الطبع).

ترجمات عن الإنجليزية:

- تراث الهند. تأليف جاريت. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة . ٢٠٠٤م.
- الأوسمة: وسام الصداقة بين الشعوب من جمهورية أذربيجان ٢٠٠٨م.
- الأوراق البحثية: نشرت له العديد من البحوث باللغتين الأردية والعربية في كل من: الهند وباكستان وإيران وأزبكستان وقازاقستان والأردن والسودان والسعودية.

المراجع في سطور:

السباعي محمد السباعي

- أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة شغل منصب وكيل، ثم عميد كلية الآداب – جامعة القاهرة فرع بني سويف.
- وأسس مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، ورأس تحرير مجلتي رسالة المشرق ومجلة الدراسات الشرقية.
- عضو لجان تحكيم دولية وعربية شارك في العديد من المؤتمرات الدولية والمحلية.
- وله عشرات المقالات والبحوث والكتب ومنها: جلال الدين الرومي وكتابه فيه ما فيه، وعبد الوهاب عزام رائدا ومفكرا ومن ترجماته "تاريخ إيران القديم"، "الإسلام في إيران" .
- راجع العديد من الترجمات والمعاجم ونال عدة أوسمة من إيران والكويت وسوريا وجامعة القاهرة.

التصحيح اللغوى: محمد ديب

الإشراف الفنى: حسن كامل

يسجل هذا الكتاب إسهامات علماء الهند فى التأريخ لعلم الكلام، ويأتى فى جزأين: الأول فى علم الكلام، والثانى فى الكلام.

يتناول المؤلف فى الجزء الأول نشأة علم الكلام عند المسلمين والتطورات التى واكبت عهوده المتعاقبة، ويقدم وصفا تفصيليا للتغيرات التى طرأت عليه، ويختتم بنقد أنواع هذا العلم ومآخذه. ويأتى الجزء الثانى فى مناقشة "علم الكلام الجديد" كما أطلق عليه المؤلف، ويقارن فيه بين عقائد الإسلام وفلسفاته وقضاياه الكبرى التى تناولها العلماء حتى تاريخ حياة مؤلفه.

تصميم الغلاف: ديمة الحساني